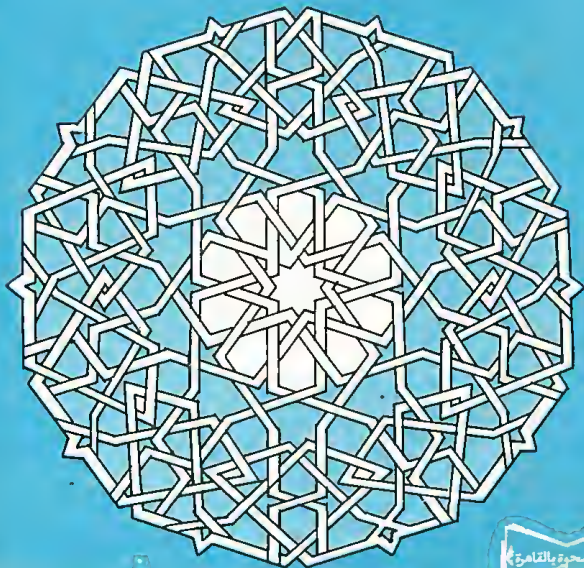


وحيد الدين خان

واقعنا ومستقبلنا في ضوء الإسلام

ترجمة: د. عبد الحميد إبراهيم



دار الصحوة بالقاهرة

وحيد الدين خان

واقفنا ومستقبلنا
في ضوء الإسلام

حقوق الطبع محفوظة
١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م

الطبعة الأولى

واقعنا ومستقبلنا

في ضوء الإسلام

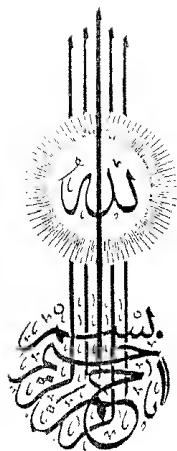
وحيد الدين خان

ترجمة: د. سمير عبد الحميد إبراهيم مراجعة: د. عبد الحليم عويس

الناشر

دار الصبوة
للنشر والتوزيع بالقاهرة

شارع جمال عبد الناصر بجوار مباني المهندسين - حدائق حلوان



الفهرس

٩	مقدمة المؤلف
١٢	حقيقه الدين
٣٠	شهادة الحق
٣٩	الأركان الأربعة
٧٦	الحراط المستقيم
٨١	الحراط المستقيم فى السلوك الفردى
٨٦	الحراط المستقيم الإجتماعى
٩٥	أسس النصر وقواعده
١٠١	منهج الدعوة إلى الإسلام
١٠٩	الدين الكامل كيف يتحقق
١١٣	الإسلام فى كشمير
١١٧	السيرة النبوية النموذج الأعلى للحركة الإسلامية
١٤٤	الإخراج من القبيلة
١٥٨	إقتصار الإسلام
١٦٨	الحركات الإسلامية فى العصر الحديث
١٨٩	بناء الأمة
٢٠٥	الدعوة إلى الله
٢٤٠	الإمكانيات الجديدة
٢٦٤	خاتمة

في قحمة ترواتي جنوب أفريقيا المعروف (اونفير شراينر)
(١٨٥٥ - ١٩٢٠ م) . بعنوان (حكاية مزرعه افريقية) ترد حكاية
صيد يرويها مسافر أجنبي لصبي فلاح . وقد تمثل ذلك « الصيد » في
البحث عن « طائر الصدق » الأبيض الجميل الذي كان قد رآه للحظة
خائفة على شاطئ بحيره . فأراد أن يوقعه داخل سُرَّ الاعتقاد
الحليب — في قفص تصوراته . الا أنه عرف أن الصدق يمكن نيله
بالصدق فقط . فترك وادى الأوهام . وبدأ الصعود فوق جبل الصدق
وظل يصعد ويصعد حتى وقف أمام صخرة عالية تعترض طريقه .
فبدأ يحفر في الصخرة . . . يصنع سلالم وأدراجاً . ويظل يصنع
تلك السلالم والأدراج سنة بعد سنة حتى أصابته الشيخوخة وهذه
الهرم . . . وحينئذ وصل الى قمته . الا أنه أدرك بعد ذلك أن أمامه
صخرة أخرى تفوق الأولى في علوها وارتفاعها بينما عمره الآن قد
وصل الى نهايته . ففارق الحياة عند هذا الحد .

وفي سكرات موته سقطت عليه ريشة بيضاء من جناح الطائر .
نتأكد حينئذ أن الطائر الذي يقوده يقف هناك عند الصخرة التالية .
رمع أنه لم يستطع الوصول الى طائر (الصدق) بنفسه الا أنه أسلم
الروح مطمئناً لأن الجيل الذي يليه لن يضطر الى بناء السلالم
والأدراج السابقة . وسوف يتمكن هذا الجيل من أن يمسك جناح
الطائر بيده . ومات الشيخ وهو يقول :

« . . . حيث أُرقد : وقد هدنى الضعف وحُصمتنى الشيخوخة .
سيقف رجال آخرون . شباب قوى ، تملؤهم النضرة والحيوية .
سوف يصعدون الدرجات التي صنعت ، لن يعرفوا اسم الرجل الذي

صنع هذه الدرجات ، ولكنهم سوف يصعدون . وعلى سلمى سيصعدون
... وسوف يحدون الصدق . ومن خلالي سيجدون » .
(أوليفر ثراينر : قصة مزرعة أفرقيه)

لم أجد ما هو أفضل من أسطور المسابقة لأعبر بها عن قيمه
هذا الكتاب الذى أقدمه للقراء الكرام .

لقد ولدت - على وجه التقريب - فى الأول من يناير ١٩٢٥ م .
وقد انتقل والدى فريد الدين خان رحمه الله إلى الرفيق الأعلى فى
٣٠ ديسمبر ١٩٢٩ م حين كنت فى الخامسة من عمرى فقط . بعدها
تلقيت تعليماً وتربية خاصة فى بيئة مدينة (أعظم كره) تميزت
بما فيها من تقاليد دينية . واضطرتنى ظروفى إلى أن انظر إلى كل
شئ نظرة فاحصة ودقيقة . وحين وصلت إلى مرحلة الإدراك . عرفت
أن الدين الذى حكم والأفكار الإنسانية وسيطر عليها لألف سنة فى
« العصر القديم » . قد أصبح مستضعفاً من كل ناحية فى « العصر
الجديد » فظهرت بداخلى عاطفة تدفعنى لأبحث فى هذه القضية .
فبدات القراءة والمطالعة بانتظام .

ويظن معظم الناس أننى من خريجي الجامعة . إلا أن الحقيقة
هى أننى قضيت جميع مراحل تعليمى داخل المدرسة العربية فقط .
وبعد أن انتهيت من الدراسة بالمدرسة العربية . تعلمت بنفسى اللغة
الانجليزية . ونتيجة لقراءتى لهذه اللغة وكتبتها قراءة مستمرة . ساد
الأسلوب الجديد طريقتى فى الكتابة فبدأ الناس يعتقدون أننى لم
أدرس بالمدرسة العربية وأننى تلقيت تعليمى على النهج الغربى ،
والحقيقة أننى بالمعنى الاصطلاحي للتعليم فى الهند (مولوى)
(أى شيخ فقيه) .

وقد شكل تعليمي أو بمعنى أدق شكلت الخلفية الفكرية التي واكبتني طوال سني تعليمي مدرسة تعليمية تقليدية — على الأقل — إلا أنه من الواضح أن هذا الأمر لم يكن كافيا لفهم الإسلام فيما يتعلق بالعصر الجديد . ومن هنا وفي سنة ١٩٤٨ م اتخذت قرارا جديداً . فحاولت من ناحية أن أتعرف على الأفكار الجديدة من مصادرها المباشرة . ومن ناحية أخرى بدأت قراءة القرآن وتحديث العلوم المتصلة بها لفهم الإسلام من انبداية . وإذا كانت السنوات الخمس والعشرون الأولى في حياته قد انقضت في الدراسة والتعليم فان الخمس والعشرون سنة التالية قد انقضت في ابحت والمخالعة . وحين تنتقضي الخمسون سنة الآن . فيسرني أن اقدم هذا الكتاب الذي يعد نتاج بحث طويل !!

وإذا كنت بهذا قد صنعت أدراج أو سالام الصخور النظرية فإن أمامي جبلا آخر . وقد وجب الآن أن تتحرك مهمة الإسلام بصورة عملية في ضوء الحقائق المكتشفة .

لكنني أشعر أن طاقتي قد ضعفت : فقد عجل بشيخوختي جهاد الماضي الشديد قبل الألوان : إذ قضيت عمري كله في صنع « السلام النظرية » فكيف لي أن اصنع « السلام العملية » ويكفيني أن أشعر بالاطمئنان ، لأنني قد اكتشفت (الصدق) على الأقل بطريقة فكرية . فلعلي أموت وأنا أقول إن من بعدى جبلا لن يضطر إلى صنع السلام السابقة ... » !!

وحيد الدين

(١٣٩٥ هـ) (١٩٧٥ م)

حقيقة الدين

العبادة :

ما يريد الله من عباده يتمثل أصلا في العبادة :

« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » *

(الذاريات — ٥٦)

هذه الآية وآيات أخرى متسابهات توجد بكثرة في القرآن الكريم . وهي الآيات التي جاء فيها أن الرسل إنما بعثوا ليظلموا الإنسان على مسئوليته هذه (النحل ٣٦) (١) . وهذا الأمر على درجة من الأهمية حتى أن الإنسان إذا لم يجد الفرصة لعبادة الله في وطنه . وجب عليه أن يترك هذا الوطن وينتقل إلى وطن آخر (النساء ٩٧) (٢) والمفهوم اللغوي للعبادة هو أن تخضع وأن تذلل (أصل العبودية الخضوع والتذلل — إنسان العرب) والمفهوم اللغوي للعبادة هو نفسه المدلول الشرعي لها أيضا . وقد كتب أبو حيان الاندلسي يقول :

« العبادة التذلل . قاله الجمهور » *

(البحر المحيظ — المجلد الأول ص ٢٣)

ولهذا استعمل لفظ « الاستكبار » للسلوك المقابل للعبادة —

قال تعالى :

(١) ينشد المؤلف قوله تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله » *

(ل.راجع) .

(٢) ينشد المؤلف قوله تعالى : « أن الدين توابعكم اللانكة شامى انفسهم قالوا

نم كنتم قالوا كنا مستغفمين في الارض قالوا ألم تكن ارض الله واسمة متهاجروا منها .

(ل.راجع) .

« إن الذين يسكنون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين »

(المؤمنون - ٦٠)

ومع أن أصل مفهوم العبادة هو الخضوع والتذلل إلا أن هذا اللفظ حين يقال لله فهو يشمل أيضا مفهوم المحبة • يكتب ابن كثير :

« العبادة في اللغة من الذلة • يقال طريق معبد وبغير معبد أى مذل • وفي الشرع عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف » •
(تفسير القرآن - المجلد الأول ص ٢٥)

وهذه ألفاظ الامام ابن تيمية :

« لفظ العبودية يتضمن كمال الذل وكمال الحب » •

(رسالة العبودية ص ٢٨)

وكتب الحافظ ابن القيم •

« العبادة تجمع آملين : غاية الحب بغية الذل والخضوع » •

(تفسير ابن القيم ص ٦٥)

فالهدف الاساسى من العبادة هو الخضوع لله والتذلل له • وذلك ما عبر عنه القرآن الكريم بالكلمات التالية : « خسية • تضرع • إخبات • انابه • خسوع • خضوع • قنوت » وغيرها من الكلمات • فعبادة الله تعنى أن تسلم نفسك وتخضع له إلى أقصى درجة • ثم أن هذا العمل الذى يمثل العبادة لا يتم أمام ظالم وجبار بن أمام رحمن رحيم • له علينا حسنات وفضائل لا نهاية لها • ومن هنا وجب اظهار عظمة الحب داخل هذا الخضوع والتذلل بصورة ضرورية • فالعلاقة بين العبد والرب هى علاقة خضوع وتضرع بحسب شديد يفوق كل حب • وفى الوقت نفسه حين يرتعد العبد من شدة الخوف • تتسكب

الدموع من عينيه حين يتصور الله أمامه . وفى الوقت نفسه يكون فى حالة تجعله يهب لربه أحسن وأطيب عواطفه . فهو يتطلع إلى الله باستتيق يقوق كل استتيق . ويضع نفسه داخل كيفية ساميه عليه من الحب الملىء بالألم . فالتضرع والتذلل لله هو بلا شك انما يكون من الخوف منه خوفا لا يدانيه خوف . إلا أنه ليس خوفا من النوع اذى يشعر به الإنسان حين يرى شيئا مخيفاً بل هو فى الاصل عاطفه لا يمكن التعبير عنها — بطريقة صحيحة تماما — باى لفظ اخر . فهدده حاله ننتج من امتزاج محبه الله بخفيه انه وفيها لا يمكن تالاسان أن يرجح إحداهما على الأخرى . فهذا مقام للمحبه والخوف يلجا فيه الإنسان إلى من يخشى ويخاف . فهو يسعر بحضر هناك فى مصفاة الماء إلا أنه يضع امه فى الحصول على الماء فى هذه المصفاة . فهذا نوع من الاضطراب كله اطمئنان . ونوع من الاطمئنان كله اضطراب .

وهن المعروف ان العباده من حيث حقيقتها الأصلية هى أمر حسى وليست مظهرها خارجيا . والإنسان فى النهاية هو وجود حسى . وهن هنا تصبح العبادة للإنسان فى شكلها الأخير أمراً حسيّاً ونبيست مظهرًا خارجياً ، وقد صرح الحديث الشريف أن (التقوى) هى اسم لحالة فى القلب (التقوى ها هنا — البخارى)

ويقرر القرآن الكريم أن التقوى انما تنتج من العباده :

« يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون »

(البقرة — ٢١)

والعبادة من ناحية مظهرها الخارجى هى اسم للخضوع لرب . ومن ناحية حقيقتها الداخلية هى اسم لهذا الإدراك العميق . حين يذوب العبد فى ربه حتى تطرأ عليه حالة يشعر فيها أنه أمام الله .

« تعبد الله كأنك تراه » (البخارى من المشكاة كتاب الايمان)
وطبقاً لحديث الرسول ﷺ ، فان أسمى العبادات هى أن يذوب
العبد فى ذكر الله وفى تصويره له حتى يشعر أنه قريب منه . ومن هنا
تطراً على العبد حالة من الاستحضار وكأنه يرى الله . وحالة القرب
هذه هى أسمى مقامات العبادة فناطية . فجميع الأعمال التى يطلق عليها
اسم مناسك العبادة أو مراسم العبادة هى كلها طرق للوصول الى
هذه العبادة ومظاهر ضرورية لها . فترها رب العباد . فاذا قام شخص
ما وأدعى أنه يعبد الله بدون هذه المظاهر أو يعبد الله خارج حدودها
فهو كاذب فى دعواه . لأنه بدونها لا يمكن — حقيقة — أن تثبت شجرة
العبادة داخل الإنسان . فاذا كان الإنسان فى الواقع إسماً لهذه الروح
الخاصة التى لا يمكن ان نشاهدها . فإن هذه الحقيقة قائمة أيضاً وهى
أنه لا يمكن ان نتصور اوجود الإنسانى فى هذه الدنيا بدون الجسم
الإنسانى .

ومع أن كلمة العبادة تضم من هذه الناحية الشريعة بأكملها . لأن
ما يقوم به العبد لإرضاء معبوده ولأداء أوامره وأحكامه ترجع دوافعها
إلى عاطفة العبودية . إلا أن العبادة هى أساساً وأصلاً اسم لهذا
العمل الخاص الذى يتم بين العبد والرب . والعمل الذى يتم بين العبد
والعبد هو من مستلزمات العبادة . بينما العمل الذى يتم بين الرب
والعبد هو بذاته عبادة . فالعبد حين يقيم الصلاة يكون مشغولاً بعبادة
الله مبسرة . فهو حين يسجد لله لا يوجد هناك وجود ثالث يحول بينه
وبين الله . وعلى العكس من هذا فحين يقوم العبد بتنفيذ الأحكام
الإلهية فيما يتعلق بالأخلاق والمعاملات فهو يطبق مستلزمات أمور
العبادة على الآخرين . ومن ناحية التطبيق فالأمر يستلزم أيضاً وضع
الفرق بين النوعيات فى الأذهان كما هو فى أعمال العبادات وإلا فلا يمكن

أن ينشأ في ذهن الإنسان التصور الصحيح الدين . لأن المستلزمات تكون مطلوبة دائماً لشيء آخر بينما الحقيقة أمر منسوب مطلقاً .

وعلى سبيل المثال إذا ما قيل إن من مستلزمات المسلم أن يقسم أموال الميراث طبقاً لقانون الله . فهذا لا يعنى أن يقوم كل رجل بالضرورة بمحاولة القيام بهذا • وأن تكون لديه بعض الممتلكات ليقسمها بالتساوى بين أصحاب الحق فيها . وذلك حتى يتمكن من تنفيذ حكم الميراث . والا فلن يكتمل دينه . بل أن الهدف هنا فقط انما يعنى أنه إذا نال مسلم ممتلكات في تركة ما أو في مال ما حينئذ يفرض عليه إيمانه وإسلامه أن يتصرف فيها طبقاً لأحكام الميراث الإسلامية • فهذه المفريضة التي تتعلق بتقسيم ما يحصل عليه المسلم من ميراث ليست مثل عبادة الله التي تجب على كل شخص على الإطلاق •

ويفهم من هذا الترح الخاض بالعبادة أن ما يتعلق بمحبة الله والخوف منه ليست مجرد « محرك » للحياة العملية بل هو امر مطلوب في حد ذاته وهو الهدف الاصلى الذى من أجله خلقتنا في هذه الدنيا . فجميع الأعمال والأفعال هي وسيه محمول على الإدارات الحسى الذى يعبر عنه بالـ «عقل بالله» والوصول إلى الله . وبالحفاظ اخرى إن ما بيننا وبين الله ليس فقط علاقة فرض ذهنى من نوع خارجى (أى نقوم بعمل ما أكثر من مرة فيرضى عنا الله في السماء) بل أكثر من هذا أن تقوم بيننا وبينه علاقة مباشرة وسوك العبودية في شكله الظاهرى هو تطبيق الحكم ولكن من ناحية الحقيقة هو في الأصل يسنن العبد إلى مقام يستطيع فيه أن يلتقى مع ربه . ينجى ربه وينسعر باحساس يشعر من خلاله أنه يقف دائماً على باب ربه الذى وسعت رحمته كل شيء •

وهكذا يحسن المسلم بوجود الله في الحياة الدنيا هذه هي الحقيقة
اعيا للدين .

وهدف الأحكام والآداب كلها هي الوصول بالإنسان إلى هذا
المقام . وهكذا من أدرك وجود ربه في الدنيا فسوف يجده أيضا في
الآخرة . ومن حرم من أدراكه في الدنيا فلا يجوز له أن يأهل في إن
ينال نعمة لقاء الرب في الآخرة أيضاً .

ما هي كيفية الوصول إلى (ثروة) الدين هذه ؟ أن معرفه هذه
الثروة والوصول إليها يتحقق إذا ما بدأ الناس في الوصول إلى « رزق
الله » (طه - ١٣١) (١) ومن الواضح أن ما تقرم به من عمل في
سبيل تنفيذ أحكام الله داخل في محض اختيارك ، فإن شئت فعلته وإن
سئت لم تفعله . ولكن ما يطرا عليك من احوال ومشاعر داخلية أثناء
التطبيق لا يدخل في نطاق اختيارك فأنت نفسك لا يمكن أن تنشئ هذه
المشاعر ...

إذن من أين تأتي هذه الأحوال والمشاعر . انها اساساً تأتي من
الله . وهي رزق المؤمن الذي بدونه لا يمكن أن تظل شخصيته الإيمانية
حية باقية . هذا هو « رزق » العلم والعمل الذي وجد داخل ذات مريم
عليها السلام فسأها نبي ذلك الزمان : « أنى لك هذا ؟ » فأجابت :
« هو من عند الله » (آل عمران ٣٧) . إن محاولتك هي عملك . وهذه
المشاعر والأحوال هي الثمرة التي تنالها من الله جزاء حسن العمل .
فالله لا يعطى نعمته قرضاً بل يعطيها نقداً : والعبد المؤمن يجد هذه

(١) المفسر قوله تعالى : « ورزق ربك خير وأبقى » (المراجع) .

النعمة في الوقت الذي يستحقها فيه . فحين يقبل الله منا عملا ما نظرا علينا وارادات ملكوتية بطريقه محيرة . ومع أن الجنة التي وعد الله تعالى بها المؤمنين الصالحين جاءت في شكل روائح الجنان يجدها أهل الإيمان في الدنيا . ومع أن الكيفيات التي تطرأ على المؤمن تأتي في شكل تسوق شديد وقلق إلا أنها ألد من كل المآذات . ولا يمكن ان تقاس عليها اية لذة دنيوية معروفة . وهذه حقيقته ثابتة بالحس^١ الوجداني . عى ان هذه المساعر ولاحوا^٢ واورادات هي صورة لأعظم النعم الالهيه التي يعبر عنها بالجنة كما علمنا القرآن الكريم أن المؤمنين سينالون الجنة في الآخرة . وهي بالنسبة لهم رزق معلوم (الصافات - ٤١) (١) - وهي بالنسبة لهم ليست شيئا غريبا عنهم بل هي شيء حي معروف لديهم تعرفوا عليه في الدنيا :

« ويدخلهم الجنة عرفها لهم » (محمد - ٦)

يروى عن أبى سعيد الخدرى أن النبى ﷺ قال :

« والذي نفسى بيده إن أحدهم بمنزلة في الجنة أهدى منه بمنزله الذى كان في الدنيا » . (أخرجه البخارى في صحيحه)

وحين يوفق الإنسان في التصديق على روح قوله تعالى :

« الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجله » (المؤمنون - ٦١)

وحين يوفق الإنسان في الحصول على نصيب من هذه التلاوة التي تصور قوله تعالى : « نرى أعينهم تفيض من الدمع » (المائدة - ٨٦) - وحين يقضى ليله في اشتياق إلى ربه ، تلك الليالى التي جاء ذكرها في القرآن بقوله تعالى : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع » (السجدة ١٦) ، وحين تمر عليه لحظات من الحرقه المؤلمة التي يدرك فيها حقيقة

(١) المقصود قوله تعالى : « الا عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم » .

قوله تعالى : « **وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ** » (البقرة - ١٦٥) وحين ترد عليه أرق احساسات الإيمان ، وحين لا يكون بينه وبين الحقائق أى ستار . وحين يناجى ربه بقلب لا قرار له . وشفاء مرتعدة تنطق بانفاذ ملهمة لم يفكر فيها من قبل ، هذا هو فى الأصل « رزق الله » الذى يمنحه للمؤمن . فهو يتذوق حلاوة الثمار التى حفظها الله له فى الدنيا واسمها (المشاعر والأحوال والواردات الإيمانية) ، وحفظها له فى الآخرة فى شكل نعيم الجنة ..

وفى ذلك الوقت سيشعر أهل الإيمان أن هذا النعيم هو الذى ذاقوا حلاوته فى الحياة الدنيا : « **كَلِمَا رَزَقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رَزَقُوا فَالُوا** هذا الذى رزقنا من قبل وأتوا به متشابها » .

(البقرة - ٢٥)

وما يناله أهل الجنة فى الآخرة هو عطاء متشابه ، وهو شئ معروف ومعلوم للمؤمن .. فأى جهل هذا الذى يصيب شخصا يعتقد أنه سيتذوق فى الآخرة شيئاً ظل يجهله فى الحياة الدنيا ، فإذا لم ترد عليك فى الدنيا مثل هذه اللحظات واللمحات التى تشعر فيها أنك بنفسك اقرب الى الله من أى شئ آخر ، فكيف تنال هذا القرب فى الآخرة ، وبلا شك فإن المصلين سينعمون فى الآخرة نتيجة لثواب الصلاة وأجرها إلا أن هذه النعمة هى جزء مما تعرف عليه المصلون فى الدنيا وهو ما أشار اليه رسول الله ﷺ : (جعلت قرعة عينى فى الصلاة) (النسائي)

مستلزمات العبادة :

ان ما يطلبه الله تبارك وتعالى من الإنسان أولاً وأخيراً هو أن يخضع له هذا الانسان ويطيعه ويسلم له نفسه ، وهذا ما يطلق عليه

العبادة . إلا أن الإنسان لم يخلق في فراغ بل خلق في دنيا مليئة بالأحداث . ولهذا فمن الضروري أن يعلن عن عبوديته من خلال جميع هذه الجوانب التي يتعامل معها في هذه الحياة الدنيا ...

١ - الجانب الأول : هو الجانب الذي يتعلق بذاته . فإذا ما حادقناه بعض متكلات الحياة في إطار مشاغل الحياة العديدة كان بوسعنا أن نيسلح ضربين اثنين : الطريق الأول طريق الله . والطريق الثاني طريق النفس وعباده الباطل . ولكن المسلم سوف نجبره عاطفة العبودية على أن يترك الطريق الذاتي وأن يختار لنفسه الطريق الذي أرشده إليه الله . فكما يسجد لله سجوداً حسيماً عليه أن يسجد له أيضاً في وجوده ومسلكه العملي . هذا هو مظهر العبادة الذي يتجلى بالنسبة لذاته هو . والاسم الذاتي الذي يطلق على هذا السجود هو « الطاعة » وأمكن هذه الطاعة في البيت . وفي الأسواق . ومجس السورى . وجميع الأماكن . حيث يواجه المؤمن الصورة السابقة . ويواجه مسأله الاختيار بين الطريق الرباني والطريق غير الرباني .

٢ - الجانب الثاني : هو الجانب الذي يتعلق بالعام الخارجي أو بالناظر أخرى يتعلق بغير المسلم . فعلى وجه هذه البسيطة يوجد أناس يعينون عليها لا تربطهم بربهم أية علاقة حتى الآن وعليه فهم يتجهون ناحية نهية أخروية خفية . وهذا الموقف الصعب يفرض على العبد المؤمن أن يحاول جذبهم إلى طريق العبادة الذي اختاره لنفسه . وهذا هو أحد مظاهر العبادة الذي يتضح للناس عامة . والاسم الثاني الذي يطلق على هذا العمل هو : الشهادة أو التبليغ . فما هو المطلوب من أهل الإيمان أنفسهم هو الطاعة (تنفيذ الأحكام) والمسئولية التي تقع على عاتقهم تجاه غير المسلمين هي : التبليغ .

ولنأخذ الآن المظهر الأول من العبادة: وهو « الطاعة » وينقسم هذا المظهر إلى قسمين أساسيين : انفرادى واجتماعى . والمقصود بالطاعة الانفرادية . طاعة الله في تلك الامور التى تتعلق بحياة أهل الإيمان الذاتية . وتندرج هنا جميع الأحكام التى قدمت فيما يتعلق بالأخلاق والمعاملات ، وعلى سبيل المثال : قول انصدق . الوفاء بالوعد . أداء الأمانة . العدل والانصاف . التواضع . الوزن بالقسط . أداء الحق لأصحابه . معاملة الجميع بالنصح . وخلاصه اقول ان الإنسان لا يمكن أن يتخذ قراراً ذاتياً في كل ما يتعرض له من معاملات ذاتية . وتنفيذ الارشادات الالهية فيما يتعلق بهذه الامور . يخلق عليه انطاعة الانفرادية . ولا يجوز لأى مسلم اذا ما عرف حكم الله في امر ما ان ينحرف عن تطبيق هذا الحكم .

« وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله أمراً ان يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ما دالا فبيناً »
(الأحراب — ٣٦)

هذه الطاعة (الفردية) هى حق واجب لله على كل مؤمن به ولا يمكن أن يعد الإنسان عابداً لله ما لم يطبق تلك الاحكام . فى حياته العملية . التى فرضها الله عليه فى احواله واعماله . ومع أن « العبادة » من ناجية مضمونها الداخلى اسم لحالة داخلية . فانه مطلوب من الباطنية الخارجيه أن يجعل للإنسان ظاهرة كله فى طاعة الله بصورة كاملة ، وأن يجعل سلوكه الخارجى تابعا كلية للخريطة التى رسمها الله : وواجب كل مؤمن ومؤمنة أن يتعامل مع جميع الامور السابقة التى تعترضه فى حياته الدنيا بأسلوب نابع تماما من طاعته لله . وأن يترك اتباع جميع الرغبات والاهواء الأخرى :

« يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في اسلام كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين »

(البقرة - ٢٠٨)

والأحكام التى اخترنا أن نضع لها عنوان « الطاعة » يمكن أن نطلق على القسم الثانى منها الأحكام الاجتماعية . وهى تلك الأحكام التى لا ينحصر تطبيقها فى مزاج المؤمن . ولكنها تطبق حين يكون المجتمع بأكمله مستعدا لتطبيقها . وهذا هو السبب فى أن هذه الأحكام نزلت دائما فى الوقت الذى كان المؤمنون يقيمون تنظيمهم السياسى . وهذا النوع من الأحكام أو القوانين الاجتماعية يمكن أن تنفذ بقوة .

والمخاطب هنا فيما يتعلق بأحكام الشريعة الاجتماعية هو المجتمع المسلم المستقل و ليس أفراد المؤمنين المتفرقين .

ونحن نشاهد فى تاريخ بنى اسرائيل أنهم حين كانوا تحت السيطرة القبطية فى مصر ، لم تقدم لهم الاحكام القانونية للتوراة . ولكن حين خرجوا من مصر ووصلوا إلى صحراء سيناء ثم أصبحوا جماعة حرة مستقلة ، حينئذ وصلتهم القوانين من عند الله (الخروج ١٥ : ٢٥) ونفس هذه الصورة وقعت عند العرب ، ففى العهد المكي حين كان المؤمنون أقلية غير مستقلة نزل عليهم الجانب الأصولى من الشريعة الذى لم يكن تنفيذه يحتاج إلى سلطة اجتماعية فكل مسلم له حرية اتباع هذا الجانب فى حياته بمحض قراره الخاص ، هذا بالإضافة إلى نزول بقية الشرائع تدريجيا ، وقد نزلت الارشادات التفصيلية المتعلقة بالحياة الاجتماعية فى المدينة حين أصبحت للمسلمين أرض يعيشون عليها .

إن ترتيب نزول هذه الأحكام يدل على أن ما يفرض على المؤمنين ويشرع لهم من الدين فى الأحوال العامة هو ذلك القسم فقط الذى

عرض عب زمن الاستقلال . بالاصاعة إلى هـد إن تطبيق بغير
الاحكام يحون واجبا ومفروضاً حين يمثلون زمام السلطة والحكم .
وحينئذ يحون من الضرورى تطبيق الاحكام اواجبه فى مثل هذه
الظروف . ونزول الاحكام الشرعية واتساع دائرتها تدريجيا يسدن
على ان هذه الاحكام ليست واجبه على اطلاقها بل هى واجبه
بما يتناسب مع الظروف (١) وتحديدها يحون دائما حاضعا للظروف
الواقعية لفرد او الجماعة التى تخاطبها التشريع . والحقيقة ان المخاطب
بالاحكام احضاريه والاجتماعيه هم مجموعه المؤمنين المطالبين بتطبيق
هذه الاحكام بصورة عمليه .

فهم يصدر حكم للمسلمين الذين لا يتمتعون بالحرية الكاملة يأمرهم
بتطبيق الاحكام الدينية على نطاق اجتماعى وعلى مستوى الدولة .
فتطبيق الاحكام هو مطالبة عمليه . ومثل هذه المطالبة تصدر فقط إلى
اولئك الناس الذين سبق اهم اقرار ذلك ويمكن ان يتم فعلا طبقا
لاستطاعتهم . فالأصول الواضحة للتشريعة هى انه « لا يكلف الله نفسا
إلا وسعها » (البقرة - ٢٨٦) أى لا يكلف أحد بمسئولية عمل إلا إذا
كان ذلك فى « وسعه » فانه لا يكلف أحدا غوق « طاقتة » . ولهذا
فلا يمكن أن يكلف الله المؤمنين بالالتزام بأحكام لا يمكن تنفيذها .
ولو وضع شخص ما أحكام الشريعة كلها امامه وادعى أن المؤمنين
مكلفون بهذه الأحكام فى جميع الظروف . أى أن عليهم واجب تطبيق
فهرس الأحكام الشرعية كلها على الأرض فهو كالشخص الذى يستند
على قوانين الزكاة جميعها ، ويقول بأن على كل مسلم مسئولية تنفيذ

(١) لا معنى هذا ما يروجه بعض المرتدين بشأن تعطيل الاحكام الشرعية : بل معنى
هذا أن تطبيق الشريعة يجب تطبيقه فى إطار الممكن وليس المستحيل . فالمسلمون فى الهند
(بلد المؤلف) عاجزون - حاليا - عن تطبيق الشريعة على الهنود . . . لأنهم لا يحكون .
وهم مستضعفون . . وهذا بخلاف غيرهم من الدول الاسلامية التى تدر على أنها مستقلة .
وانها اسلامية ولا تطبق الشريعة (المراجع) .

الأحكام الخاصة بجميع اقسام رأس المال غيما ينتعق بأموال الزكاة .
وعليه فيجب على كل مسلم أن يمتلك جميع ما جاء في القسم الخاص
بالأموال حتى يمكنه أداء جميع الفرائض التي جاءت تحت عنوان
ازكاة في حياته الدنيا .

فاحكام الدين هي — من ناحية التسلط — متنسبه جميعها . نحن
هذه الاحكام الخاصة بنا ليست متنسبه ، فابقران يأمر « باقام
الصلاة » ويأمر « بأداء الزكاة » واحكامان متنسبان معا في الظاهر .
وهما في حقيقته الامر . إلا ان الأحكام الخاصة بنا ليست متنسبه في
حد منهما . فحكم الصلاة هو حكم مطلق واجب التنفيذ على حد مسلم
ومسلمه . بينما حكم الزكاة مشروط بشرط النصاب . فالشخص اذى
يملك نصاب الأموال التي تجوز عليها ا.زكاة . ينطبق عليه حكم الزكاة .
وهو له حكم قطعى واجب انتنفيذ كحكم الصلاة تماما ؛ ولكن الشخص
اذى لا يملك نصاب اموال الزكاة فلا يطلب منه أداء ا.زكاة .
ولا يطالبه هذا الحكم أيضا بأن يحاول امتلاك الأموال التي يصل بها
إلى حد نصاب ا.زكاة حتى يتمكن من تنفيذ حكم الزكاة .

إن الفريضة تجب عليه في الوقت الذى يمكنه فيه أن يقوم بأدائها
ويفهم من هذا أن المستلزمات التفصيلية للدين ليست مشروعة شرعية
مطلقة بل هي مشروعة بما يتناسب مع الظروف ذاتها ؛ وبالدرجة التي
تنتشر بها دائرة المؤمن ، تزداد مستلزماته ، فحين يوجد شخص مؤمن
واحد ، يفرض عليه هذا النصيب من الدين الذى يتعلق بذاته فقط .
فيكون التركيز على ذاته حيث يطبق الهدايات الالهية ؛ وحين يصبح
المسلمون أسرة أو عدة أسر ، تكون هذه الأسرة مخاطبة في حدود دائرتها .
وحين يصبح أهل الايمان جماعة نكون مجتمعا مستقلا حينئذ يفرض
عليها الأحكام الخاصة بالمجتمع ككل ، وهى الأحكام التي فرضها الله

الاعتمادات الاجتماعية ، وعلى جميع أفراد المجتمع لا يرمى به جميعا .
ولأن تدبيرها على أساس المجتمع لا يمكن أن يتم بدون سببه ، لهذا
نحيز يصدر هذا الحكم لاي مجتمع مؤس فإن هذا يعنى بالضرورة
سميت أن يودر أفراد المجتمع - بينهم اميرا سياسيا ويخضعوا لامرته
ويسندون بحسبها شياء اجتماعية يحقروا من حلالها جميع القوانين
الشرعية .

والاحكام الأساسية فيها إنما هي مساج ضعيفة نفسية هذا ما وشر
الأيمن في القلب . فإن تأثيراته تبدأ في التفاعل داخل النفسية
الإنسانية . ومن الضروري بمكان أن نقول أن المظهر الخارجى لهذه
التأثيرات يكون بالفرد الذى يتاح للأحوال الخارجية . هذا هو شأن
مسيعة اعلائه التى تحكم أحد الإيمن . ومع أن تقسيمها إلى مراحل
أمر غير ممكن إلا أنه يمكن أن نقسمها إلى ثلاث مراحل أساسية حتى
يمكن لنا أن نفهمها :

المرحلة الأولى : مرحلته المثقين . وأصلها أن ينمى دس مسلم
لأخيه المسلم الخير من كل قلبه . وأن يكون مخلصا لأخيه احلاما
بأعما من قلبه (النصح لكل مسلم) (متفق عليه) وقد جاء في الانجيل
أيضا (أن يكون ناصحا لأخيه (الظهور — ٤ : ٩) .

وقد أتى جرير رضى الله عنه النبى ﷺ فقال :

« يدك يا جرير ، فقال : غنى مه . قال : أن تسلم وجهك له
والنصيحة لكل مسلم » .

(كنز العمال ج ١ ص ٨٢)

أى اسلكوا معا في علاقاتكم مع بعضكم بعضا سلوكا يكون مفيدا
لاخوتكم في الدنيا والآخرة . واحذروا كل سلوك بسعت على ايجاد
الفرقة والخلاف بين الأخوة المسلمين .

هذا هو العمل الذى ورد ذكره فى سورة العصر (المكية)
بـالفاظ التالية : « وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » (العصر - ٣) .

وهكذا ذكر الله تعالى أن عاطفة العبودية التى تنشأ داخل المؤمن
هى التواصى بالحق والتواصى بالصبر . وبهذا أوضح تعالى الجانبين
الهامين للضرورة الإيمانية . وهذا احد الجوانب العملية . فما يريد الله
من عباده هو ترغيبهم للتعاهد معا على الإيمان والإسلام من ناحية ، ثم
تعاون المؤمنين معا بقوتهم المشتركة للقضاء على انعوائق التى تعترض
طريق تشكيل المجتمع الإسلامى الذى يرضى عنه الله فى هذه الدنيا . وأن
يتعاونوا معا على النيات على ما يرضاه الله لمواجهة المشكلات التى تواجههم
والتغلب عليها من ناحية أخرى !! (وهذه هى المرحلة الاولى) .

والمرحلة الثانية : هى مرحلة التنظيم لكيلا يصبح المسلمون مجتمعا
متفرقا بل عليهم — بالدرجة الممكنة — أن ينظموا ما بينهم وأن يقرروا
سعاماتهم الاجتماعية على أصول الشورى . ومن نماذج تطبيق هذه
الأصول ما قام به نبي الله موسى عليه السلام فى صحراء سيناء حين شسم
بنى اسرائيل إلى اثنتى عشرة قبيلة . ونصب عليهم اثنى عشر نقيبا —
وفى بداية العهد الملكى نشأ حول النبي ﷺ تنظيم اجتماعى . وكان مركز
هذا التنظيم هو دار ابن الأرقم . واتبع أنصار المدينة هذه الطريقة تبلى
الهجرة . وعند بيعة العقبة الثانية (٦٢٣ م) حين قدم إلى النبي ﷺ
٧٥ شخصا (٧٣ رجلا وامرأتان) ، وأعلنوا إسلامهم ، حينئذ أمرهم
رسول الله ﷺ أن ينصبوا عليهم اثنى عشر نقيبا (فقد قال رسول
الله ﷺ : أخرجوا إلى منكم اثنى عشر نقيبا يكونون على قومهم بما
فيهم) (البداية والنهاية — ج ٣ ص ١٦٠) وهكذا انتخبوا من بينهم

اثنى عشر رجلاً أمراء . من بينهم ثلاثة من قبيلة الأوس وتسعة من قبيلة الخزرج . وبعد ذلك قال لهم الرسول ﷺ :

« أنتم كفلاء على قومكم » (الزرقانى المجلد الأول ص ٣٨٢) .

وكان هذا النوع من الإمارة هو ما تم بالنسبة لجعفر . حين عين أميراً على مهاجرى الحبشة (سيرة ابن هشام) !! وهكذا غان المسلمين الذين خرجوا من دار الإسلام وانتشروا في ربوع الأرض قد حاولوا في كل مكان ان يكونوا تنظيهم الاجتماعى . وما قاموا به من اجل ان يعيشوا حياة اسلامية . ومن اجل الدعوة إلى الإسلام في إطار كونهم جماعة منظمة وحتى يتمكنوا من القيام بأداء فرائضهم الشرعية كان لابد من أن يكونوا تحت زعامة أمير منهم . وهذه هي المرحلة الاجتماعية .

والمرحلة الأخيرة للمجتمع الاسلامى هي : مرحلة تشكيل النظام السياسى الذى يطلق عليه اصطلاحاً « نصب الإمام » ونصب الإمام أى تنصيب امام سياسى واجتماعى للمسلمين هو أمر واجب بالاتفاق :

• « نصب الإمام عندنا واجب » (شرح المواقف)

• « لابد للأمة من إمام » (شرح المقاصد)

• « المسلمون لابد لهم من إمام » (عقائد النفسى)

وهذه القضية على قدر كبير من الأهمية لدرجة أن كتب الفقه والعقائد لا تخلو من ذكرها ، ولا يوجد عليها أى اختلاف إلا عند فرقة من فرق الخوارج المهتلة « النجدات » ، يقول ابن حزم :

« اتفق جميع أهل السنة وجميع المرجئة وجميع الشيعة وجميع الخوارج على وجوب الامامة حاشا النجدات من الخوارج » (الملل والنحل ص ٧٢)

وإذا كان هناك اختلاف فيه، يعنى بهذا الأمر فهو أن أهل السنة والجماعة يعتقدون أنه أمر « سمعى » أى أنه حكم سريع واجب بتسرع وبرى بعض عرفى كالزيدية والمشرقة أنه من ضرورى غناء . ولكن هذا سبق أن أوضحنا فإن قضية تنصيب الإمام السياسى أمر يتعلق بالمجلس المسلم الذى يكون له وضع يمثله من إمامه بمظلم سياسى مستقلا لأنه يتمتع بمكانه اجتماعى . مستقلة . ولا توجد هناك قضية تتعلق بتنصيب إمام سياسى بالنسبة للمؤمنين المتفرغين بالمعبرين . وبالمعنى الأخرى ليس هذا حكما مطلقا بل معناه أنه لا توجد أية جماعة مسلمة لها صفتها الاجتماعية المستقلة . فإذا ما رجعت هذه الجماعة أصبح من الضرورى به أن ننظم مجتمعنا على أسس الدين . وأن نختار أميرها سياسى . الذى سيحس حياتها المنظمة تحت امرته .

والإمامة السياسية ليست مظهرا على السلطات الاجتماعية لجماعة ما . ونحن توجد السلطات الاجتماعية يمكن توقع ظهور الإمامة . فإذا لم توجد مظاهر السلطات الاجتماعية (أى الاستقلال الاجتماعى) غيب يمكن أن تظهر الإمامة وعلى أى أساس يمكن إعطاء مثل هذا النوع من التكليف « مايعنى ببقية الاحكام انسيبه ! »

إن ما ذكرناه قبل لا يتعلق بمسروعية الاحكام الخاصة بالمؤمنين . وهذا نذكر بالاضافة إلى هذا الأمر أهم حكمه الدين . وهى التدرج فى الاحكام . ومن هذه الناحية فمنلما لا تقع المسئولية على الأقلية المسلمة فى بدء مهمة تنفيذ الاحكام الاجتماعية للإسلام بين الاكثريه غير المسلمة .

فكذلك اذا نعر بعض الناس بالمساعر الاسلاميه داخل مجتمع مسلم متفكك فإن أول مراحل المسئولية الملقاة على عاتقهم لا تكون المطالبة بتحكيم الشريعة فهذا النوع من العمل يعنى تماما الانحراف عن الطريق التدريجى للإسلام .

والخريفة الصحيحة هي البدء في نشر التعليمات الأساسية والأحكام
الاولية للدين . والعمل على اصلاح المجتمع الاسلامى حتى تنبت بداهة
هذا المجتمع وبداخل افرادة بذرة قبول احكام الاسلام العادلة وقوانينه
الاجتماعية . وبعدها سيأتى الوقت الذى تبدأ فيه مهمه تنفيذ الأحكام
الاسلاميه .

وهناك رواية مشهورة لعائشة رضى الله عنها توضح أهمية التدرج
في الاحكام (١) . فإن التدرج — عند الله — على درجة تبعية من الأهمية
لدرجة أنه جل وعلا لم ينزل الأحكام الضرورية للمسلمين دفعة واحدة .
بل نزلت معظم الأحكام مسلسلة على أقساط . هذه هي المراعاة التى
أوجدت مسألة الناسخ والمنسوخ في كتاب الله . فلو نزل نزل حكم بحسب
التي نزل بها أولا وبشكله الكامل ما ظهرت مسألة النسخ . ويروى عن
حذيفة أنه لا يجوز لشخص يجهل مسائل الناسخ والمنسوخ أن يعظ
الناس أو يفسر القرآن .

(١) انما نزل أول ما نزل من سورة من السور من الله وأمر حتى إذا ما
انقضى إلى الإسلام نزل النسخ والنسخ وأمر من أول ما نزل لا . وما الله بعاث
الخبث وما أول ما نزل لا يبرأ فأول ما نزل لا . وما الله بعاث الخبث .

شهادة الحق

شهادة الحق أو الدخول إلى الإسلام هي مسئوليتنا حين نغير
الدين . ومعنى هذه شهادة إيصال رسالته إلى عباد الله بصريته
حامله منهم حتى لا يكون هناك فرصة في الأخرى لأن يقول هؤلاء . نعم
نحن نعرف الحقيفة .

لقد خلق الإنسان في الدنيا حتى يختبر ، يقول تعالى في كتابه العزيز :
« الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً » (١) وهذا أمر
جلى لأنه يعنى أن نهاية هذا الإنسان في الآخرة متوقفة على المسلك
الذى يتبعه في حياته . فإما الجنة الدائمة وإما الجحيم الدائم . ونظراً
لما عليه هذا الأمر من أهمية كبيرة فقد أقام الله تعالى للإنسان نظامين
معينين لاختياره وتحذيره : الأول أن يضع في فطرة كل إنسان
الاحساس بالمصحيح والخطأ . قال تعالى :

« .. فآلهما فجورها وتقواها » (الشمس - ٨) .

وإنشور بهذه الحقيفة يغرس في الإنسان من أول يوم ولادته :
« وإذا أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم
على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة
إنا كنا عن هذا غافلين » (الاعراف - ١٧٢) .

وهذا الوضع الفطرى وضع التكتيك الثانى . وهو استهوار
تسلسل الرسالة بانتظام حتى يصل علم الحقيفة إلى كل إنسان عن
تريق العمل الإنسانى مباشرة :

« رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد
المرسل » (النساء - ١٦٥) .

وسلسلة النبوة هذه تمضى منذ بدء الحياة . ولم يكن آدم عليه
السلام اوان انسان فقط بل كان اول نبي ايضا . وقد تساعت ارادة الله
ان تنتهى سلسلة النبوة فى القرن السابع الميلادى . وكان محمد ﷺ
(٥٧١ - ٦٣٢ م) اخر الانبياء المرسلين من عند الله . ولكن فيما يتعلق
بعمله تبليغ الرسالة فهى مطلوبة الآن ايضا ملما كانت مطلوبة من
قبل . ولهذا اختار الله الأمة المحمدية (هو اجتباكم .. الحج) وأرسل
اليها آخر الرسل محمد ﷺ اذى قدم الشهادة الكاملة للناس ، وأصبحت
خلاصة مسئوليتنا أن نشهد شهادة حق على أمم الدنيا تابعين فى ذلك
لنبي وحتى يوم القيامة :

« ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس »
(الحج)

وهذه المهمة ليست مهمة سمنية بل هى هدف وجود الأمة الاسلامية.
وطبقا لما جاء فى القرآن الكريم فإن تحقيق رسالة الرسول ارتكزت على
ابلاغ الرسالة إلى المخاطبين بطريقة تامة وكاملة وإلا ظلت فريضة
الرسالة ناقصة لم تكتمل :

« يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وإن لم تفعل فما
إنست رسالته » (المائدة - ٦٧)

وهذه المسئولية الملقاة على عاتق الرسول هى نفسها المسئولية
الملقاة على عاتق تابعيه . « .. أنا ومن اتبعنى » (يوسف ١٠٨) وكان
من الضرورى لتحقيق رسالة النبي أن يقوم ﷺ بابلاغ رسالة الهداية
إلى الناس . ومن هنا فإن بقاء الأمة المحمدية كأمة محمدية يرتكز على

عندها يبذلغ هذه الرسالة إلى الاجيال التالية بعد رسول الله ﷺ .
و لأنفسنا إلى الامة المحمدية إنما هو انتساب قائم على ان نضم
إلى الناس ما حملته انينا الرسول . وذلك حتى يرم القيامه والنواضع
أن الموت على دين آخر غير الاسلام إنما هو بمصابة القاء النفس في
النهلكة (كل من مات على غير دين الإسلام فهو في النار) والإنسان
لا يجوز ان يدنع فقط إلى المضي على طريق الحق بل يجب ان تغلج
بداخله الحمية حتى يحاول ان ينقذ أبناء جنسه الآخرين من هذا الخطر !!

ينقل ابن عبد البر^(١) عن معاوية بن حيدرة القشيري أن النبي
ﷺ بعه اندعوه وفي النباهه قال : « مالي أمك بحجزكم عن النار .
إلا وان ربي داعي وانه سائلني . هل بلغت عبادي غاتول رب قصد
باعت الا فليلغ ساهدكم غاتكم » (الاستيعاب)

هذه هي أهم المسؤوليات التي يجب على الامة المسلمه ان تؤديه
بعد ان تقضى على ما بينها من شائعات واختلافات . ينقل الجبرائي
عن مسور بن مخرمة فيقول :

« خرج رسول الله ﷺ على أصحابه فقال : ان الله بعني رحمة
للناس كافة . غادوا عنى رحمكم الله ولا تختلفوا كما اختلف الحواريون
عنى عيسى عليه السلام » .

وكما بعث النبي ﷺ . فإن هذه الامة المحمدية مبعوه على
الدوام لتحقيق هذا الهدف . وفي زمان الخليفة الثاني حين انبعث
ربعمى بن عامر إلى بلاط فارس . دار حوار نورد بعضه :

(١) صاحب كتاب الاستيعاب في معرفة الأصناف . والاستيعاب لمذهبهم . الأئمة
وعلماء الأئمة . وهو من علماء الأندلس ونفاه الأئمة المازنين توفي سنة ١٧٢ هـ
(واسمه أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد) المازني .

لقد « قالوا له ما جاء بكم » فقال : الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عباده العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه » (البداية وانهاية)

وهذه المسئولية مسئولية عالمية لا تحددها أى حدود جغرافية . وقد نقل « صاحب البداية » خطبة مفصلة لنعمان بن مقرن في بلاط كسرى . وكان قد أجاب على سؤال لكسرى بقوله :

« وأمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف . فنحن ندعوكم إلى ديننا وهو دين الإسلام حسن الحسن وقبح القبيح كله » . (البداية والنهاية مجلد ٧ ص ٤١)

وكانت هذه المسئولية واضحة تماماً أمام الصحابة الكرام . وفي زمان خلافة أنفارق رضى الله عنه عرض عمرو بن العاص على المسئولين الدينيين بمصر مسئولية الدعوة الإسلامية فقال لهم : « إن الله بعث نبينا إلى الإنسانية برسالة . فأدى النبي رسالته كاملة . وترك لنا منهجاً واضحاً من بعده نمضى عليه ، ونبلغ هذه الرسالة الربانية إلى البشرية . وقد قضى الذى عليه وتركنا على الواضحة » .

(ابن جرير ج ٤ ص ٢٢٧)

إن الهدف الأول لبعثة الرسل هو ابلاغ الناس برسالة الحق في السر والعلن (نوح - ٩) ، فهذا العمل الذى فرضه الله . أى ابلاغ الرسالة إنما فرض حتى يعرف الناس النظام الذى خلق الله عليه الكائنات . ونهاية هذا النظام ، وحتى يتعرف الناس على ما فى الغيب قبل حلول الوقت حين ينقلب بساط الدنيا الحاضرة ويتحول الغيب إلى مشهود ويصبح عالم الغيب عالم الشهادة .

٣ - واتمنا واستقبلنا

ومسئوليتنا فيما يتعلق بهذا الأمر هي ان نطلع الناس على الحقيقة الأخروية . ونعلمهم أنهم عباد الله . وجدوا في هذه الدين ليحاسبوا على أعمالهم .

وتستوجب حكمة الله الناطقة أن يقدم الإسلام دائما لغير المسلمين على أنه « أعظم نظام دنيوي » وهذا الأمر واجب . إلا أن الإسلام إذا ما عرض أمام الناس على أنه أعظم نظام دنيوي فقط فإن صورته في أذهان الناس ستقتصر على كونه وسيلة حل القضايا العالمية . وبتعبير آخر سيتمصرون الإسلام سفينة النجاة من المتاعب الاقتصادية والسياسية . بينما الحقيقة أن الأنبياء بعثوا أساسا ليرشدوا الناس إلى طريق النجاة من العذاب السماوي .. وكما يقول القرآن .. فإنه سبحانه : « يلقى الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق » . (غافر - ١٥)

وتتمثل الصورة النهائية لمهمة التبليغ هذه أن يقبل المخاطب الدعوة وأن يعيش حياته طبقا لها . إلا أن الصورة النهائية لمهمة الداعي هي أن يقوم بابلاغ كلامه إلى الناس إلى آخر حد ، وأن يوضح الحقيقة للناس حتى لا يكون أمامهم مجال للاعتذار أو التأويل ، وهكذا كان المعيار الخاص باتمام حجة الأنبياء هو وصول كلامهم إلى الناس بطريقة كاملة مكتملة ، والا يتعرض المخاطبون لأمر معقدة ثساقة أو متعبة .

فجميع الأمم التي ورد ذكرها في القرآن . والتي لم تستمع إلى رسالة الأنبياء فاستحققت العذاب لما ارتكبتها من عصيان ، كانت هذه الأمم التي بلغ الأنبياء إليها الرسالة عن طريق الوعظ والارشاد . بكل الوسائل الممكنة ، وقد ورد التعبير عن هذا الأمر في القرآن بالفاظ

مختلفه تعنى كلها « لتعريف والابلاغ » مثلا : آية الصدع بالأمر (١) (الحجر - ٩٤) ، وتبيين الذكر (٢) (النحل - ٤٤) ، والاعلام بالوحى (٣) (الأنبياء - ١٠٩) ، وابلاغ الرسالة (٤) (الأعراف - ٧٩) ، ونص الآيات (٥) (الأعراف - ٣٥) وقراءة الآيات (٦) (الإسراء - ١٠١) وتلاوة للكتاب (٧) (العنكبوت - ٥١) والإنذار وانتبشير (٨) (سبأ - ٢٨) والفداء للإيمان (٩) (آل عمران - ١٩٣) والدعوة إلى الإسلام (١٠) (الصف - ٧) وتبليغ ما أنزل الله (١١) (المائدة - ٦٧) والتذكير بأيام الله (١٢) (لبراهيم - ٥) وغيرها .

ويروى البيهقى عن المغيرة بن شعبه أن أنبى ﷺ عرض دعوته ذات يوم على أبى جهل ، فقال أبو جهل :

« يا محمد !! هل أنت منته عن سب آلهمتنا . هل تخشى ألا نشهد أنك قد بلغت ، فنحن نشهد أن قد بلغت » .

وأشهد النبى ﷺ أصحابه عدة مرات على أنه قد بلغ الرسالة الإلهية بطريقة كاملة لأبى جهل ويروى الإمام أحمد عن ثعلبة بن عباد العبدري أنه وقف يخطب فقال بعد أن حمد الله :

يقصد المؤلف قوله تعالى ١ :

١ - فاصدع بها نؤمر .

٢ - وانزلنا اليك لنبين للناس .

٣ - قل إنما يوحى الى انبا الهىم اله واحد .

٤ - لقد أبلغتكم رسالة ربي .

٥ - يا بنى آدم انما بأنيتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى .

٦ - ولقد آتينا موسى نسع آيات بنيت .

٧ - أولم يكفهم أنا انزلنا مايك الكتاب بنلى عليهم .

٨ - وما أرسلناك الا كافة للناس بشرا ونذيرا .

٩ - ربنا اننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فاننا .

١٠ - ومن انظم بين أنفري على الله الكذب وهو يدعى الى الاسلام .

١١ - يا ايها الرسول بلغ ما أنزل اليك .

١٢ - ونذكرهم بيوم الله ٢ المراجع ١ .

« يا أيها الناس أنشدكم الله ان كنتم تعلمون انى قصرت عن شئ من تبليغ رسالات ربي عز وجل لما أخبرتموني ذلك قال : فقام رجال فقالوا : نشهد أنك قد بلغت رسالة ربك ونصحت لأمنك وقضيت الذى عليك » .

فالداعية يبدأ عمله بهذه العاطفه وينبغى أن يسمع الناس كلامه إلى آخر مدى مع مراعاة جميع مستلزمات الحكمة والخير .

وما تقع من أحداث بعد ذلك خلال هذه المهمة لا تتعلق أصلاً بعملية التبليغ . بل تتعلق بأولئك الناس الذين تقع عليهم الشهادة والتبليغ ويظل هكذا حتى يفارق الحياة . ومن الممكن أن تسلم إحدى نسوة خاص لعملية التبليغ ذاتها . فمن الممكن أن يقوم الداعى بالنداء والتبليغ ويظل هكذا حتى يفارق الحياة : ومن الممكن أن تسلم إحدى أهم شخصيات العصر فينتشر دين الله بسبب إسلامهم ومن الممكن أن يتنازع مع المخاطبين . وقد يتحد هؤلاء مع السلطة ويتآمرون — معا — للقضاء على حركة الدعوة : فانه تبارك وتعالى يبدل ويغير في الظروف بحيث تنتصر القافلة الأولى من الدعاة أو من يلونهم ، ويمكنون في الأرض ، ثم هناك صور مختلفة للتمكن في الأرض : فمن الممكن أن يكون الأمر مجرد غلبة سياسية . ومن الممكن أن تنال حركة الدعوة تعاون المخاطبين على نطاق واسع حتى يوجد هؤلاء وأولئك مجتمعاً منظماً على أساس الإسلام ... جميع هذه الصور يمكن حدوثها ولكل منها أمثلة في سير الأنبياء أثناء كفاحهم وجهادهم من أجل دعوة الحق . إلا أنها كلها لم تتضمن شرط الانتصار العامل والتمكن في الأرض . فاداء الشهادة أو القيام بالدعوة هو ببساطة دعوة الناس إلى رسالة

الله على أن تتوفر في عملية الدعوة جميع شرائط « النصح » (١)
(الأعراف — ٦٨) ويتوافر فيها أيضا « القول البليغ » (٢)
(النساء — ٦٣) ومهما كانت عوائق طريق الدعوة فإنه من الواجب
مواجهتها بحيث تستمر الدعوة ولا تتوقف . مهما حدث بعد ذلك ...
وكان المطلوب بالنسبة للداعى أن يبلغ رسالته لله إلى آخر حد ، وإلى
آخر عمره . وبقية الأحداث هي أمور يتعرض لها المدعو : ومن الواضح
أن لا يمكن وضع فهرس محدد لها ، كما أن الفروق الواضحة في نوعيتها
تؤكد لنا أنه لا يمكن أن يحكم على عمل الداعية بالنجاح أو الفشل
أو بالكمال أو النقص .

والامر الثانى فى هذا الموضوع هو أن نشاط الدعوة الذى يقدم
لغير المسلمين لا يستوجب ان يقدم لهم الدين كله دفعة واحدة فى وقت
واحد . بل الصحيح أن يرشدوا (أولا) إلى التعاليم الأساسية للدين :
(تصور الله) (تصور الرسالة) (تصور الآخرة) وتلك هى الأمور
التي توضع أولا أمام المخاطبين من غير المسلمين . ثم يوضح لهم
الإسلام من خلال هذه الجوانب المختلفة المسلسلة : فإذا ما حدث
ارتباك فى فهمهم وجبت محاولة إزالته بالاستدلال القاطع المؤثر : فإذا
ما وافقوا على ما قدم لهم وآمنوا بالإسلام ، تقدم لهم الأحكام التى
قررها الله لعباده المؤمنين . ولقد أرسل النبى ﷺ معاذ بن جبل ليدعو
أهل اليمن إلى الإسلام فقال له إنك ستقابل جماعة من أهل الكتاب
فادعهم أولا إلى كلمة التوحيد (فليكن أول ما تدعوهم اليه شهادة
أن لا اله إلا الله) وحين يؤمنون بها علمهم تدريجيا الصلاة وأعمال
الشريعة الأخرى .

نحمد لله تعالى

١ . انصحتكم رسالات ربى وأما انكم تاصح أمين .

٢ . أولئك الذين يحلم الله ما فى قلوبهم فاعرض عنهم وعظّمهم وقل لهم فى أنفسهم

نورا بلينا .

« فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ لمعاد بن جبل رضى الله عنه حين بعنه إلى اليمن ، إنك ستأتى قوما أهل كتاب . فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يسهوا أن لا أنه إلا أنه وإن محمداً رسول الله فإن اطاعوا لك بذلك فآخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات كل يوم وليلة فإن امتاعوا لك بذلك فآخبرهم أن الله فرض عليهم صدقة تؤخذ من أعيانهم فترد على فقرائهم ، فإن أدلأوا بذلك فيأياك وكرائم أموالهم » (البخارى) .

إن هذا هو السبب فى الحكمة الالهية التى قضت بأن نقدم التعاليم الأساسية للأنبياء فى مرحلة الدعوة الأولى ، وأن يستمر الأنبياء فى تبليغها لفترة طويلة إلى الناس . وبعدها وطبقا لظهور حالات عملية نزلت الإرشادات التفصيلية بما يتوافق مع هذه الحالات والظروف . ولم يحدث أبداً أن جاء نبي إلى أمة ما فقام بوضع أسس نظام اجتماعى وحضارى كامل فى المرحلة الأولى ، وقدمه للناس وطلابهم بأن يقيموا دولة اسلامية وأن ينفذوا ويطبقوا فيها جميع القوانين التى صدرت فيما يتعلق بجميع فروع الحياة .

ان الأحكام المذكورة فى الحديث السابق كانت قد نزلت كلها فى ذلك الوقت إلا أن الرسول ﷺ أخبر لداعية ألا يقدمها للناس دفعة واحدة بل عليه أن يقدمها للمدعوين تدريجيا طبقاً لظروفهم ، ويفهم من هذا أن الأحكام كما نزلت أولاً بطريقة تدريجية فإن التدرج فيها مطلوب بعد نزولها أيضاً : وترتيب ضرورتها هو دائماً قائم على ترتيب نزولها ، وليس الأمر كما يفهم بعضهم — أنها نزلت تدريجيا فى البداية (أولاً) ثم أنها بعد نزولها قد نسخ العمل بها تدريجيا — عند اقتضاء ذلك — وأصبحت مطلوبة فى كل حال بصورة كلية لا بصورة تدريجية . حتى ولو كانت الظروف النفسية والاجتماعية توجب التدرج والعمل المتأنى !!

الأركان الأربعة

بعد الإيمان . توجد اربعة أشياء في النظام الإسلامى تمثل « اركانه » : الصوم . الصلاة . الزكاة . والحج . وهذه الأشياء الأربعة من ناحية حقيقتها المعنوية هى الاجزاء الأربعة التى تجتمع معا فتكون بوجودها الكلى المجموعة التى يطلق عليها الإسلام . فانصوب اسم للسمو عن العالم المادى حتى يتمكن الإنسان من ربط نفسه مع الله . وروح الصلاة هى ذكر الله ، وحقيقة الزكاة الإيثار . وهذا الجزء من الإسلام كأنه الخلاصة التى يعبر عنها باسم الأخلاق والمعاملات أو حقوق العباد . وأصل انحج هو للتضحية فى سبيل الدعوة الالهية (Mission) . وهو عهد على تجديد حياة الدعوة التى قائم بها أعظم دعاة الحق ابراهيم عليه السلام . وهذه لإركان الأربعة هى من الناحية الاعتبارية علامات للاجزاء الأربعة الأساسية . ومن ناحية أخرى فهى تجهز الإنسان وتعدده للإسلام حتى يستطيع أن يتبع الإسلام فى حياته بطريقة كاملة شاملة .

ومع أن كل عبادة من عبادات الإسلام تحمل روحا خاصة إلا أن تركيب العبادات قد وضع بشكل يجعلها وسيلة للحصول على المقاصد الفرعية الأخرى مع استكمال الهدف الأسمى — وفى هذا الأمر فإن مثل الإسلام كمثل جسم الإنسان فلكل عضو وظيفة انفرادية منفصلة إلا أنه — أى العضو — مع هذا يرتبط مع الجسم بطريقة لا يمكن معها فصله عن بقية الأعضاء .

١ — وهناك جانب آخر يتمثل فى أنه مع الفرق فى المصالحيات فإن لكل منها نصيباً محدداً فى الفائدة والعمل . فمثلا صلاحية الصوم

والصلاة إن لم تصل بكل منهما إلى مقام « الاقتراب » (١) (المق)
فيجب الوصول على الأقل إلى مقام التقوى ، هذا بينما الصلاة جعلت
لتنهى عن الفحشاء والمنكر (العنكبوت — ٤٥) ، وللصوم خبطاً لما جاء
في الحديث يعمل على تربية الفرد ومنعه من قول الزور والفسق هذا
لأن الصوم يبدأ في تكوين جبهة قوية في مواجهة الحملات الشيطانية .

٢ — وقد وضع نظام كل عبادة لتؤدي هدفها للانفرادى الخاص.
مع اتصالها وارتباطها ببقية العبادات ارتباطاً شديداً قوياً ، وعلى
سبيل المثال فهدف الحج الأساسى اعداد الإنسان لحياة الدعوة ومع
هذا فقد وضع بشكل يمكن الإنسان من أن ينال نصيباً من المحبة
الالهية ، وتذكر الآخرة اثناء زيارته للاماكن المقدسة . وأداء مناسك
الحج ، فبعد أداء فريضة الحج يعود الإنسان طاهراً مطهراً ، ويكون
مهيئاً بطريقة أفضل لبدء حياة دينية على مستوى أطيب .

٣ — وقد وضعت كل عبادة — أساساً — لتربط العبد بربه بطريقة
ما ، ومع هذا وضعت وشكلت بحيث تكمل للمستلزمات الأخرى للحياة:
أو على الأقل تكون محركاً طيباً ودافعاً قوياً ، وعلى سبيل المثال فعن
طريق صلاة الجماعة أو الاجتماع العالمى للحج يقوى اتحاد المسلمين
ويزدهر ، كما أن فى الصوم فوائد لصحة الجسم ، وعن طريق الزكاة
ينصلح النظام الاقتصادى وهكذا .

الصوم :

والصوم أو الصيام هو من ناحية حقيقته يتلخص فيما عبر عنه
القرآن الكريم بعبارة « تبتل إلى الله » (٢) (المزل — ٨) أى الزهد

(١) بقصد المؤلف قوله تعالى : « واسجد واقترب » .

(٢) بقصد المؤلف قوله تعالى : « وانكسر اسم ربك وشغل اليه تبتلا » .

والتعفف . والصوم فرض أساسى . وهو كبقية أكثر الاعمال شرع فى العهد المدنى فى السنة الثانية للهجرة ، وكان الصوم موجودا قبلًا بشكل من الاتكال ، قات عائنة رضى الله عنها : إن قريشا كانت تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية . وكان رسول الله ﷺ يصوم هذا اليوم أيضا « صحيح مسلم » وحتى أنه قبل بعثته عليه السلام كان يصومه أثناء قيامه فى غار حراء ، فالصوم عبادة مقررة قبلًا وقد دخلت الحياة الإسلامية أيضًا .

ومن المعروف أنه عندما شأت قدرة الله أن يحمل موسى عليه السلام كتاب الله ، أمره جلّت قدرته أن يذهب إلى الطور وأن يعتزل الناس ويبقى هناك ، ليقضى حياته فى الصوم والعبادة ، وهناك قضى موسى عليه السلام أربعين يومًا متواصلة على هذه الحال ، وبعد ذلك جاء الوقت الذى كلم الله فيه موسى ... قال القرآن .

« ولا جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه » (الأعراف — ١٤٣) .

« والمسيح عليه السلام قد صام أربعين يوما قبل بدء نبوته » .

(دائرة المعارف اليهودية)

ونزل عليه الإلهام بعد ذلك فى شكل المواعظ الجبابة التى وردت فى الإنجيل ، وهكذا وقبل بعثة نبي آخر الزمان ﷺ ، كان يذهب إلى غار حراء بالقرب من مكة ، حيث يقوم هناك يعتزل الناس ، ويقضى وقته فى العبادة والفكر والتفكير ، وهكذا وبعد حياة طويلة من « التحنّث » جاء الوقت الذى نزل عليه فيه جبريل وبلغه كلام الله .

ويستخدم لفظ « الصوم » فى الشريعة من صام يصوم ومعناه الامتناع عن الحركة والمشى والكلام والطعام والشراب ، والخييل الصائم يطلق على الخيل التى أوقفت بعد حجب مصدر الماء عنها ، ولهذا

يطلق على شهر رمضان « شهر الصبر » . وغد أخبر حريث بن مالك رسول الله ﷺ بخبر حومه فقال : « عزفت عن الدنيا واضلّمت نهري » والصوم من ناحيه ملامحه الظاهره هو اسم للامتناع عن الطعام والشراب من الصباح حتى المساء . إلا انه من ناحيه حقيقته انجوهريه يعنى انقطاع الإنسان بنفسه عن علائق الدنيا . وأن يقتصد في كل ما يفيد في حياته من الناحية المادية . وأن يقلل من كلامه ومن لقاءاته ومن نومه ومن كل المستلزمات البشريه . أي يقلل معاملاته في كل شيء حتى إنه في الأيام الأخيرة من شهر رمضان يعتكف ويقطع علاقته بكل هذه الأشياء والاعتكاف يعنى انقطاع الإنسان عن الاشتغال بالخلق حتى تتيسر له فرح الاشتغال بالحق . وهذا امر مطلوب من المسلم طوال حياته . وقد تم التعبير عنه في الحديث بكلمة « الزهد » (أي الزهد في الحياة) ، وفرض هذا الأمر في شكل الصوم في شهر رمضان . والأيام الأخيرة من هذا الشهر تمثل شكلاً كلياً للانقطاع إلى الله سبحانه وتعالى وهو امر مطلوب لدرجة كبيرة . مهتد له أيام الشهر الأولى بطريقة جزئية .

فما هي الفائدة المرجوة من هذا الصوم ؟! والاجابة تتلخص في أن الجانب المادى للإنسان جانب ضعيف وعليه فيجب زيادة الجانب الروحى . حتى يتمكن من الاتصال بالعالم القدسى . فهدف الصوم ايصال الغذاء المعنوى للروح في مواجهة الغذاء المادى لتجسد . فالإنسان ، في آن واحد . مجموعة للحالتين معاً ، المادية والروحية وهى ما يعبر عنها علماء النفس في الوقت الحاضر بكلمة الذهن (العقل) Mind . فالجزء المادى في الوجود الانسانى ضرورة حتمية فبدونه لا يمكن للإنسان أن يؤدى واجباته في الحياة الدنيا ، إلا أن الروح لازمة مع الجسد . وهو ما يطلق عليه بالمصطلح النفسى الجديد الذهن

(العقل) - وأن يبقى هذا الجانب على مكانته المجردة بأكثر ما يمكن ، وأن يطور بقدر الامكان وجوده للمادى حتى يتمكن من الوصول إلى شفافية الحقائق غير المادية •

فحين يخرج الإنسان نفسه من الحياة المادية ويربط نفسه بالعالم الروحاني يشعر بطريقة محيرة أن باباً جديداً من أبواب الحقيقة قد انفتح أمامه فيبدأ في رؤية جميع الحقائق التي لا يمكنه أن يراها نتيجة لاختلافها داخل الغلاف المادى ، ويصل إلى مرحلة سامية هي نفسها المعراج الأخير للإنسان :

« ما زهد عبد في الدنيا إلا أثبت الله الحكمة في قلبه ، ولتطلق بها لسانه وبصره عيب الدنيا وداءها ودواءها وأدخله سالماً إلى دار السلام » (المشكاة) •

وهناك دليل لمنهج السلوك ، حين يعبر الإنسان من هذا الغلاف المادى عبوراً يتجاوز فيه مرحلة بعد مرحلة ، فيتجلى له عالم الحقائق واضحاً شفافاً تماماً :

« تعبد الله كأنك تراه » (البخارى) •

والنبوة هي آخر درجات هذا الرقى ، والإنسان العادى يصل إلى مقام عبودية الله كأنه يراه بعد أن تسمو روحه ، والفرق بالضرورة بين الاثنين هو أن الرسول — لأنه مختار ومصطفى من الله ، فإن جميع حجب العالم القدسى تنكشف أمامه ، وتصبح تعييناته انقدسية ظاهرة تماماً بشكلها الأساسى ، حتى تصبح جزءاً من شعور النبى نفسه ، ويصبح النبى في موقع يقول فيه : « أنا أعرف أننى أعرف » بينما الإنسان العادى لا يمكن أن يصل إلى هذا المقام أبداً نتيجة لعدم اصطفاؤه من الله سبحانه صاحب الحق في هذا الاصطفاء ، ولا يكون

الاحسان بينه وبين العالم اقدس اتصالا قضييا او شعوريا كما هو الحال بالنسبة للنبي .

وهذه هي حكمه الصوم النى وردت عنها في القرآن هذه الآية
 . خريمه ممن أحكام الصوم .

« وإذا سألك عبادى عنى فائى قريب اجيب دعوة الداع اذا
 دعان » . (البقرة - ١٨٦)

والنبي - نتيجة لمقام الاصطفاء - يرتبط مباشرة بانه عن طريق
 الملك (جبريل) . والقرآن هو لبقية الناس أنزله الله بواسطه جبريل
 فيحمل التوجيهات الأخرى من السماء . . . والانبياء حين يسمعون
 يظهرون روحهم أو مايعرف بالمصطلح الحديب ذهنهم من تلونات الماديات
 فينزل عليهم وحى الله (بواسطه جبريل) فيبلغهم مباشرة كلام الله
 والناس الآخرون يجدون الله عن طريق القرآن . وحياة الصوم بالنسبة
 لهم حياة ضرورية حتى يدركوا القرآن ومع أن للقرآن موجود لدينا
 الآن (ما بين اندفتين) في شكل وحى متلو إلا أنه « ينزل » على قلب
 معين في الوقت الذى يعيش فيه صاحب هذا القلب حياة الصوم والتبتل
 فيصبح مؤهلا من الناحية الروحية لأن يكون مهبطا للقرآن .

ان فرض الصوم في شهر نزول القرآن (البقرة - ١٨٥) (١) اشارة
 إلى هذا الأمر : وهو أن الصوم جعل ليؤهل الإنسان ليكون حاملا
 للقرآن .

وكما كان النبي ﷺ يصوم اثناء خلوته بغار حراء ليصبح حاملا
 للقرآن ؛ فبالمثل يجب على المسلمين المؤمنين أن يصبحوا أهلا للقرآن
 وإلا صاروا كالحمار يحمل اسفارا (٢) (الجمعة - ٥) لأن القرآن

(١) تقدم المؤلف قوله تعالى : شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس .

(٢) تقدم المؤلف قوله تعالى : مثل الذين حملوا البوراة ثم لم يحملوها كمثل
 الحمار يحمل الأسفارا .

لن يهبط على قلوبهم — لأن القرآن مدى قانون الكائنات . وكتاب الفطرة . فإذا ما غاص فيه أحد إلى أعماقه وراح يقرأ القرآن بوعيه وبقلبه بدأ صوت القرآن يصل إليه منساباً في داخل كل ذرة من ذرات كيانه حتى يأتى عليه وقت يصبح القرآن وفطرته الانسانية معاً تسيئاً واحداً :

« بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم » .

(العنكبوت — ٤٩)

وقد نزل حكم الصوم في شهر نزول القرآن . وقال تعالى وهو يصدر أمره بالصوم :

« يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » . (البقرة)

إن أولى حاجات الانسان الضرورية هي الطعام والشراب ومن هنا فإن منع الطعام وللشراب يكون من الناحية الشككية سبباً في وجود « عسر » أما من الناحية الجوهريّة فهذا الحكم يكون سبباً في وجود « عسر » للانسان الذي سيطرت عليه المادة أو الجانب المادى فانه تبارك وتعالى يقول : « يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر » وبطريقة غير مباشرة يتضح — بالنظر الى الحاجة المادية للانسان — أن الصوم هو على كل حال يكون باعثاً للعسر فلماذا اذن يقال له « يسر » ؟!

« فاليسر » في اللغة العربية معناه السهولة . والهدف منه أن يطلب من الانسان عمل ما يسهل عليه تنفيذه وعلى سبيل المثال فالاستعداد للحرب يقال له : تيسر للقتال . والآية القرآنية السابقة تعنى أن للصوم إنما هو صعب عليكم في الظاهر ، إلا أن الله لا يستفيد

إذا ما أصابتكم مشقة ، فالأصل هو أن تتحقق لحكم الحاجيات المادية طبقاً لحكمه خضتكم . إلا أن الوصول بكلام الله إلى مستوى روحى حقيقى يستلزم أن تتركوا هذه المادية إلى حد ممتن ولا يأم مقرر . وأن تعملوا على الترقى والسمو بوجودكم الروحانى لتصبحوا جديرين بالانطلاق من جميع الحجب المادية ، لتصبحوا بالتالى جديرين بتلقى كلام الله .

هذه هى الصلة الموجودة بين القرآن والصوم وللتى — طبقاً لها — فرضت على المسلمين حياة الصوم فى شهر نزول القرآن .

وفى شهر الصوم لا تقضى « حرارة الإفطار » على أهداف الصوم بل أن هذا الأمر — أى معاناة الإنسان بالجوع والعطش لا علاقة له مطلقاً بأهداف الصوم الحقيقية ، إذ أن معاناة الإنسان بالجوع والعطش وقيامه « بختم » القرآن كل يوم وغيرها من أعمال العبادات، إنما يصل بهذه العبادة الإسلامية الخالصة إلى مقام الرهبانية النصرانية، وهكذا فإن ما يقوم به المسلم فى شهر الصوم والذى قيل له خطأ « الذكر بالجهر للسانى » إنما هو أمر يتناقض مع انتخية الروحانية الهدف الأسمى للصوم . فانههدف الأسمى للصوم هو أن يفرغ الإنسان نفسه من الضعام بالاضافة إلى جميع الأمور الضرورية الأخرى : الكلام ، اللقاءات ، الذهاب والمشى ، الجدال والصياح . فعليه أن يقطع صلته بمثل هذه الأشياء ، وبجميع أنواع المشاغل الدنيوية فهو يقضى حياة هادئة لفترة من الوقت ينفرغ فيها للعبادة فقط ، ولذكر الله ولقراءة القرآن بتدبر وتفكر وترك الطعام هو فى الحقيقة علامة ، فترك المحرمات أمر واجب على الإنسان وهو كالصوم . إلا أنه يعيش فيه طول حياته حتى يوم القيامة ، وهكذا وفى أيام خاصة يقطع الإنسان

علاقته حتى بالمباحات . فيصوم ويقض كل صله له بكل شيء ، إلى حد
الامكان ويحاول أن يكون قريبا من الله .

والمصوم وان كان امرا مطلوبا لمره واحده في انسنه بتسلطه الخاص
المحدد . إلا ان الروح الاصلية التي تتولد من خلال الصوم . هي امر
مطلوب دائما من المؤمن . وهو الانقطاع إلى الله ليس من الناحية
الجسديه فقط بل من الناحية الحسية . فارتفع درجات الايمان هي أن
يخون للانسان متجه إلى ربه بقبه وبروحه دائما مهما كان مشغولا
بأي عمل بشكل ظاهري . اذ يضع نفسه بصورة دائمه داخل نوع من
انواع الاعتكاف الروحي . وقد كان عدم فهم الناس بهذه الحقيقه
سببا في الانعزال عن العالم والبقاء داخل صوامع او للذهاب إلى
أماكن بعيدة داخل الغابات او غوف الجبال . وفهمهم هذا على انه هو
كمال الإيमान . بينما كمال الإيمان هو ان يقوم الانسان بأداء واجباته
وسط مشاغل الحياه ومشاغل الدنيب إلا أن دهنه يكون مشغلا
(ممنكف بذكر الله) .

فعن ابن مسعود رضى الله عنه قال : أنتم أكثر صياما وأكثر صلاة
وأكثر اجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيرا منكم .
قالوا لم يا أبا عبد الله ؟ قال : هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في
الآخرة . (حلية الأولياء — ج ١ ص ١٣٦)

الصلاة :

حقيقة الصلاة الجوهرية هي الذكر (١) (طه — ١٤) والذكر
والتذكر يقال ذكرته فتذكر ، فالله يريد من عباده أن يتذكروه ويتذكروا
عظمته ، وحكمته ، وخلقه وملكه مرة بعد مرة : ولكي يخلق الله هذه
الحالة عند عباده فرض عليهم الصلاة .

١ : محمد بن وهب بن عيسى : . والله الصلاة تذكروا (المراجع) .

ويقول القرآن الكريم أن جميع مخلوقات الكون تسبح للخالق
نفساً : « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » (١) . ولقد سلمت
الخلافة لآدم وصدر حكم للملائكة أن يسجدوا له فقالوا اننا نسبح
بحمدك ونقدس لك دائماً : « واذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الارض
خليفة قالوا اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح
بحمدك ، ونقدس لك قال إني اعلم ما لا تعلمون » (٢) .

يفهم من هذا أن استحقاق الخلافة يستوجب من وجهه نظر
الملائكة ان يتون انخليفة منشغلاً على الدوام بتسبيح الله ، وطبقاً
لرواية ابنخارى فإن حكم الصلاة ادى صدر في المعراج كان شاملاً
لخمسین صلاة ، ومن الواضح ان اداء خمسین صلاة في مدة أربع
وعشرين ساعة يستوجب قضاء اليوم كله تقريباً في الصلاة . ثم خففت
الصّوات لتصل إلى خمس صلوات فقط ، وكان المطلوب هو « صلاة
خمسین وقتاً » إلا أنها خففت لتكون لخمسة أوقات تنقط .

والصلاة هي اعتراف من جانب العبد بربوبية الرب . وهناك
جوانب عديدة لا تخص لهذه اربوبية ، وتوضح سماتها على الانسان
بأشكال لا تحصى ولا تعد . حتى أن الانسان اذا استمر دائماً في حالة
الذكر فلا يمكنه ان يؤدي لله حقه (ما عبدتك حق عبادتك) فما بالكم
لو انشغل بالذكر انشغالا جزئياً وليس كلياً ، فالحقيقة أن اشيء
المطلوب أساساً هو أن يظل الانسان محلياً أمام الله في جميع الأوقات ،
إلا أن الله تبارك وتعالى قد أصدر حكمه لعباده برحمته الخاصة مراعيّاً
المصالح المختلفة لهم فأمر عباده بالصلاة لخمس ، على أن ينشغلوا
بقية أوقاتهم بصلاة غير محددة ، فالصلاة عبادة فرضت في أوقات

(١) الأنبياء - ٢٠ .

(٢) البقرة - ٢٠ .

مقررة ومحددة « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا » (١) ،
ومع هذا قيل إن هدف الصلاة هو الذكر « وأقم الصلاة لذكري » (٢)
حتى قيل أن الذكر هو أعلى مراتب الصلاة « ولذكر الله أكبر » (٣) ،
فإذا ما قرأنا تلك الآيات على ضوء هذه الحقيقة التي صدر فيها أمر
بذكر الله في جميع الأحوال المختلفة للحياة اتضح لنا هذا الأمر وهو
أن الصلاة بعبئتها الخاصة فرض يتم كل خمسة أوقات إلا أنها من ناحية
معناها للحقيقي مطلوبة كل وقت حتى حين يكون الإنسان مشغولا بأعماله
الدنيوية الخاصة :

• « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله » (٤) •

والصلاة بمفهومها الواسع هذا يشير إلى ما جاء في القرآن من
بيان وتعريف كان أهل الجنة إذ هم مشغولون دائما بالصلاة :

• « إلا المصلين الذين هم على صلواتهم دائمون » (٥) •

فانحلاله دائمة أو الذكر الحقيقي هو ما يرد على لسان الإنسان :
وليس تكرار الألفاظ الموضوعة . فحين يدرك الإنسان أسمى وأعلى
الحقائق فإن وجوده الكلي يغرق في حالة (كيفية) ربانية خاصة :
وما يرد على لسانه من كلمات — في ذلك الوقت — يناجي بها ربه —
يقال لها « ذكر » وفي الحديث : يشعر في ذلك الوقت بأنه يرتفع في
الجنة : (من أحب أن يرتفع في رياض الجنة فليكثر من ذكر الله)
(أخرجه الطبراني عن معاذ بن جبل) •

١- النساء - ١٠٣ •

٢- مريم - ١٤ •

٣- المائدة - ١٥ •

٤- التوبة - ٣٧ •

٥- المائدة - ٢٣ •

ومد ضم القرآن الصلاة قسمين . الأولى صلاة الخشوع (١) (المؤمنون - ٢) والثانية صلاة السهر (٢) (الماعون - ٥٥) . فالنوع الأول من الصلاة بشر أصحابها بالجنة . بينما الصلاة الثانية لا غدده لها ولا تقيد المحلين أنفسهم ان أم تكن خارده بهم . جاء في الحديث ان الرسول ﷺ دخل المسجد النبوى فجاء رجل فطلى ثم قدم إلى الرسول فقال له الرسول : ارجع فصل فإنك لم تصل . *

وجاء في رواية :

« اقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد » (رواه مسلم عن ابى هريرة) . *

والفرق بين الصلوتين ليس فرقا من الناحية لمنسقيه أو البصريه في أداء مراسمها الخارجية بل من الناحية الكثيفة أو الجوهريه التي يؤدي بها الشخص الصلاة فصلاة السهو هي الصلاة التي يؤديها الشخص بلا شعور . فالانسان يؤدي أركان الصلاة بشكل ما . دون أن ينال أى قسط من كفيات الصلاة ، يقول أنس رضى الله عنه : إنه سمع النبى ﷺ يقول : هذه صلاة المنافق يجلس يشاهد الشمس . حين تصغر الشمس وتصل إلى مفرق قرنى الشيطان يغف ويصلى أربع ركعات كنقر الدجاجة تخلو من ذكر الله (٣) . *

وصلاة الخشوع هي صلاة مليئة بالهية ومليئة بالكفيات . يقول عقبه بن عامر إن النبى ﷺ قال : من توضأ بطريقة طيبة ثم وقف فأدى ركعتين فيهما انتجه قلبه ووجهه كلاهما إلى الصلاة وجبت له الجنة « (٤) . *

١ . يشهد المؤلف قوله تعالى : ٥ قد أصبح المؤمنون اشد في صلواتهم خشوعا .

٢ . يشهد المؤلف قوله تعالى : ٥ موبل للمحطين الذين هم اشد حلاهم ساعون . *

٣ . رواه الترمذى .

(٤) رواه مسلم .

وهكذا يروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن الرسول قال :
« من توضأ وضوءى ثم صلى ركعتين لا يحدث نيما بنىء غفر له
ما تقدم من ذنبه » (متفق عليه) .

وحين ينسأ الإنسان بعمل هو مغرم به ، وله جاذبية خاصة عنده
فإنه ينجذب إليه بطريقة ينسى فيها كل ما حوله . وكل من حوله ؛ وهذا
هو الأمر المطلوب فى الصلاة . فرغ اليد فى بداية الصلاة علامة على
أن المحلى الآن يترك كل ما حوله . ويدخل فى دنيا أخرى . وهو يغرق
ويثوب فى تسبيح ربه وفى مناجاته له وفى دعائه له حتى تنتهى مراحل
لقاء العبودية بالربوبية تماما . وبعد أدائه للصلاة يلتفت يمينا يلتفت
يسارا ليقول السلام عليكم ورحمة الله ؛ وهذا يعنى انه يخرج نفسه
من دنيا ليعود إلى احالة التى كان يعيش فيها قبلًا ؛ وهو يسلم
على الحاضرين .

لقد قسم الفقه الصلاة إلى أقسامها . ففسدها إلى فرض وواجب
ومندوب ومستحب وسنة ونفل ومؤكدة وغير مؤكدة . إلا أنه فى دنيا
الحقيقة لا يوجد للصلاة مثل هذا التقسيم . فإذا قام شخص بقياس
واحضاء أقسام الصلاة طبقا للتصنيف الفقهى الخالص فإنما هو
يؤدى بذلك صلاة « كمبيوتورية » لا « صلاة انسانية » فالكمبيوتر يمكن
أن ينقل تماما الصلاة المقننة ؛ إلا أن صلاة الإنسان هى اسم لعواطف
ومشاعر وأحوال لا يمكن أبدا أن تصنف داخل خانات احصائية أو
اطارات تقنية ؛ ولا يمكن أن يعبر عنها بالفاظ القانون .

إن مراعاة الأشكال والهيئات الظاهرة للصلاة جاء التعبير عنه فى
القرآن بالمحافظة على الصلاة (المعارج - ٣٤) ؛ فالشرط الأول للصلاة
أن يدخل الإنسان إلى دنيا الصلاة فى ظل هذه الأشياء ؛ وما يطلب
من الإنسان يمكن أن ينقسم إلى درجتين :

الأولى : السجود فى الصلاة . والسجود علامة على سجد
الإنسان أمام ربه فى الحياة العملية . ولهذا قال القرآن : « إن الصلاة
تنهى عن الفحشاء والمنكر » (١) .

وفى القرآن قيل لأحد الأنبياء حين دعا قومه لعبادة الله . فنبهوه :
هل تقتضى الصلاة أن يتركوا حياتهم العملية وأمورهم الاقتصادية
ويأتزموا بأحكام الله :

« يا شعيب أصلاتك تأمرك أن تترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل
فى أموالنا ما نشاء » ؟ (هود — ٨٧) .

والسجود والركوع فى الصلاة هو كفورك لله . يا سيدى لتأمرنى
بما تشاء ، فسوف أنفذ أوامرك . ولهذا جاء فى المخصوص ما يفيد أن
من يتبع الشهوات مع الصلاة فصلاته خالية من روح الصلاة ذاتها .
والدرجة الثانية وهى أعلى الدرجات هى أن يصبح ذكر الله جزءاً
من نفسه ونفسياته فيخلق ذكر الله فوقه ويحيط به حتى يصل بذلك
إلى مرحلة الشهود وتطراً عليه حالة الحضور :

« واسجد واقترب » .

وما جاء فى القرآن من ذكر « لمقام اليقين » قال عنه البعض إن
الصلاة هى المقصودة بالمقام الأعلى .

« واعبد ربك حتى يأتبك اليقين » (الحجر — ٩٩) .

وليس المقصود من « حتى » هنا هو حد الانتهاء من الصلاة بعد
الوصول إلى مقام اليقين ، ثم نبدأ بعد ذلك صلاة أخرى . . اذ كيف
يمكن أن تنتهى الصلاة ؟ هذا فى الأصل إيضاح لانتهاى كيفية الصلاة
وليس لانتهاى صورة الصلاة .

ترى ما هو الاقتراب أو مقام اليقين ؟ إن هذا لا يمكن التعبير عنه بالالفاظ . فحين يصل الانسان إلى هذا المقام يشعر وكأنه يرى حقيقة غير مرئية بيثين كامل . وإن شيئاً ما يترأى له من بعيد إلى أن يصبح قريباً جداً . وينسغل للعبد في حديث ناجح دون وجود مخاطب وتنتلج بداخله عواطف المحبة . أعظم محبة . وأقوى محبة لتحقيق أمر مهيب لا يصل إلى هيئته أمر آخر . أمر لا يمكن أبداً أن يسعر به بأية وسيلة أخرى : فهو يصل إليه بدون وسيلة ما أو واسطة .

والسجود الذى هو منتهى الاندماج فى الصلاة هو منتهى حالة القرب من الله . وهو بعيد كل البعد عن « وحدة الوجود » ذلك المصطلح الذى أطلق — فى شكله الأول — غالباً — للتعبير عن هذه الكيفية غقط . التى تطرأ على الانسان حين يغرق فى ذكر الله . إلا أنه بعد ذلك أوصلت محاولات التحديد المنطقى الامر إلى درجة الفاسفة العقيمة التى لا تفهم والمتمثلة فى عبارة « هو كل شيء » وبالتالى تم التسليم لى بعض انغلاسة المخرفين بهذه العقيدة السيئة وأخذت ترتبط بمفهوم الارتباط الحسى المحض .

أقول إن الكيفية التى تطرأ على الانسان وقت السجود : (والاقتراب هو التعبير الأقرب على اللسان البشرى لإظهار هذه الحالة) تتحقق لحظة تسلمك هيئة السجود التى تعنى تمام العجز والخضوع إلى كمال لا حد له . حتى تضع جبهتك على الأرض وكأنك التصقت بها وحينئذ يطرأ عليك شعور واحساس كأن هناك قطرة من ماء وضعت نفسها فى بحر واسع ، وكأن الانسان قد امتزج بالله .

ما هو المراد بالحالة الحقيقية المطلوبة فى شكل ذكر دائم ؟ من الصعب بل لا يمكن أن يوضع لها فهرس أو توضع لها قائمة فبى عمل ينقسم إلى شقين : الشق الأول يتعلق بالعبد ، والشق الثانى خاص

بالرب ، فالعبد حين يذكر ربه في قيامه وقعوده ، في نومه وفي يقظته (آل عمران — ١٩١) ينال رغبة الله ، وينال من الله بحسنة خادمة كينييات الذكر : وكلمات الذكر ، وهو ينال على المستوى النفسى في كل لحظة رزقاً جديداً من ربه .

ومن الواضح ان هذا النوع من الكينييات والارزاق لا يمكن أن يفرده غيرس ضمن إلا انه يوجد له علامات ذكرت في القرآن الكريم أهمها :

١ — ان يكون الله موجوداً في تصور العبد دائماً حتى ان كل حدث يذكره دائماً بالله « الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا » . (آل عمران — ١٩١)

٢ — ان تسيطر عليه عظمة الله ،درجة أنه يرتعد من خشية الله « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » (الزمر — ٢٣)

٣ — اذا ما ذكر الله وجل قلبه « الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم » (الانفال — ٢)

٤ — ييكيه كلام الله « ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » (المائدة — ٨٣)

٥ — تصبح الصلاة بالنسبة له أمراً مساعداً وقت الحاجة « يا أيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة » . (البقرة — ٤٥)

ويحكى عن حذيفة أن النبي ﷺ كان يصلى اذا واجهته مشكلة (اذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة) وهذا هو شأن الصالحين في هذه الأمة

على الدوام . ويقال عن ابن تيمية انه كان اذا واجهه أمر لا يفهمه ذهب إلى مسجد خل فيحلى ويقول في السجود : « يا معتم ابراهيم علمنى » : وينقل أبو نعيم عن ابن مسعود أنه قال :

« مادمت فى صلاة فأنت تترع باب الملك ومن يترع باب الملك يفتح له » .

فالصلاة هى واحة المؤمن فى صحراء الحياء . حين نهيمن عليه تصبح أحب الاشياء عنده : قال عليه السلام : « جعلت قرعة عينى فى الصلاة » (رواه النسائى) . وكن اذا دعا مؤذنه بلال للأذان قال له (أرحنا بها يا بلال) (رواه أبو داود) .

وهذه الصلاة لا يمكن أن ينالها المرء بقيامه بالصلاة اليومية فيختم القرآن مره او مرتين . بل يمكن للانسان القيام بهذا أولا يسمى الأمر صلاة . فمع تلاوته للآيات فى الصلاة لابد من التفكير ولابد من التدبر . فأصل الأعمال الشرعية قائم على الكيفية وليس على الكمية . وغراء القرآن لا تعنى أن يتأ الانسان كلماته وآياته ، بل يجب أن يخرج ذكر الله من أعماق قلبه . ومن هنا لا يمكنه أن يختم القرآن مرة أو عدة مرات فى اليوم . وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقضى ليلة كاملة أحيانا يتلو سورة واحدة ، وينقل الامام أحمد عن عائشة رضى الله عنها أنها ذكرت أن بعض الناس يقرأون القرآن كله مرة أو مرتين فقالت : أولئك قرأوا ولم يقرأوا . لقد قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الليل كله فقرأ فقط سورة البقرة وآل عمران والنساء ، فكان اذا بلغ آية فيها من الوعيد والتهديد دعا الله وطلب اللجوء اليه وكان اذا بلغ آية فيها بشاره دعا الله أن يمنحه البشرى !!

الزكاة

أصل الزكاة أو الانفاق هو الإيثار (١) (النحر - ٩) فإنه تبارت وتعالى يريد ان يشعر كل شخص بأن عليه حقاً للآخرين . وأن ينشأ مجتمع على استعداد للعطاء بدلاً من الأخذ . وأن يتطلع الجميع فيه إلى تحقيق الفائدة للآخرين بدلاً من النيل منهم : وأن يولد ندى كل فرد شعور بأنه لا حق له في هذه الدنيا (٢) . فعليه هنا مسئوليات فقط : ولايجاد هذه الروح الاجتماعية فرضت الزكاة . وللزكاة أهمية كبيرة في النظام الدينى . فحين حضر بشير ابن خصاصة إني رسول الله ﷺ للبيعة . سأل الرسول ﷺ : يا رسول الله على أى نىء تبايعنى ان الصدقة والجهاد أشياء صعبة بالنسبة لى . فأغنىنى منها . فرفع رسول الله ﷺ يده وقال : يا بشير « إلا الصدقة والجهاد فبهم إذن تدخل الجنة » ؟! (رواه أحمد) .

والفتنة التى ظهرت بعد وفاة الرسول ﷺ ، كان ذلك سببها : فقد كانت السبل الاقتصادية لدى العرب قديما محدودة للغاية : ولهذا رغبت بعض القبائل أن تحذف الزكاة من بين فرائض الاسلام ، كما فكرت بعض القبائل المسلمة حديثا فى خلع طاعة الحكومة الاسلامية . وقالوا : لقد مات هذا الرجل الذى كانت العرب تنحصر به ، (يقصدون الرسول) (كنز العمال ج ٣ ص ١٤٢)

(١) يعنى المذهب قوله تعالى « ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة » .

المراجع : .

(٢) الا فى الاصل الذى يفسد الاسلام وهو الظلم بدمول الرعايا . فلهذه دلة

الحقوى : المراجع : .

ومع أن هذه القبائل كانت قد أنكرت الزكاة فقط واعتبرت نفسها مسلمة كالعادة . فالتزمت بالصلاة والصوم أيضا إلا أن الخليفة الأول قال : « والله لأقاتن من غرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال » .

« ان كل ما في الأرض والسماء هو ميراث الله » (١) (الحديد ٧)
 « والرزق كله رزق الله » (٢) (الملك - ١٥) والمال كله مال الله (٣)
 (النور - ٣٣) وما لنا له هو كله من عند الله (٤) (الاسراء - ٢٠) .
 فلو كان الله قد جعل المال والمتاع كله نصيبا له لكان هذا حقه كاملا ،
 لا يملك أن يعترض عليه معترض إلا أنه قرر فقط أن ينال جزءا بسيطا
 منه . وأن يهبنا البقية . « وآتوا حقه يوم حصاده » (٥) (الانعام ١٤١)

لقد فرضت الزكاة شرعا في السنة الخامسة للهجرة إلا أنها كانت
 محتوية منذ اليوم الأول بشئ غير محدد وهكذا وجد ذكر الزكاة في
 السور المكية . كما ورد في سورة (المؤمنون) : « والذين هم
 للزكاة فاعلون » وهكذا جاء في حق المشركين في سورة فصلت (٦)
 « الذين لا يؤتون الزكاة » ، وفي السنة الخامسة للبعثة النبوية حين
 هاجرت جماعة من مسلمي مكة إلى الحبشة قام جعفر بن أبي طالب
 بالتعريف بنبي الاسلام في بلاط نجاشي الحبشة : وكان من جملة
 ما قاله :

(١) بقصد قوله تعالى : ١ . وآتوا بما جعلكم مستخلفين فيه) .

٢ . بقصد هو الذي جعل لكم الأرض ذابوا فاشوا في منابكها وكانوا من رزقه .

٣ . بقصد (وآتوهم من مال الله الذي آتاكم) .

٤ . بقصد اكلا من هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا .

(المراجع) .

٥ . المراد سورة فصلت . الآية ٧ . وويل للمشركين . الذين لا يؤتون الزكاة وهم

بلاأحرار من كافرين (المراجع) .

« وأمرنا بعبدة الله : وإيصالهم إلى عبادة الله : كان هذا في البداية . عندما علمنا ، وبعد فترة من التدبير ، « قد دبرها واعتبرت واجبة وتقرر إمكانية تحصيلها من أجل الدولة ، عندما ذهبنا نحن الخرافات . والآن تصدد المفهوم أنواجب الزكاة سرعا وأصبح مفهوما واحدا . ولما كانت الصدقة لا تعنى « الضريبة » بل هى عبادة حرة . ومن هنا كان لها مفهوم واسع . ومن هذا الاعتبار ، فلا حد لها : فالإنسان ينفق على قدر طاقته مما يملك من مال من أجل مرضاة الله . تقول غاطمة بنت قيس إن رجلا من المسلمين سأل رسول الله ﷺ عن هذا الأمر فذكر الرسول : « إن فى المال حقاً سوى الزكاة » (رواد الترمذى) . كما أسرار القرآن الكريم إلى ضرورة الإنفاق مما يتبقى بعد استكفاء الحاجات الضرورية .

« يسألونك ماذا ينفقون قل الصدقة » (البقرة ٢١٦)

وللزكاة أو لثلاثين مؤسستين : الأولى : الصدقة والثانية : ما يقال لها : القرض الحسن .

« إن المصدقين والمصدقات وأقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعف لهم ولهم أجر كريم » (١) . (الحديد — ١٨)

والمراد بالصدقة « إطعام المسكين » « وإم نك نطعم المسكين » (المدرس — ٤٤) أى الإنفاق من أجل تلبية الحاجة الضرورية للمحتاجين ، وعلى العكس من هذا فالمراد من القرض الحسن الإنفاق الذى يكون فى سبيل الله . أى (تقوية الدين وإعلاء شأنه) فغاية ما يطلبه الله من عباده هو نفس دينه ورفع رايته والإنسان ينال ثواباً كبيراً ببذله روحه

١- الجزء الثاني : المصدقين والمصدقات : فى حق القسم الأول : لا الله سبحانه وتعالى . القسم الثاني : من الناس يتغير الاستوى ، إلى : القرض الحسن . وهذا القسم الثالث : لأنه من القرض يتغير .

وماله . ولأن الهدف الأساسى لهذا الإنفاق ليس مقدما لسد احتياجات الإنسان بل مقدم لدين الله ومنفقى فى سبيل اعلاء كلمة الله . لهذا اعتبره الله قرصاً يؤدى حقه لعباده .

ومقدار الإنفاق يتحدد فى شكل الزكاة . إلا انه لا يوجد أى مقدار محدد « للقرض الحسن » بل يكتب الله سبحانه أسماء أصحابها فى قائمة المجاهدين بالمال ، أو الدعاة والشهداء ، وسيضمهم الحسف الأول لأهل الايمان . لأنهم قد أسلموا أنفسهم وما يملكون إنى الله . يقول القرآن الكريم :

« ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن اهم الجنة » .
(التوبة - ١١١)

فى غزوة نبوت (٦٣٠ م) قدم أبو بكر الصديق رضى الله عنه جميع أمواله . وقدم عمر رضى الله عنه نصف ماله . وقدم عثمان رضى الله عنه ألف جمل وسبعين فرساً . وعشرة آلاف دينار . وبها تم إعداد ثلث نفقات الجيش .

هذا هو نوع الإنفاق الذى جاء ذكره فى القرآن الكريم بعبارة إنفاق « فى سبيل الله » (لتحديد - ١٠) وجاء فى القرآن الكريم : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » . (البقرة ١٩٥) ذلك لأن أهل الاسلام إن لم ينفقوا فى سبيل رفع راية الاسلام فهم يقضون بأنفسهم على حياتهم الاجتماعية . ولا يمكن أن تقوم لهم قائمة فى الدنيا كأمة ، وقد بشر القرآن المنفقين بمضاعفة ثواب الإنفاق إلى سبعمائة مرة . بل وأكثر من هذا . فطبقا لما جاء فى (الطبراني) فإن معاذ بن جبل أورد حديثاً يتعلق بالثواب العظيم لذكر

الله . والإنفاق في سبيل الجهاد في سبيل الله وبعده يروى الخبراني ما يلي :

« قال عبد الرحمن فقلت لمعاذ إنما النفقة بسبع مائة ضعف فقال معاذ قل فيمك إنما ذلك إذا إنفقوها وهم مقيمون بين أهليهم غير غزاة فإذا غزوا وأنفقوا خبأ الله لهم من خزانته رحمة ما ينقطع عنه عنهم العباد ومشتهم » .

والزكاة من الناحية الشكلية ضريبة . ومن الناحية الحقيقية عبادة . ولهذا فمن حق الدولة أن تتبع أسلوباً إجبارياً في جمعها تماماً كما تجمع الضرائب الخاصة بقانون المالية . إلا أن غايل الزكاة سوف ينال فائدة الزكاة الأساسية حين يؤديها وهو يسعر أن أدائه لها إنما هو عمل من أعمال العبادة ... ملتزماً بالشروط التالية :

١ — أن يشوع أجراً طيباً من الله عن طريق الصدقة . وحين يرى من الضروري له أن يخرج أطيب ماله في هذا السبيل .

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخديه إلا أن تنفضوا فيه » (البقرة — ٢٦٧)

وقد أرادت السيدة عائشة أن تتصدق بلحم قديم عديم المذاق فقال لها النبي ﷺ : « أتصدقين بما لا يمكن أن تأكلن » (رواه أحمد) .

٢ — أن ينفق بقلب خاشع خالص .. قال تعالى :

« والذين يؤنون ما آوتوا وقلوبهم وجلة » (المؤمنون — ٦٠)

وقال : « ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً ، إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ، أنا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً » (الانسان — ٨)

٣ - أن لا يمتنوا على من يعملونه الصدقة ولا يقولوا لهم ما يؤدى
مساعرهم .

« الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا
منه ولا أذى » (البقرة - ٢٦٢)

٤ - أن ينفق المسلم بخفيته لا يسعر فيها أنه وهو ينفق في سبيل
الله إنما يحساب بضرر اقتصادى أو يسعر بثقل أو عبء مما قدمه !!

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله ونشيتا من
أنفسهم » (البقرة - ٢٦٥)

٥ - أن تقدم الصدقات سراً . لأن ذلك انيب (البقرة - ٢٧١) .
وقد كان الصحابة يتفننون في إخفاء صدقاتهم . جاء غيما ينعلق بعبد
الرحمن بن ثابت أنه نال منحة فاشتري طعاماً لأهل بيته فدر الطعام
الضرورى لهم . ثم تصدق ببقية المبلغ . فلما سألت زوجته : ماذا
حدث ببقية المبلغ ؟ اجاب الصحابى : (لقد أهدرته) . وهذا للنوع
من الإخفاء والسرية كان يخلق داخل البيت حساسيات كان للصحابة
يعملون على تلاشيها بحريقة تتنزع من الحادثة التالية :

عن حسان بن عطية قال : لما عزل عمر بن الخطاب معاوية عن
الشام بعث سعيد بن عامر بن جذيم : فخرج معه بجارية من قريش
نخيرة الوجه . فمما بعث إلا يسيراً حتى أصابته حاجة شديدة : قال
فبلغ ذلك عمر رضى الله عنه فبعث اليه بألف دينار . قال فدخل بها
على امرأته فقال : ان عمر بعث اليها بما تريد : فقالت لو أنك اشتريت
لنا اداً وطعاماً وادخرت سائرهما : فقال لها أولاً أدلك على أفضل
من ذلك ؟ ندفعها إلى من يأتينا بها أحوج ما نكون اليها .
(أبو نعيم ، حلية الاولياء مجلد ١ ص ٢٤٤)

ويحلى الراوى بعد ذلك أنه يحدو بلامواز كتب في صمت .
وعرفت الزوجة فبدأت تهكي وعقدت الأمور داخل البيت وحاول
الرجل أن يفهم زوجته . وقال لها في النهاية : (إننى لا أستطيع أن
أؤمرك على رضا الله والجنة . فاختارى لنفسك ما تشائين فقد اخترت
لنفسى الجنة) .

وفي النهاية سكنت الزوجة ورضيت !!

لقد زاد سوق الصحابة للحصول على رضا الله بالانفاق في سبيله
لدرجة أن رسول الله قال ذات مرة : تصدقوا « غاننى أريد أن أبعث
بعثا » (١) . ولم يكن لدى أبى عقيل الانصارى اى شىء . فظل يسقى
حديقة أحد الناس طوال الليل ، واخذ أجره في المصباح صاعين من
بلح (٢) . فترك صاعاً لأهل بيته واخذ الآخر فقدمه لرسول الله ﷺ
وكان سعد بن عباد قد خطب أن يذهب للجهاد لمدة سنة ويقوم ابنه
قيس على شؤون البيت ، ثم يذهب ابنه للجهاد ويقوم هو على شؤون
البيت بالتبادل . أما كيف ربى أولاده وعلمهم فيمكن ان نفهم ذلك من
هذه anecdote . لقد وصل إبنى رسول الله ﷺ صيوف كثيرون ، وفي ذلك
الوقت كان سعد بن عباد يجاهد مع جند رسول الله فوصله الخبر
فقال : « إن يك قيس ابنى فسيقول يا نسطاط ! هات المفاتيح أخرج
لرسول الله ﷺ حاجته ، فيقول نسطاط ، هات من أبىك كتاباً ، فيدق
أنفه ، ويأخذ المفاتيح ويخرج لرسول الله ﷺ حاجته » (الإصابة) .
وهذا ما حدث فعلاً ، فقد قام قيس بتقديم مائتى وسق من
انباج لرسول الله ﷺ . ليقدما لصيوفه .

وقد بين أبو ذر الغفارى أهمية الصدقة بطريقة حكيمة جداً

١- أريد أن أرسل جيشاً المفرج .

٢- حوالي خمسة أطنان ٢١ كواً تقريباً .

فذل : في المال ثلاثة شركاء : «أشدر لا يسفدك ان يدبب بخيرها وشرها في « الهلاك » ولا يستاذنك في الموت ، وانوارت ينتظر ان تضع رأسك ثم يسوقها وانت ذميم ، فان استطعت ان لا تكون اعجز الثلاثة فافعل : فان الله عز وجل يقول : « لن تتناولوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . (حلية الاولياء مجلد ١ صفحة ١٦٣)

ويروى أنس رضي الله عنه أن عائشة رضي الله عنها كانت في بيتها في المدينة فسمعت صياحا . فسالت فغيل لها : إنها قافلة تجارة عبد الرحمن بن عوف قادمة من الشام : وكانت نخم سبعمائة جمل محملة بالأمثلة : فقالت عائشة : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « رايت عبد الرحمن بن عوف وهو يدخل الجنة » فوصل هذا الامر إلى عبد الرحمن بن عوف فقال : إذا كان الأمر هكذا فسادخل الجنة ، وبعدها قدم القافلة بما تحمل من تجارة ومتاع في سبيل الله ، ويقول عبد الرحمن بن ثابت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (سيجمع الله الناس للحساب يوم القيامة . فيأتى ثغراء المؤمن يتبخثرون كما تتبختر الحمامة ، فيقال لهم : انتظروا احساب فيجيئون : لا حساب لنا : فانت لم تعطنا شيئا . فيقول ربهم : « صدق عبادي » افتحوا لهم أبواب الجنة . ويدخل الناس الجنة بعدهم بسبعين سنة) .

وقد جاء ذكر حكم الزكاة في القرآن مقابلا للربا فتذكر الآية الكريمة أن الله يزيد الزكاة ويمحق النظام الاقتصادي القائم على الربا .

« يمحق الله الربا ويربى الصدقات » (البقرة ٢٧٦)

وجاء في آية أخرى :

« وماءاتيتكم من ربا ليربوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله

وماءاتيتكم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » .

(الروم - ٣٠)

وفي موضع آخر تذكر الآية التحريم أن التعامل بالربا لا يمكن أن يثبت على حد ولا يمكن أن تقوم له قائمة :

« الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يلخبطه الشيطان من المس » (البقرة - ٢٧٥)

وهذا ورد أيضا في الحديث أن الله حين نزل الزكاة . يبينها الله بالتمتع والجفاف (أوسط الطبراني) . فتنظام الاقتصاد الذي وضعه الله تعالى . يساب بانخل إذا ما منه الربا وهذا مصدر الأمر بالجهاد ضد الربا (البقرة - ٢٧٨) (١) .

والسبب في هذا الفرق بين الزكاة والربا . أنه بالزكاة تدور الثروة . وبالربا يكون ارتكاز الثروة أو تجمعها داخل مركز واحد . فالنظام الذي يقوم على أساس الزكاة يقوم على أساسين اقتصاديين في وقت واحد : أولهما أنه بدلا من جمع الذهب بالذهب يصبح من الأفضل جمع الذهب بالعمل . والثاني : تحويله دون كنز الثروة وتوزيعها لأن الزكاة توضع على رأس المال (وليس متن حربية للدخل الحثيئة المفررة على المنفعة فقط) . وهكذا فلن يتكدس رأس المال دائما في مكان واحد . وعلى انعكس من هذا فبالنسبة للربا يصبح هذان الأساسان الاقتصاديان متناقضين . فنتيجة للربا يبدأ الحصول على الذهب بالذهب ومعناه أن من تأتي الثروة في يده مرة فسوف يعمل بالضرورة على زيادتها دون أن يحقق أي نوع من أنواع الإنصاف للاقتصاد العام . وهذا الشيء سيخلق نوعا من السيطرة الاقتصادية لا يتوقف مداها عند أي حد . هذا بالإضافة إلى أنه في نظام الربا لا يوجد أي عامل يمنع من تجميع الثروة بصورة مستمرة في مكان واحد .

(١) بقصد قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انكروا الله ورسوله) .

إلى آخر الآيات .

الحج

حقيقة الحج وجوهه يتلخصان في (التضيحية) فمن أجل الحج يسافر الإنسان ، وهذه تضحية بالوقت ، ثم يتحمل نفقات السفر وهذه تضحية بالمال ، وينصر الحاج ضحيته وهذه تضحية بالروح . ويسمى ويطوف ، وهذا معناه أنه قد قصر جميع أعماله من كل جوانبها على الله فقط .

إنها مهمة ربانية يقدم فيها المؤمن جميع هذه للتضحيات ويرفع اسم الله عاليا في الدنيا « فإذا قضيتُم مناسكُم فاذكروا الله كذكركم آبائُكم أو أشد ذكرا » (البقرة - ٢٠٠)

وقال النبي ﷺ : (انما جعل رمي الجمار والسعى بين الصفا والمروة لإقامة ذكر الله) (المشكاة . كتاب المناسك)

لقد عرض القرآن علينا رسالة الحج من خلال صورة حياة الداعية الأعظم سيدنا إبراهيم عليه السلام (٢١٦٠ - ١٩٨٥ ق ٠ م) ذلك الذي وقف حياته كلها على المهمة الربانية التي كان منتهىها أن يضحى بابنه على هذا الطريق ، وكل عمل من أعمال الحج يذكرنا بحياة هذا الداعية للأعظم .

« قفوا على مشاعرکم فإنکم على إرث من إرث أبیکم ابراهيم » (المشكاة - كتاب المناسك)

وحياة سيدنا إبراهيم التي كانت كلها حياة دعوة ، انما تكرر لنا بطريقة مميزة بعض المراحل التاريخية ، فالحاج يأخذ على نفسه عهداً مع الله أنه سيقصر حياته كلها (كما فعل سيدنا إبراهيم) على
م ٥ - واقمنا ومستقبلنا

تبليغ دعوة الحق ونشر الدين ، وأن ينبت عليه في كل حال من الأحوال حتى لو لم يمر بجميع هذه المراحل التي مر بها سيدنا إبراهيم عليه السلام .

لقد سأل رجل رسول الله ﷺ فقال : ما الحاج ؟ قال : انتفعت الثفل . فقام آخر فقال يا رسول الله أى للحج أفضل ؟ قال : العج والشج . (المشكاة - كتاب المناسك)

وبالفاظ أخرى فالحج الذى يتم دون ترتيب وبأعمال مجنونه إنما هو حج تنتم مراسمه بلا روح . ولا يتعلق أبدا بأصل حياة الإنسان . هذا فى الأصل تصوير لاندفاع الوجه . ومظهر لعزم يصل إلى حد التضحية بالروح . وكان العبد وهو يؤدي مناسك الحج إنما يعرض نفسه على ربه . والسفر إلى الحج يعنى التضحية بالوقت . والتضحية بالمال .

والإحرام دليل على أن العبد قد جرد يده من كل شئ عدا الاحتياجات الضرورية .

والطواف والسعى تصوير لتقديم الإنسان نفسه وجسده وقلبه وعقله من أجل رب الكعبة .

ورمى الجمار مظهر للسلوك الذى يتبع مع أعداء الله . وهو أنه لا يمكن أن يكون هناك محالحة معهم أو تعاون . بل هو الاختلاف والتصادم .

وتقديم الذبيحة أو الأضحية عهد مع الله على الفداء وتقديم الروح من أجل الله .

والوقوف فى ميدان عرفات هو تمثيل لجمع البشر جميعا أمام الله فى ميدان للحشر .

وهكذا فمن طريق الاعمال المختلفة للحج يلحق الإنسان دروساً في بذل الروح وانتصحيه . واستحضار الله والاخرة ، ويعرس الاسلام بداخل العبد عشفاً لمولاه حتى ينطلق ميعن في سبيله بطريقة مجنونه من اجل مرضاته .

إن اركان العبادات الاربعه للاسلام هي وسيلة لايجاد حيفيه مستترحه وهي ان يوجه الإنسان قلبه وجسده إلى خالقه . وأن يفهم ان هدف حياته ليس إلا مرضاه الله . والصوم يضع هذه الكيفيه في شكل حاجات طبيعيه . والصلاه تحرك هذه الكيفيه عن طريق جوانح الإنسان وجوارحه . وفي الزكاة يتم الحصول على هذا الهدف من انفاقه الماليه . وفي الحج يتم الحصول على هذه الكيفيه المطبوعه من خلال تمثيل عملي لصفحات التاريخ الاسلامي المشرقة (١) .

وعبادة الحج لها علاقه عميقه بابراهيم الخليل . فقد ولد خليل الله في مدينه اور بانهراق القديم . وكان أبوه سادناً لبيت الاصنام . لحضم تخليص الاصنام وحجج ابيه وسدح بالحق امام الملك . فعرف يقوم هذا « انضلال » وكانت النتيجة ان صاروا جميعاً أعداء له ، ناضطروا إلى ان يترك البيت . ويخرج مع زوجته « سارة » وابن أخيه لوجه خارج وطنه مهاجراً ، إلا أنه لم يترك الدعوة إلى الحق . لكن عمليه الدعوة انتهت اقتضرت في البدايه على مدينه اور . قد أصبحت الآن عمليه منظمه على مستوى دولي . فأرسل الخليل ابن أخيه لوطاً داعياً إلى منطقه « سدوم » وهي المنطقه التي يقال لها الآن منطقه شرق الأردن . ولنفس الهدف أرسل ابنه الأصغر اسحاقاً إلى منطقه كتعان والتي تعرف اليوم باسم فلسطين ، وعين ابنه الأكبر اسماعيل

(١) المعنى اللغوي للحج هو التصد ، حججت فلاناً أى دعيت لفلان ومن اجل هذه العباده يخرج المؤمن من بلاده من مثل احواء العالم . يسكنون الى مكان خاص ، ولهذا سمي بالحج ، وهذا المكان كان موجوداً زمان الجاهليه قبل الاسلام .

على منطقة مكة بالحجاز . وأسس في مكة مركزاً للإسلام « بيت الله » .
ودعا الله قائلاً : إنه جاء بأولاده إلى واد عير دى زرع ، وذلك لفنسر
الدين الحنيف . فأخرج الله من نسلهم نبياً يدعو الناس إلى الحق
(البقرة — ١٢٩) وكانت نتيجة هذا الدعاء الإبراهيمي أن ولد نبي
آخر الزمان (محمد ﷺ) من نسله من فرع اسماعيل .

عاش إبراهيم عليه السلام ١٧٥ سنة وانتشرت دعوته من مدينة
أور إلى مكة لمدة قرن تقريباً ، أما المراحل التي مر بها في حياته من
أجل الدعوة فقد تم اختصارها لتصبح رمزاً . وذلك في صورة الحج
ومراسمه فالسفر وللوصول إلى مركز الإسلام . والطواف ببيت الله
الحرام والسعي بين الصفا والمروة والسير إلى منى . والقيام في
ميدان عرفات ، وقضاء ليلة في المزدلفة . ورمي الجمرات . والتضحية
في منى ما هذا كله ؛ هذا كله يمثل المراحل التاريخي لحياة الدعوة
التي مر بها إبراهيم عليه السلام . تلت التي تقوم بإعادة تربيتنا
فإنه تعالى فرض على المسلمين في كل فترة أن يعيدوا هذه الأحداث
فيجددوا بذلك عهد الدعوة .

« وفديناه بذبح عظيم وتركنا عليه في الآخرين » .

(الصافات — ٨)

ويذكر القرآن الكريم أن إبراهيم عليه السلام حين مر بكل
أنواع الاختبارات والمحن وظل قائماً على مهمة (دعوة الحق) في
جميع الأحوال فثبتته الله تعالى في مكانة الإمامة التي أعدها له . وكانت
في علم الله .

« وإذا ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فاتمهن قال إني جاعلك للناس

(البقرة — ١٢٤)

• إماماً

وليس المقصود بالإمامة الحصول على سلطة سياسية بل الحصول على منصب يؤهله لإيصال رسالة الهداية للالهية إلى الناس ويذكر القرآن الكريم إبراهيم ولوطاً وإسحاق ويعقوب عليهم السلام بالإمامة فيقول :

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا اليهم فعل الخيرات »
(الانبياء - ٧٣)

وهذه الإمامة واسمها الثانى « النبوة » ظلت مستمرة فى نسل سيدنا إبراهيم من بعده ، ففى البداية جاء إسحاق ابنه وأرشد الناس إلى مرضاة الله وكان آخر الأنبياء من نسله عيسى عليه السلام . وبعده بعث محمد ﷺ (٥٧٠ - ٦٣٢ م) من أسرة اسماعيل بن سيدنا إبراهيم . وبمحمد ﷺ انتهت سلسلة للرسول ، واكمل الدين ، وحفظ العالمين . وسلم إلى الأمة المحمدية : وأصبحت مسئولية الأمة المحمدية أن ترشد عباد الله جميعهم إلى طريق مرضاة الله حتى يوم القيامة « وجاهدوا فى الله حق جهاده هو آجتباكم » !!

وكانت خلاصة تعاليم الصحيفة التى قدمت لسيدنا إبراهيم كما يلى :

« أم لم ينبأ بما فى صحف موسى ، وإبراهيم الذى وفى ،
ألا تزر وأزرة وزر أخرى . وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن
سعيه سوف يرى ، ثم يجزاه الجزاء الأوفى ، وأن إلى ربك المنتهى » .
(النجم - ٣٦ - ٤٢)

فهذه هى أهم قضايا الإنسان عند الله ، ولهذا أخذ الله عهداً على جميع الأنبياء أن يرشدوا الإنسان بتلك الحقيقة بأى ثمن .

« وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بن مريم ، وأخذنا ميثاقا غليظا ، ليسال الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين عذابا ليما » (الاحزاب ٧ - ٨)

وكان من نتيجة الدعاة الابراهيمى (البقرة - ١٢٩) (١) ان بعث الله نبي آخر الزمان : وحمله للقرآن العربى . وأصبحت من مهامه تعريف أهل مكة وبقية العرب بهذه الحقيقة :

« وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق فى الجنة وفريق فى السعير » . (الشورى ٧ - ٨)

وقد أرسل للقران إلى العرب بلغتهم . على ان « يلحق » معهم بقية الأمم التى تؤمن ونشترك معهم بالتبعية :

« هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفى ضلال مبين ، وآخرين منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . (الجمعة ٢ - ٤)

وكان من جملة الدعاة الذى رفعه ابراهيم وقت تمييز انكبة : « فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم » (ابراهيم - ٣٧) أى اجعل هذا المكان مركزاً لعبادة الله . وهكذا أرادت هسيئة الله فى زمن سيدنا ابراهيم ان تصبح مكة مركزاً عالمياً للدعوة الاسلامية وللاجتماع الدولى للأمة الاسلامية . « وأذن فى الناس بالحج » (الحج - ٢٧) يقول ابن كثير فى تفسير هذه الآية : إنه حين تم تمييز بيت الله فى

(١) هو قوله تعالى : « ربنا وابعث نبيا منهم يتلوا عليهم آياتك ويعلمون الكتاب والحكمة » .

مكة ، أمر الله تعالى ابراهيم عليه السلام أن يعلن في الناس أن الله أقام لهم مركزاً يجب أن يهرولوا اليه ويحجوه .

وكان الهدف من الاجتماع في هذا المركز هو نفسه هدف الرسول وهو نفسه هدف وجود الأمة المحمدية أى تبليغ رسالة الله إلى العالمين .

« ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدى للعالمين »
(آل عمران — ٩٦)

وحتى يتحقق هذا الهدف جعلت الكعبة مكاناً لاجتماع المسلمين جميعاً ، « واذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً » (البقرة — ١٢٥)
وقد عبر الله تبارك وتعالى عن المكانة الاساسية الثانية للكعبة بقوله : « قياما للناس » (المائدة — ٩٧)

وكان مكة هى مكان الاجتماع الدولى لأهل الاسلام . فلهذا تقرر أن يجتمع فيها جميع مسلمى الدنيا كل سنة ، وأن يعبدوا ربهم . وأن يخططوا هناك لتبليغ رساله دعوة الحق العالمية . هذه هى المكانة الاساسية لبيت الله ، والأمور الأخرى ما هى إلا تابع لهذا الهدف . كما أمر بأن يعود المسلمون بعد الحج وقد غرست فيهم عاطفة الشعور بعظمة الأب والجد وبالتالي يعودون من الحج حاملين لأمانة تحلية نواحي عظمة الله « فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله فذكركم آباءكم » .

وأولئك الناس الذين يعودون الحج مجرد « زيارة » ويرون أن زيادة عدد مرات الحج هو من الكمال يجب أن نقرأ عليهم قول عبد الله بن عباس الذى نقله أبو نعيم :

« لأن أعول أهل بيت من المسلمين شهراً أو جمعة أو ما شاء الله أحب إلى من حجة بعد حجة » (حلية الأولياء المجلد الأول)

وحتى يظل هذا المركز آمناً محفوظاً وضع ترتيب خاص لضمان تأكيد سلامة الحج . فصدر حكم شرعى بأن يكون هذا المركز قاصراً على أولئك الذين يؤمنون بالاسلام . وأنه لا يجوز أن يدخله غيرهم . « وعهدنا إلى ابراهيم واسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » (البقرة - ١٢٥)

والدعاء الذى رفعه ابراهيم إلى الله من أجل رفع شأن اقتصاد هذا المركز كان : « رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات » (البقرة - ١٢٦) فقبل الله هذا للدعاء ، وظل هذا المركز يتمتع برفاه الحال رغم أنه (غير ذى زرع) لمدة أربعة آلاف وخمسمائة سنة .

وفى عصرنا الحاضر أثبت البترول العربى أنه نتيجة من نتائج استجابة الله لهذا الدعاء فقد دبر مالك الكائنات هذا الأمر حتى يظل هذا المركز فى عصر الصناعة Industrial - age بما له من (انفساح أرضى) مركزاً غنياً ثرياً ، لا يفى بحاجته من البنزول فقط بل جعله قادراً على أداء مسئولية الدعوة على أعلى مستوى عالمى .

ويرى العلماء الجيولوجيون أن الصدفة الجغرافية Accident of Geography قد جعلت ثلث احتياطى البترول العالمى فى هذه المنطقة التى يطلق عليها بالمصطلح الحديث منطقة (الشرق الأوسط) (١) إلا أن الحقيقة أن هذا الأمر كان نتيجة للدعاء الابراهيمى الذى قال فيه ابراهيم لربه : (وارزق أهله من الثمرات) ، وبالألفاظ أخرى يقدم

(١) هذا مصطلح استعمله ايرد به ان يشتمل على اسرائيل ، والمسيح الشرق

العربى (المراجع) .

لأهله رزقاً يفيض عن حاجتهم حتى يقوم أولو الأمر منهم في كل زمان
بالإنفاق على سبل الدعوة بمنريقه ضيقه عصية : وحين حمل
الله إبراهيم الإمامة وجعل « بيته » مقصدا للعالمين ومثابة للناس .
أمره بأن ينادى أن يجتمع المخلصون من عباد الله الصالحين في هذا
المركز . وأن يلتفتوا بإمامهم وأن « يشهدوا » منافع دينية ودنيوية لهم
« ليشتدوا منافع لهم » (الحج - ٢٨) . وليعبدوا الله أيضا حيث
يجتمع عباد الله الصالحون مرة كل سنة في هذا المركز الالهي ، ليجتثوا
أمورهم وقضاياهم الدينية . وليستمعوا إلى أحكام إمامهم وليستعدوا
لتجديد سنة إبراهيم ، وأخيرا ليعود كل منهم إلى وطنه .

والعبادات الموجودة في الحج هي وسيلة للحصول على قرب الله
ونصرته . وهدف الحج الأساسي هو أن يطرح الإنسان جميع قضايا
الدنيا : وأن يحاسب نفسه ، ويستعد لبرنامج جديد من العمل الديني ،
فانبنى عليه الذي جاء ليحيى الأمة الابراهيمية لم يتم بتصحيح أخطاء
مناسك الحج فقط . بل جعل من بيت إبراهيم مركزاً دينياً . وفي حجته
المشهوره قام ﷺ بإعلان أمر الحق (خطبة حجة الوداع) فأوضح
الفرائض والأحكام الدينية وأعلن نسخة بعض المعاهدات ، وحدد
بعض القواعد الدولية وأشهد أمته على نفسه لآخر مرة بمناسبة الحج
حين قال بعد الخطبة : ألا هل بلغت ؟ فقال الناس : بلى يا رسول
الله ، وأعطى ﷺ آخر تحذير لمنكرى الحق في يوم الحج :

« وأذ أن من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر » .

(التوبة - ٣)

ورغم أن زمان نزول الآية كان في الوقت الذي وجد فيه النبي
في المدينة ، إلا أن إعلان البراءة كان في مكة يوم الحج ، وهذا دليل
على أن مكة هي المركز الدائم للحركة الاسلامية .

وقد جاء في الحديث :

« إن للدين نيارز إلى الحجز كما تأرز الحية إلى جمرها » .

(المشكاة باب الاعتصام بالكتاب والسنة)

وما جاء ذكره في القرآن الكريم بأن الله تعالى قد أعطى لبني إسرائيل مقام الفضيلة . جاء ذكره أيضاً فيما يتعلق بالأمّة المحمديه بأنها خير أمة (آل عمران) . فغد لخير بنو إسرائيل قبل بني سماعين (الأمّة المحمديه) للقيام بارشاد الناس إلى الحق .

« ان الفريضة الوحيدده لبني إسرائيل في هذه الدنيا ان يكونوا

شهداء لله » .

(دلائره المعارف اليهوديه مجلد ٦ ص ٢)

وفرض على بني إسرائيل القيام بالدعوة إلى وحدانية البارئ . والقيام بجهاد عبدة الشمس والقمر والكواكب . وحين حمل الله بني إسرائيل هذه المسئولية أعد لهم الله نظاما اقتصاديا خاصا وذلك في زمان موسى عليه السلام (١٥٢٠ - ١٢٠٠ ق . م) . وكان هذا هو المن والسلوى . وكان طعامهم هذا يصلهم حتى مساكنهم بسهولة كبيرة . وأمروا ان ينصرفوا بكل قواهم إلى تبليغ دعوة الله أكثر من انشغالهم بنظامهم الاقتصادي إلا انهم لم يقدرُوا على فهم هذه المصلحة فبدأوا يتجهون إلى اللذات والشهوات وسهولة الحياة مفضلوا ما هو أدنى على الذى هو خير . وفى النهاية أبعادوا عن مقام الفضيلة لأنهم أنكروا آيات الله .

« واذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك

يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير ، اهبطوا مصرأ فإن لكم

ما سألتم ، وضربت عليهم الذلة والمسكنة وبأؤ بفضب من الله ذلك
بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله » •

(البقرة — ٦١)

وما حصل عليه العالم العربى من ثروة بنزولييه نمال من حيب
مكانتها ما كان لدى بنى اسرائيل من من وسوى . فعد كانت قيمه المن
والسلوى كقيلة بنمحينهم من تبليغ « شهادة دين الله » . وهذا فإن
الثروة البترولية وما لها من قيمة عالمية ومكانة عالية كبيرة إنما أرسلها
الله لأداء مهمة تبليغ رسالة الحق ، واخمان الاستمرار فى مهمة تبليغ
رسالته الله •

إن وجود الخبة فى العالم العربى يجعل من هذه المنطقة مركزاً
للدعوة الاسلاميه باستمرار وعى الدوام . فمن ناحية تتمتع هذه
المنطقة بجاذبية تاريخيه تجذب اليها جميع اهل الأرض ، فيفد اليها
كل عام ملايين البشر . ومن هنا جعلت المنطقة حرماً آمناً • وتجمعت
حولها جميع وسائل الدروة لتظل دائماً فى يد اهل الاسلام ، ولا يمكن
أن تؤول للآخرين لا سياسيا ولا إداريا ، ثم كان هناك تدبير ثالث
وهو قيام اقتصاد هذه المنطقة على أساس راسخ ثابت حتى يكفى
سكانها ويغىض عنهم فائض يمكنهم من أداء أكبر وأعظم الخدمات
ولنشر دين الله ورفع لوائه وهو العمل الذى كانوا يقومون به على
مر الأزمنة ...

ترى هل يعرف العرب سر نعمتهم ؟ وهل يقومون بأداء رسالة
الله ؟ !!

الصراط المستقيم

ما هو الصراط المستقيم ؟

يفهم من القرآن الكريم أن الله تعالى قد حدد منهجا محكما لجميع الكائنات . وجميع الكائنات تمنى على هذا الطريق وعلى هذا المنهج متمزمة بالحدود التي وسعها الله (فصلت - ١١) (١) حتى أن النحل (٦٨ ، ٦٩) تسلك سبيل ربها الذي حدده لها . فهي تسلك سبل ربها ذللا (٦٩ - النحل) (٢) . وفي هذا أيضا سر نجاح الإنسان ولا شك فالإنسان في حالة اختبار دائم وامتحان مستمر . ومن هنا تم الاكتفاء بإخباره وإرشاده فقط . ثم وهب الإنسان الفرصة ليستخدم إرادته في اتباع الطريق المستقيم أو الانحراف عنه (الإنسان - ٣) . وحين أخبر الله للإنسان بمعنى « سبيل الله » وضع على عاتقه مسؤولية المضي على هذا السبيل واتباعه وكله يفين على أنه هو السبيل الوحيد الذي يقوده إلى الفلاح والنجاح (إبراهيم - ١٢) . وإذا ما تأثر الإنسان بسبب ما فسلك سبيلا آخر . فهو ينحرف بهذا عن سبيل الله . ومن ينحرف عن سبيل الله لا يصيب من هذه الدنيا سوى الفشل والندم (الأنعام - ١٥٣) (٣) فالإنسان عند الله هو الإنسان الذي يمضي على

(١) يشير المؤلف الى قوله تعالى في الآية ١١ من سورة فصلت : « ثم استوفى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها » قلنا أيتنا طائعين » .
(٢) يشير الى قوله تعالى : « ثم كل من كل الثمرات فاسلكي سبيل ربك ذللا » .
(٣) يشير الى قوله تعالى : « اذا عدنا الله الهملا ايا شاكرا واما كفورا » .
١ : يشير المؤلف الى قوله تعالى في الآية ١٥٣ من سورة الأنعام : « والذين كفروا هم مستحقون » .
٢ : يشير المؤلف الى قوله تعالى في الآية ١٥٣ من سورة الأنعام : « والذين كفروا هم مستحقون » .

الصراط المستقيم . ومن ينجح عن الصراط المستقيم فهو ينحدر إلى
مقام الحيوانية .

« أفمن يمشى مكبا على وجهه أهدى أمن يمشى سويا على صراط
مستقيم . قل هو الذى أنشأكم وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة
سيد ما تشكرون » . (الملك ٢٢ — ٢٣)

ويعلم من معنى المضى على الصراط المستقيم ان يستخدم
الإنسان إمكانياته وكفاءاته . سمعه وبصره وفؤاده ليعيش حياته .
ما هو السمع والبصر والفؤاد ؟! هذه هي الأشياء التى يتميز بها
الإنسان عن بقية المخلوقات . هذه هي الأشياء التى تنفل أى كائن
« حى » من هذه المنزلة إلى منزلة خونه « إنسان » . وعلى انعكس
من هذا تكون الحيوانات . فرغم انها تمضى وتتحرك إلا انها جردت
نعمة السمع والبصر والفؤاد . تلك النعمة التى خص الله بها الإنسان
فقط . ومن هنا فمن يمتلك هذه النعم الإنسانية ولا يستفيد منها فهو
كمن ينحدر بنفسه من مقام الإنسانية إلى مقام الحيوانية وقد ذكر
القرآن أنه كالكلب (الأعراف — ١٧٦) (١) كالحمار (الجمعة —) (٢)
كالأنعام (الفرقان — ١٤٤) (٣) وأكثر من هذا فهو فى منزلة الفردة
والخنزير (المائدة — ٦٠) (٤) بل أسوأ :

« إن شر الدواب عند الله الصم والبكم والذين لا يعقلون » .
(الأنفال — ٢٢)

(١) يشير الى قوله تعالى : « مثله كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث او تتركه يلهث »

(٢) يشير الى قوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار
يعمل استغارا » .

(٣) يشير الى قوله تعالى : « ان احصوا ان اكثروا سمعون او يعقلون ان هم الا
كالانعام بل هم اضل سبيلا » .

(٤) يشير الى قوله تعالى : « قل هل اوتيتكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنة
الله وغضب عليه وجعل منهم الفردة والخنزير ومعبد الصافوت » .

فالأمر الذي تفهم بالعقل • يحدث ألا يفهمها الإنسان وحده
لا يمتلك عقلاً ، وهذا الإنسان هو في نظر الله اعبي ولا يسمع ، وقد
ورد في القرآن الكريم في سورة رقم ٢٥ أن الله خلق الإنسان في
أحسن تقويم ثم رده أسفل سفلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات
(التين ٤ - ٦) (١) فالمراد بالأمر الأول هو مقام الإنسانية والأمر
الثاني مقام الحيوانية . فإله قد خلق الإنسان على مقام الإنسانية
ثم وضعه في مقام الحيوانية ، والآن يختبره ويمتحنه حتى يخرج
الإنسان نفسه من مقام الذل إلى مقام الرفعة •

« ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض وأتبع هواه »
(الأعراف - ١٧٦)

وهذا القسم من الآيات التي ورد فيها نذر هؤلاء الناس انهم
والصالحين لا يعقلون ، ليسوا غيباً أو صما بالمعنى العضوي بل هم
كالمجانين في الواقع انقلبوا على وجوههم في الهوايه •

كان هؤلاء أناساً اعتبروا أئمة العلم في زمانهم . وكانوا قد بنوا
القصور والقلاع ، كانوا علماء خبراء في التجارة والزراعة والبيستنة .
كانوا يقودون الأمم والدول . وهكذا ذكر أمية بن أبي الصلت العربي
الذي اشتهر ليس فقط بإمارته وكرمه بل أيضاً بشعره وبحكمته
(الآية السابقة من سورة الأعراف - ١٧٦) ثم هناك شخص آخر
ولد في آخر زمان موسى عليه السلام ويدعى بلعام بن بعور ، اشتهر
بين أهل زمانه بالعراق وذاع صيته بسبب علمه وزهده ، كما يروى
عن عبادة بن الصامت أنه كان يعد مصداقاً لرؤساء قريش ، وقد تولى
أمر الكعبة ولهذا اعتبر قائداً للعرب أجمعين (البحر المحيط) •

• (١)- يشير إلى قوله تعالى : « لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل
سفلين إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » .

... ثم ماذا تعنى عبارة عمى ضم ، إن فهم هذا الامر يستلزم التعمق فى انفرق بين الإنسان والحيوان فالحيوان يملك كل ما لدى الإنسان من أشياء ظاهرة فالحيوان يمضى ويأكل ويشرب. ويرى ويسمع ويشعر بالألم إذن ما هذا الشيء الذى يفصل بين الإنسان والحيوان . يقول علماء الأحياء إن الفرق يتمثل فى قدرة الإنسان على الفكر التصورى Conceptual Thought . وبعبارة أخرى فهو يفكر. ولا يمكن ان يقوم بأى عمل بدون أن يقتنع بما هو موجود امامه . مثل هذه قدره لا توجد عند الحيوانات . ومن هنا يمكن أن نفهم الفرق بين مقام الإنسانية ومقام الحيوانية . فمقام الحيوانية يعنى أن شيئاً ما لا يمكن أن يحرك الإنسان سوى المصلحة المادية أو الضرر المادى . وعلى العكس من هذا فمقام الإنسانية هو أن يؤمن الإنسان بالشيء ذهنيًا بعد أن يتأكد من حقيقته أو صدقه وطبقاً عليه يبنى أسلوب حياته . يقول تعالى فى كتابه العزيز :

« ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب » .

(البقرة - ٢)

فالقرآن الكريم ليس هداية لأولئك الناس الذين يخضعون للتأثير المادى فقط او التفكير الدنى او النفع والضرر المادى فقط بل من يهتدى بهذا الكتاب هم أولئك الناس الذين يؤمنون بالحقائق الصادقة التى تحمل أهمية عقلية خائصة (الغيب) . ولا وجود لقوة تلك الحقائق التى يؤمنون بها فى هذه الدنيا . وكأنما الإيمان بالمشاهدة هو مقام الحيوانية والإيمان بالغيب هو مقام الإنسانية .

يروى فيما يتعلق بإسلام أبى بكر رضى الله عنه أن الرسول

عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : (ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا نانت عنده كبره وتردد
وسطر إلا أبا بكر ، ما عنكم (١) عنه حين ذرته ولا تردد فيه) .
(البداية والنهاية مجد ٣ ص ٢٧) .

وهذه هي اعني درجت مسلم ، إنسانيه نسي بها أبو بكر
الصديق . فقد كان في إمكانه أن يفهم قدر وعيمه أي تبي عن أساس
جوهره انداتى وهذا يتأثر الإنسان بالشخصية العاليه لرسول الله
ويمنون مسما . أو يتأثر بالمعجزات أو بنفرا ان الكريم أو بالبركات
الماديه لارسالهم ويخون مسلما . إلا أن أبا بكر وصل إلى مقام من رفعه
أنفخر بدرجة انه ينمى من قبول النسي عن أساس الحسن والقبح
المتردين . وهذا حين أوصى أبو بكر . انه مرض موته بوصيه
الخارفة وعهد بها إلى القاروق عمر . ظهر في الناس قلق شديد :

« فدخل عليه طلحه بن عبيد الله فقال انا رسول من ورائي إبيك
يؤثرون : فد علمت عقله عمر عليل في حيث فكيف بعد وفانت إذا
افصيت اليه مورث والله سائل عنه فانظر ما است تش » . إلا أن
من وصل إلى هذه الدرجة العاليه من مقام للإنسانيه قد عبر مرحته
الظاهر إني مرحلة الابدان . فقد رأى أبو بكر أن سدة عمر هذه ليست
خاصه بدائه هو بل من أجل الدين . وأن القلب الخاسع في داخل
صدره هو أكبر ضمان لأن يظل عمر على الحق ، قال عثمان : لا تأخذوا
على ظاهره فباطنه احسن من ظاهره (سريره خير من علانيته) وهذه
هي عبارة أبي بكر بالفاظ أخرى . فالشخص الذي يقوم على الصراط
المستقيم تنبت فيه بذرة المعرفة . لقد سمعت قريش القرآن على لسان
محمد ﷺ ، فقالوا : « هذا كلام شاعر » فكلمة شاعر هنا لم تكن
كلمة كبيرة وهي عند الله تدل على قلة الإيمان ، تليلا ما تؤمنون »

(الحجة - ١٤١) (١) . فلم يكن إيمانهم إيماناً كلياً ، فقد قالوا عن القرآن . كلام شاعر لأنهم أرادوا أن يعلنوا أنه مجرد عمل أدبي . يضم التعاليم القديمة للآلة إبراهيم . وهكذا اكتفى هؤلاء الناس بالاعتراف بالحق الأدبي للقرآن بينما الحق الأساسي للقرآن أنهم أن يفهم عى أنه الصديق الأعلى . وأن يسلم به . على أنه « حق اليقين » . وحين طلب رسول الله ﷺ من أبي سفيان أن ينطق بشهادة الإسلام قبل دخول مكة بيوم قال : بأبى أنت وأُمى ما أحلمك وأكرمك وأوصك . هذه ولله كان في النفس منها شيء حتى الآن . وبعدها حين شعر عمه العباس بدقة الموقف نطق بالشهادة ، وكان من السبيل على أبي سفيان أن يعترف بعظمة النبي وأخوته لأنه بعدما حصل على هدوء نفسه إذ شعر بأنه إن كان هناك فرق فبالفرق فقط فرق أخلاقى وليس فرقاً خاصاً بصحة أو خطأ نظرية النبي ﷺ . ولا شك أنه من الصعب على أى إنسان أن يعترف بالنظرية بالمقارنة بالاعتراف الاخلاقي .

المراط المستقيم في السلوك الفردى :

ما هو المراط المستقيم الذى تم إيضاحه في القرآن الكريم بطريقة واضحة ، فيما يتعلق بالحياة الفردية (الشخصية) وبالحياة الاجتماعية .

جاء في القرآن الكريم في السورة السادسة (الأنعام) :

« قل تعالوا أنزل ما حرم ربكم عليكم الا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياكم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التى

(١) يشير المؤلف الى قوله تعالى : وما هو بقول شاعر . قبلنا جاثومون . م ٦ - واقنعنا واستقبلنا

حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون ، ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها ، وإذا قلتم فاعدوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون وإن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » . (الأنعام ١٥١ - ١٥٣)

هذا هو الصراط المستقيم الخاص بالحياة الفردية . وخلاصة التوحيد : حسن السير والسلوك مع الآخرين . الاعتماد على الله ، البعد عن الفواحش ، احترام النفس ، البعد عن الظلم . التعامل بالحسن إقامة العدل في جميع الأحوال . الوفاء بعهد الله . اتباع التقوى في جميع الأمور ، وأولئك للناس الذين يمضون على الصراط المستقيم هم أولئك الذين أنعم الله عليهم (الفاتحة) : الذين خرجوا من الظلمات إلى النور (إبراهيم - ١) (١) . الذين نالوا فضلا من الله ورحمه (النساء - ١٧٥) (٢) حتى أتم الله عليهم نعمته (الفتح - ٢) (٣) . ومن الواضح أن حياة الناس الذين يتصفون بهذه الخصائص لا يمكن أن تكون كحياة عامة الناس ، ومن الضروري أن يظهر أديهم هذا الإدراك - في حياتهم - بأشكال مختلفة :

١ - وأول ما يتعلق بهذا الأمر هو أن ينالوا أعلى الكيفيات الإيمانية . يروى أن عبد الله بن رواحة قال لرجل : تعال نؤمن ساعة . فسمعه رجل فجذبه إليه وقال : « أولسنا بمؤمنين ؟ » فأجاب ابن رواحة :

-
- (١) يشير إلى قوله تعالى : « السر كتب أرسلناك بالحق ولنخرجنك من الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد »
 (٢) يشير إلى قوله تعالى : « فأما الذين آمنوا بالله وامتصوا منه ثمرة فسندخلهم من رحمة ربهم ومنهم » .
 (٣) يشير إلى قوله تعالى : « ليعرف الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما » .

« أجل ، نحن مؤمنون ، ولكن حين نتذكر الله فاننا نزداد إيماناً على إيماننا » ، وبعد ذلك ذهب ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وشكى مما قاله ابن رواحة الذى ترك إيمانه واتجه ليؤمن فقرة ، فقال النبي ﷺ :

« يرحم الله ابن رواحة أنه يحب المجالس التى تتباهى بها الملائكة » (رواه أحمد عن انس بن مالك) •

وكان ما قاله ابن رواحة من جملة للكيفيات الإيمانية العالية . لكن الشخص الذى وقف عند حد الإسلام دون « الإيمان » لا يمكن ان يفهم هذا المستوى •

٢ — يعنى الإيمان لئلا هؤلاء الناس انهم قد أسلموا نفوسهم تماماً لله . وهذه الفكرة تجعلهم يرتجفون وتخضع قلوبهم خوفاً من أن يقضى الواحد منهم حياة تكون بعيدة عن صراط الله المستقيم ، وحين نزلت الآية القرآنية « الذين يكتزون الذهب والفضة » (التوبة — ٣٤) ، قال رسول الله ﷺ : « تبا للذهب ، تبا للفضة » ، وكان هذا الأمر من الصعوبة على أصحابه لدرجة أنهم قالوا فيما بينهم : فأى مال نتخذ . وحمل عمر هذه القضية وذهب إلى رسول الله ، فقال :

« ليتخذ أحدكم لساناً ذاكراً ، وقلبا شاكراً وزوجة مؤمنة تعين أحدكم على إيمانه » •

(تفسير ابن كثير مجلد ٢ صفحة ٣٥١)

٣ — أن تولد بداخلهم بذرة الاعتراف بالذنوب بدرجة كاملة . ركب أحد الصحابة ويدعى جابر بن الأزرق على ناقته ، وكان يمضى مسافراً مع رسول الله ، وفى الطريق حط الرسول رحاله ودخل إلى

خيمته . وكان هناك زحام شديد على باب الخيمة . قال جابر بن الأزرق : لقد دفعني شخص وأراد أن يبعدني عن الباب . فقلت له : لقد دفعتنى وسوف ادفعك وإذا ضربتنى ضربتك . وسمع الرجل هذا فعاد له : يا نسر الرجال . فقال له : بالله أنت سر منى . فقال له الرجل : كيف هذا ؟ فقال : لقد جئت من أطراف اليمن لاسمع شيئا من رسول الله واعد لأخبر الناس الذين من خلفى . وانت معتنى . وسمع جابر بن الأزرق العافرى هذا وهذا . وضل عسى الفور : حدثت نعم والله أنا سر منى . (كنز العمال) .

٤ — أن يسر بمسئوليته تجاه الناس أحد من شعوره بحقوقه . يروى عن أم سلمة في مسند الإمام أحمد أن رجلين اختصما . فجاء إلى رسول الله ﷺ . يحتكمن إليه في نزاعهما على إرب . وكان كل واحد منهما يقول : هذا حقى . ولم يتمكن أحدهما من إثبات حقه بطريقته بينة . فقال رسول الله ﷺ : (إنكم تختصمون إلي . وإنما أنا بشر . ولعل أحدكم الحن من الآخر بحجته فأحكم له . فمن حكمت له بنىء من حق أخيه فإنما أعطيته جمره من النار يوم القيامة) . وسمع الرجلان قول رسول الله ﷺ فبكيا وصارا كل منهما يقول : « حقى لأخى حتى لأخى » .

٥ — أن يوجد في الإنسان سمو النظرة وارتفاع النفس ، فيرى الصغير كما يرى الكبير : وقد أرسل الأمير معاوية في زمان حكمته إلى أنصارى مبلغ خمسمائة دينار . فرأى الأنصارى أن هذا المبلغ قليل . فقال لابنه خذ هذا المبلغ واذهب لمعاوية وألق به في وجهه وعد . واستحلف ابنه على أن يقوم بما أمره به : فأخذ الابن المبلغ وذهب إلى معاوية وقال : يا أمير المؤمنين : لقد أمرنى أبى وأنا لا أقدر على مخالفته ، فوضع معاوية يده على وجهه وقال له : افعل كما أمرت أبوك .

ولكن تصرف بلين مع عمك . فخجل الابن وترك المبلغ . وذهب فضاءف معاوية المبلغ وأرسله إلى الأنصارى . (تاريخ الفخرى)

٦ — أن تظهر بداخلهم معرفة الحقيقة . التى تجعل الرجل العادى يبطق بأمر ترضع كبار الناس فى حيرة . ففى زمان خلافة عمر رضى الله عنه حين انتصر سعد بن أبى وقاص فى معركة القادسية (فارس) . تبادل مع رستم قائد جيش الفرس (الرسل) وفى تلك الأثناء . حين وصل أحد الرسل بعناده وملابسه العادية إلى بلاط رستم صاحب الفخامة والهيلمان استحضره . وقال له مشيراً إلى رمحہ : ما هذا الذى فى يدك كالمغزل . فقال له الرسول بهدوء مجيباً عليه : « لا يقلل من شأن قطعة الفحم أن تكون صغيرة » . (تاريخ الفخرى)

٧ — أن تظهر فى الإنسان « بصيرة » تمكنه من رؤية أدق شباك العدو وفخاخه . فقد كان من بين المهاجرين مع عمر رضى الله عنه شخص يدعى عياش بن ربيعة ، وحين عرفت قريش أنه وصل إلى المدينة . وصل وراءه كل من أبى جهل بن هشام والحارث بن هشام وكانا من بين ألقابه . وقالوا عياش بن ربيعة عد معنا إلى مكة فأمك أصيبت بصدمة كبيرة من جراء ذهابك . فأقسمت بأنها لن تمشط شعرها . ولن تستظل بظل طالم لم تشاهدك ، ووصل الأمر إلى عمر ، فقال لعياش بن ربيعة إنها مؤامرة تستهدف عودتك لا تقلق لكلامهما . فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت . ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت » .

(البداية والنهاية مجلد ٣)

إلا أن عياش بن ربيعة لم يفهم ذلك . وعاد إلى مكة . وهناك ابتلاء الناس بالامتحان والعذاب والقتل .

هؤلاء هم للناس الذين بقروا بالأجر العظيم (الطلاق - ٥) (١) والذين تتبدل سيئاتهم حسنات . (الفرقان - ٧٠) (٢) ، فالحقيقة أن هذه الأخطاء يتعرض بها الجميع ، المؤمن وغير المؤمن إلا أن من وصل إلى مقام العبودية حين تصدر عنه سيئة يتجه إلى الله بشدة تضاعف ما كان عليه من قبل . وهكذا تصبح هذه السيئة التي ارتكبها سببا في أن يستعيد حالة إيمانه بأشد مما كانت عليه ، وعلى العكس من هذا فمن يضل طريقه وسط ظلمات السيئات ، فان سيئاتهم بدلا من أن تعطيهم غذاء إيمانياً متجدداً تضيف إلى قساوتهم .

« إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان ، تذكروا ماذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم في الفى ثم لا يقصرون » .
(الأعراف ٢٠١ - ٢٠٢)

الصراط المستقيم الاجتماعى :

كما وصلتنا الصلاة وكما وصلنا الصوم عن طريق النبى فقد وصلنا منه أيضا كيف يمكن للحركة الإسلامية أن تبنى على الطريق : وكيف يمكن أن ينتشر الإسلام فى الدنيا ، وبعبارة أخرى فكما يوجد صراط مستقيم للحياة الفردية يوجد أيضا صراط مستقيم للحياة الاجتماعية فصلاح الحديبية (٦٢٦ م) هو من أهم أحداث الكفاح الاجتماعى الإسلامى وتقول سورة (الفتح) عن هذا الصلح :

« ولنكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما » .

(الفتح - ٢٠)

(١) يشير الى قوله تعالى : « ومن يلق الله بكفره سيئاته ويعلم له اجرا »

(٢) يشير الى قوله تعالى : « الا من تاب وآمن وعمل صالحا فأولئك يبدل الله

وعده الآية التي نعلق بصلح الحديبية توضح انه كما يوجد صراط مستقيم للعبادات وللأخلاق فهناك أيضا صراط مستقيم لأمر الصلح والأمن والقتال .

فالشخص الذي يمضى على الصراط المستقيم وبعبارة أخرى الذى يمضى على مقام الإنسانية حيث تكون القرارات كلها قائمة على أساس السمع والبصر والفؤاد . وليس على أساس العناد ورد الفعل . فهو ينال بصيرة خارقة . ويتخلص من جميع الدوافع العاطفية والجوانب الإضافية والثانوية ويبدأ فى إدراك جوهر الحقيقة مباشرة ، وطبقا لهذه الحقيقة فخطه تكون صحيحة وقاطعة، وإصابته تكون صحيحة لاتخطئ، أبدأ ولهذا جاء فى الحديث :

« اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله » .

وفى الوقت الذى يذكر فيه القرآن الكريم أن المؤمن يغلب عشرة أمثاله . فإنه يحدد أن سبب الهزيمة هو أن هؤلاء رغم كثرة عددهم لا يفقهون شيئا .

« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون »
(الأنفال - ٦٥)

وصلح الحديبية مثال بارز على هذا الأمر . فمن الواضح أن هذا الصلح تم تحت ضغط ، فالعقل الفرائضى لم يكن مستعدا لأن يوقع ألف وخمسمائة من الفدائيين المسلمين مثل هذا الصلح الذى كتبت مسودته فى معظمها بناء على مطالب العدو ، إلا أن العقل الإنسانى البصير الذى وهب القدرة على أن يميز بين الحقائق فى شكلها النقى الصافى قد استشف أن هذه هى قضية « الفتح المبين » (الفتح - ١) (١)

(١) يشير الى قوله تعالى : « اما فتحنا لك فلما بينا » .

ومكذا فقد ذكر الصراط المستقيم أو سبيل الله من أجل شئون الحياة جميعها ومن أجل قضايا الدنيا والآخرة . وجميع الكائنات تنمى على هذا الصراط ، وهذا هو سبيل نجاة الإنسان ووسيلة نجاحه ونوحيته . ومع هذا الفرق فإن للكائنات ملتزمة بالمشى على هذا الصراط المستقيم طوعا وكرها (فصلت - ١١) (١) والإنسان يمضى عليه بإختياره .

وكما حدد القرآن خطوط الصراط المستقيم الذى ينطلق عليه الفرد فى رحلته الذاتية فقد أهتم أيضا ببيضاح الصراط المستقيم فى المعاملات الاجتماعية ، فمن ناحية قدم لنا أمثلة فى شكل تجارب حقيقية كبيان حكم صلح الحديدية ، يقول تعالى : « وبهديك صراطا مستقيما » (الفتح - ٢) ، ومن ناحية أخرى يذكر القرآن الكريم بعض الأصول الأساسية التى تحيط بمعظم المعاملات العملية فإذا ما سما الإنسان بنفسه عن مقام الحيوانية ، ووصل إلى مقام الإنسانية فإنه لا يمكن أبدا أن يخطئ فى فهم الأسلوب أو السلوك الذى يجب أن يتبعه فيما يتعلق بأى أمر اجتماعى خاص يأخذ بيده إلى طريق النصر الإلهى والفتح .

١ - إن أول الأصول الأساسية فيما يتعلق بهذا الأمر هو عدم اتخاذ أى إجراء أو عمل بتفكير سلبى ، يجب أن يضع المرء هدفه الأساسى أمامه بطريقة إيجابية ، ثم يحاول بعد ذلك أن يطبق جميع خططه الاجتماعية طبقا لهذه الأهداف الإيجابية .

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » .

(المائدة - ٨)

(١) يشير إلى قوله تعالى : « ثم أوتى إلى السماء وهى دخان مقل لها وللأرض انبعاثا ثوبا أو كرها ، قلنا انبعاثا طافحين » .

وإذا نظرت بعمق شاهدنا أن معظم ماسى الفشل عبر التاريخ إنما كانت نتيجة للإقدام على عمل بعد التأثر بالعناد والكراهية والبغض والعنصرية . وحين يخضع فرد ما أو جماعة ما لمثل هذا النوع من العواطف وبعدها يرسم خنطله العملية فهو بالضرورة يمشى على الطريق المبعوج . وعلى العكس من هذا فإننا ما وضع أمامه الهداية الأساسية وسما بعقله الحيوانى ووصل إلى المستوى الإنسانى ، علا يمكن حينذاك أن يروح ضحية للعواطف السلبية : وهكذا يجب أن يضع خنطته على أسس إيجابية : فالخنط الذى توضع على أسس إيجابية لا يمكن أن تفشل أبداً ، وقد تم إيضاح هذه الأصول الأساسية للصراف المستقيم فيما يتعلق بالمعاملات الاجتماعية وذلك فى نهاية ملحق ملح الحديدية :

« إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شئ عليماً » .

(الفتح — ٢٦)

فإذا كانت لدى الفريق الثانى حمية الجاهلية فعلينا أن نتحملها ونتمسك بقوة كلمة التقوى . وبعبارة أخرى لا يجب أن نتخذ أى قرار أبداً نتيجة رد فعل تحت أى تأثير نفسى . يكون نتيجة للتأثر بسلوك أعدو ، بل علينا أن نقوم بالتخطيط لبرنامجنا الاجتماعى بنفسية إيجابية فى ضوء أهدافنا المستقلة وأصولنا المحددة وأن ننظر إلى المستقبل بدلا من أن ننظر إلى الحاضر .

٢ — ومن أهم أصول الهداية الاجتماعية الأخرى اتباع سبيل الله (الأنعام — ١٥٣) (١) وقد ذكر القرآن الكريم الشجرة كمثال على

(١) يشير الى قوله تعالى : « وإن هذا صراطى مستقيماً فابعوه ولا تتبعوا السبل الصغرى منكم عن سبيله » .

هذا الأمر . فالشجرة تثبت جذورها أولاً في الأرض . ثم ترتفع بعد ذلك رويداً رويداً ومن هنا فإن القوة الداخلية لها الأهمية الأولى في بناء الأمم . إذ لا يجب اتخاذ أى إجراء خارجى قبل تدعيم الجذور الأساسية . فالقرآن الكريم يقدم نصيحة القدره الإلهية التى ترشدنا إلى اتباع الأسلوب الذى نتبعه الشجرة فيما يتعلق ببناء الأمة !!

« ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبث الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » .

(إبراهيم ٢٤ - ٢٧)

فلتفكروا فى الأمثلة التى يقوم غيبها فريق باتهام فريق آخر باتهامات تدل على أن هذا الفريق إنما غرس « شجرة خبيثة » والحقيقة أن البناء الاجتماعى إذا ما وضع على أساس نظرية الشجرة الطيبة فمن المستحيل أن يتهم أى فريق فى المجتمع غريباً آخر بأنه أفسد شجرته .

٣ - وفى السنة الثالثة للهجرة وقعت غزوة بدر وكان أمام المسلمين هذيان : الأول : غافلة قريش التجارية التى كانت عائدة إلى مكة من الشام . وتضم ألف جمل محملة ببضائع قيمتها خمسون ألف دينار . والثانى : جيش قريش وقوامه نحو ألف جندي يتقدمون إلى المدينة . وكان من بينهم أبو جهل وكبار رؤساء قريش . فاستشار النبى ﷺ المسلمين . فرأى البعض منهم الاتجاه ناحية الغافلة التجارية القادمة ، وكان هذا هو رأى الرائج قبيل الفترة السابقة لذلك العهد ، فقد كان العرف المعمول به لمدة سنة ونصف بعد الهجرة : هو الهجوم على القوافل التجارية لشركى مكة المتجهة إلى الشام . إذ أن الهجوم

عليها يقضى على القوة الاقتصادية للعدو ، ويقوى الصالة المالية للمسلمين ، وبعد الهجرة بسنة حدثت غزوات صغيرة مثل الأبواء والبواط والعشيرة وغيرها (١) مما تذكرها الأحاديث وكتب السيرة ، وكانت كلها من مثل هذا النوع . إلا أن النبي ﷺ رأى ومعه كبار الصحابة مواجهة جيش قريش .

« وإذ يهدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين »
(الأنفال — ٧)

فالمعتل الحيوانى لا يمكن أن يفهم أبداً أن أهل المدينة الذين كانوا فى ميسس الحاجة إلى الرخاء الاقتصادى سوف يتركون القافلة التجارية التى لا تحرسها أية قوة ويخرجون لمواجهة جيش جرار ربما زاد عن ثلاثة أمثال جيشهم ، وكان يمكن فقط للشخص الذى سما إلى مقام الإنسانية أن يفهم كيف يكون لتحطيم قوة جيش كبير من نتائج عظيمة حتى أن قيل الرخاء الاقتصادى يمكن — بالمنطلق البعيد — أن يتحقق من خلال هذا الأسلوب ، لا عن طريق ترك الجيش والاتجاه ناحية القافلة ، فالدرس الذى نستفيده من هذا هو ألا نربط أقدامنا (بالفوائد العاجلة) بل يجب أن نضع أقدامنا دوماً على الفوائد الثابتة التى تأتى من بعيد وتكون أصولها الأساسية قائمة على إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وليس الحصول على مصالح دنيوية ، لأن الأهداف الدنيوية إنما تتحقق عاجلاً أو آجلاً بذاتها ، فما هى الضرورة لجعلها هدفاً ؟

(١) فى السنة الأولى للهجرة خرجت سرايا العيص ، والجزار ، ورابع ، وفى السنة الثانية خرجت سرايا نضلة ، ومصاء ، وأبى عك ، وودان ، والبواط ، والعشيرة ، وبدر الأولى ، وبدر الكبرى ، وبنو منبعا ، والسويق (المراجع) .

٤ - وهذا أصول لوضع العمل الاجتماعى على قاعدة (الصراخ المستقيم) عن طريق استعمال الفرص التى تأتى فى وقتها : وليس اتخاذ قرارات كبيرة على أساس تفؤلات المستقبل • صحيفة المدينة التى أرسى الرسول دعائمها فى السنة الاولى للهجرة هى مثال من أمثلة العمل الاجتماعى فحين هاجر النبى ﷺ من مكة ، وذهب إلى المدينة كان بها بالإضامة إلى المؤمنين جماعة كبيرة من المشركين واليهود أيضا . ورغم أنه قدر للمتركين واليهود أن تكون نهايتهم — فيما بعد — فى المدينة . إلا أنه فى المرحلة الأولى رأى رسول الله ﷺ أن يتبع معهم أقل درجات الخواجة فاصدر صحيفة اعترء بها بوجودهم . وأعلن أن (لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) عهد الاعتراف الذى أدى هدم اليهود — أو بتعبير آخر المهادنة الإسلامية — كان يعد شيئا من « الدرجة الثانية » إلا أن الرسول ﷺ ائتمنع بهذا الأمر فى المرحلة الأولى . ودنت النتائج فيما بعد على صدق هذه الكلية التاريخية . فالشخص الذى يفتنع فى المرحلة الأولى بأن الأمر الثانى هو الأفضل سيفوز فى النهاية بانسئء المنيب الأول وعلى العكس من هذا فمن يجرى منذ اليوم الأول وراء انشئء الأول غلن يئالنه ولن ينال ما هو أقل منه أيضا •

مفسرًا

٥ - يجب نجنب مواجهة العدو فى حالة وجود عملية ردع بشعة ، وذلك إلى آخر حد ممكن فالبرنامج المستقبلى أمام المسلمين كان هو التسيطره بقدر الإمكان على المواقع الحيوية أدرجه أن الفريق الثانى كان يضطر إلى إخلاء الميدان بعد أن يضيق عليه ويروى عن على رضى الله عنه أنه قال :

(رواء الترمذى) « والجئهم إلى مضائق الطريق »

وهذه هي الحقيقة التي عبر عنها القرآن بقوله :

« أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أنهم القائلون »
(الأنبياء)

فهذه الآية تشير إلى أن الإسلام انتشر دوماً عن طريق عمليه التبليغ التي تتم في صمت . وهكذا أسلمت أهم السحيمات في مكة ودخلت قبائل (غفار وهزينة وجهينة) وبقية أطراف مكة في الإسلام . كما أسلمت قبيلتا المدينة (الأوس والخزرج) . وهكذا دخل معرضو الإسلام إلى حظيرة الإسلام تدريجياً . وأخذت تتسع دائرة الإسلام . وقريباً يأتي الوقت الذي لا يكون فيه أمام أهل مكة من مخرج سوى أن يحاصروا من جميع الأطراف فيسلموا أسحتهم ويستسلموا أمام الإسلام .

لقد امر الإسلام بعداد القوة . يمكن ليس من الضرورة الاستخدام السريع لها بل هي قوة لأرهاب اعداء الإسلام « ترهبون به عدو الله وعدوكم » . ولهذا يقول نبي الإسلام :

(نصرت بأسرع مسيرة نهر) ويريد الرسول أن يتولى . إننى أخبرت بأسلوب للعمل أقوم فيه بالاكثاف باظهار القوة بدلاً من استعمالها . ويتم النصر عن طريق مجرد الإرهاب والتخويف . وكان من نتيجة هذا الأسلوب انه رغم قيام أنبى بنحو تمانين غزوة وسرية . فإن الغزوات التي حدث فيها قتال لم تتعد التسع غزوات فقط . أما الغزوات الأخرى فقد حصل فيها النصر على الأعداء بالإرهاب والتخويف .

ولقد أدى انتشار العلم والرقى الصناعى في العصر الحديث إلى وجود فرص جديدة لا حصر لها لهذا الأسلوب من العمل ، فقد قامت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية باستعمال طريقة كان من نتيجتها أن

ضاعت الحياة بأمريكا في اليابان مما اضطرها إلى ترك اليابان ، بينما اليابان لم تستعمل أية قوة عسكرية أو سياسية ضد أمريكا •

٦ - والأصل الأخير بل الأهم في هذا الأمر هو الميل إلى الواقعية والحقيقة ، ومعروف أن تقبل الحقيقة أمر صعب على النفس البشرية . إلا أن الله قد أرشدنا عن طريق رسوله ﷺ إلى أساليب عمل من أجل الجهاد الاجتماعي •

وهنا لابد لنا أن نسأل : ما معنى الواقعية وقبول الحقيقة ؟ • معناه اللجوء إلى تحكيم العقل في اتخاذ الأمور بدلا من اتخاذها بحمية رد الفعل انعاطضى • وإدراك الأسباب وانعوامل الحقيقة بدلا من الانسحاق وراء الرغبات والميول الظاهرية والغفل طبقا لها •

إن قبول الحقيقة يقتضى رسم خطط العمل بناء على الفرص البعيدة بدلا من الحصول على انتصارات فورية سريعة • ويجب وضع القوى الحاسمة كهدف يمكن بعد تحقيقه أن يصبح العدو بلا تأثير وبلا حول ولا قوة •

لا يمكن أن نجد كلمة أكثر تعبيراً من « الواقعية » (وحب الحقيقة) نصف بها المنهج الذى أمضى عليه ﷺ الدعوة الإسلامية . كان أمامه في مكة ، بل في حرم مكة (٣٦٠ صنماً) (وفي بعض الروايات أكثر من هذا) • إلا انه لم يجر أية عملية سريعة أو عنيفة لإخراجها من الكعبة ، وكان على بيته من (النوايا للاستعمارية) للعرب المحيطين بها ، ومع هذا لم يصدر « أى بيان » ضدهم ، ولقد حاك أهل مكة المؤتمرات لقتله ؛ إلا أنه لم يتصرف كقائد (ثورى) فيقدم نفسه لهم ليروح شهيداً بل ترك مكة وخرج فى صمت ، وحين قدم وفد الانصار إلى مكة وتمت البيعة قال قائدهم :

« يا رسول الله والذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيا فإنا » (تهذيب سيرة ابن هشام مجلد ١ ص ١٠٩)
فقال له الرسول : (نحن لم نؤمر بهذا . عودوا إلى دياركم) .
وكانت خيبر بصفه دائمة مركزاً لإحاطة المؤمرات ضد النبي . إلا أنه لم يتخذ ضد أهل خيبر أى عمل عدوانى مثل أن يعقد معاهدة مع أهل مكة حتى لا يشتركوا مع أعدائه ويحاربوه . وابتداء صلح الحديبية نار قادة قيس ثورة عارمه لدرجة أن جميع الصحابة غضبوا وشاروا ما عدا « أبا بكر » إلا أن النبي ﷺ قام بصبر وتحمل بإثبات (خاتمه الشريف) على معاهدة الصلح .

فقد أعطى القرآن الكريم أهمية كبيرة لأسلوب العمل هذا الذى يتصف بالواقعية والحقيقة والصبر .

وقد جاء فى آخر سورة هود إرشاد للمسلمين بالآلا يفرفهم الففاح الفعارض لبعض الناس فىظفنفرا أن اسافوفهم فى العمل افضل من الأسلوب المقدم لهم فىفساكوا سببف اولئك الناس . إن منل هذا البلاء ابفلى به الففوف : فظفهرت ببفنفم الففرقه . وفففوا عن الفرفق المسفقفم إلى طرق معوفة . فلا فففلوا هذا وإلا فافففوا أن فمسكم النار فففرموا من عون الله . وهذا هو الففلاح الفففقفى (١) .

أسس النصر وقواعفه

وعد الله الإنسان الذى ففشى عنى الصرافة المسفقفم أن ففنال النصر :

« وفففك صرافا مسفقفما ، وففنصرك الله نصراً عفزفا »
(الفففح — ٣)

(١) بقصف المؤلف فوله فعالى : « وما كان ففك لففك الفرفى بففم إلى فوله فسفر . إلى فوله فعالى : وافففوا أنا ففنففرون !

ويقدر ما يكون النصر الالهى مؤكداً بقدر ما يكون هذا الامر مؤكداً أيضاً وهو أن احداً لن ينال نصر الله بدون حق . وهذه سنة الله ولا تبدل لسنة الله (١) . (فاضر ٤٣) أما اذا كان هناك إنسان وصل لخاله الاضطراب . فانما يكفيه الدعاء ثلثين النصر تريخه إن يكون قد بذل كل جهده البشرى .

« أومن يجيب المضطر اذا دعاه ويكشف السوء » . *

(الفصل — ٦٢)

وكأنما شرط استحقاق الإنسان المضطر للنصر هو أن ينطق فقط بكلمات الدعاء . فينال نصر الله : إلا أن الإنسان أو الجماعة اتقى لا تكون في مقام الاضطراب . فيلزمها بالاضافة إلى الدعاء . شرطن آخران : الأول : أن يعمل الإنسان وأن تعمل الجماعة طبقاً لهذا الدعاء :

« اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » . *

(فاضر — ١٠)

ويستعين بهذا الدعاء الإنسان الذى يطلب النصر فى أمر ما . فاذا ما دعا شخص ما أن يهبه الله معرفة اسرار ولحكام القرآن فعليه أن يعمل بما يطابق هذا الدعاء . أى عليه أن يتدبر ويتفكر فى كتاب الله . واذا ما قام شخص ما بطلب النصر والتوفيق فى أمور المعاش فعليه أن يبذل ما أمكنه من جهد على طريق الكسب والمعاش (٢) . ولو طلب الانتصار والتوفيق ضد اعدائه فعليه أن يتحد مع إخوانه :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » . (الأنفال — ٤٦)

(١) يقصد قوله تعالى : « فان تجد لسنة الله تبديلاً وان تجد لسنة الله تحويلاً » .

(٢) يقصد المؤلف قوله تعالى : « فاذا قضيت الصلاة فامشوا فى الارض » .

وإذا أريد الدعاء بالنصر على أعداء الإسلام فإن الطريقة هي
القيام بدعوتهم إلى الله . ومهاجبتهم بشتى الطرق . فسمنا الله هي
الأيهك جماعة ما دون أن يختبر سلوككم اضلاعاً كاملاً (١) .
(الأنعام - ١٣١) .

والضرورة الثانية لإثبات استحقاق فضل الله هي الصبر أمام
المعارضين . أي للصبر على أيذائهم (٢) . (إبراهيم - ١٢) . وهذا
الصبر هو الجانب السابى من العمل الايجابى سابق الذكر . والهدف
من هذا هو عدم اتخاذ أى إجراء انفعالى ضد المعارضين . فبدلاً من
الخشوع نه نتفوق عليه . وبدلاً من تقديم الخدمات له نتحمل المصائب
والتعاب أنتى يسببوا . وبدلاً من أن نسأله ونقف على بابيه . نتبع طريق
المقاومة الصامته .

وقد وعد الله بتحقيق النصر العظيم . إذا تحققت هذه الشروط .
وحتى لو كان المسلمون عشرين فسيغلبون من أهل الباطل مائتين
« إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » . ويمكن أن تقل النسبة
عن هذا . كما أثبتت الأحداث والوقائع المتعددة فى التريخ الإسلامى .
إلا أن الأساس هنا هو أن الفرق بين الجماعتين هو فرق باعتبار الكمية
وليس النوعية . فما لدى أهل الباطل إذا كان يساوى (مائتين) فيجب
أن يساوى لدى أهل الحق (عشرين) من الشىء ذاته وليس من شىء
آخر . أى أن أهل الباطل إن سلحوا بمائتى (بندقية) فيجب أن يكون
لدى المسلمين أيضاً عشرون بندقية . وعلى العكس من هذا فإذا وجد
لدى طرف مئتا بندقية ولدى طرف آخر عشرون سيفاً : فإن هذا الوعد
لن يتحقق . لأن الفرق فى هذه الحالة لم يعد فى الكمية بل فى النوعية .

١١ - بمعد المؤلف قوله مائتى : « ذلك ان لم يكن ريبك . ذلك القرى نظام » .

٢ - بمعد قوله مائتى : « والمسلمين مائتى » فليقولوا : « .

وهكذا فإذا كان لدى المسلمين علم تاريخي أدبي . ولدى أهل الباطل علم تقني غني أو إذا كان المسلمون مسلحين بالعاطفة بينما يحمل أهل الباطل خزائن العقل والفكر (١) . وإذا كان لدى المسلمين جهل بالتاريخ وأطلع أهل الباطل على التاريخ وأما بدلالاته وإذا كان لدى المسلمون ثروة من الاختلافات بينما أهل الباطل متحدون متكاتفون . وإذا كان لدى المسلمين فوضى واضطراب . وتمتع أهل الباطل بالتنظيم . وإذا امتلك أهل الإسلام للقوى القديمة كلها بينما امتلك أهل الباطل القوى الجديدة . فلا يجب حينئذ أن يتوقع المسلمون استحقاق النصر من الله ضد أعدائهم . لأنه في الحالات السابقة جميعها فإن الفرق (فرق نوعي) (٢) . وإذا ما وجد الفرق النوعي . فلن ينزل أي نصر من الله على أي عدد مهما كان ؛ وهكذا فعلى المسلمين أن يقضوا على هذا (الفرق النوعي) إن وجد . حتى يرتفعوا على مستوى الفرق الكمي ؛ وبعدها يستحقون النصر الإلهي ، فالثأر فيمن يثبت على الصراط المستقيم أن ينال نصر الله ؛ وليس معنى هذا أنه لن يصاب بأي ضرر . فلا شك أنه أثناء الكفاح والجهاد سيتعرض لأنواع من المصائب والمتاعب ؛ ويتعرض لهزيمة مؤقتة تماماً مثله مثل الفريق التالي ؛ إلا أن النصر النهائي سيكون مع ذلك الفريق الذي تمسك بصراط الله المستقيم وظل قائماً عليه لا يحيد عنه !!

لقد تعرض المسلمون عبر التاريخ الإسلامي إلى العديد من الأضرار والمصائب . ونال المسلمون هزيمة ثتيلة في غزوة أحد (سؤال سنة ٣ هـ) نظراً لتصرفهم المنحرف ضد الأوامر النبوية العسكرية . وفي

(١) هذه مقارنة ممتازة من المؤلف نستحق الشويه بها (المراجع) .

(٢) أشجع بتمعنا أقواساً حول مصطلح (الفرق النوعي) حتى يتأمله القارئ الكريم .

مؤيد امر معسرى في مقابلة لسنة الله (المراجع) .

غزوة حنين (سنة ٨ هـ) لم يكن نظام المسلمين في التجسس قد اكتمل بعد : فحين نزل الجيش الإسلامى إلى الوادى قام العدو الذى كان يختفى خلف الجبلين بمطار جيش المسلمين ببوابل من السهام . ولم يكن أمامهم من سبيل للنجاة •

وفى حصار الطائف (نى القعدة ٨ هـ) اضطر المسلمون إلى فكه والعودة منه بعد أن أصيبوا بخسائر جسيمة لمدة ثلاثة أسابيع •

وفى مؤنه (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) وهى الغزوة التى استشهد فيها سبعمائة من بين ثلاثة آلاف مسلم . ورأى القائد العسكرى المسلم خالد بن الوليد أن يعود إلى المدينة وينجو بيتية الجيش ... فى تلك الغزوات . لا يمكن تقدير الامر على انه كان فى نوعية استعدادات العدو ... بل هو لمحض اختبارات من الله !! •

وقد آمن الناس — طبقاً لوعد القرآن الكريم أن هذه الهزائم هزائم وقتية يتعرض لها الجهاد الإنسانى وهالأهم اعتقاد عظيم عام ساد بين المسلمين فحواه أن ما يصيب البعض منهم ليس خسارة . لأن من يستشهد يذهب إلى الجنة بعد استشهاده . وتضحيته هذه تعطى للأحياء منهم حق النصر الإلهى . الذى يفتح لهم باباً جديداً من الانتصار •

وفى أيام خلافة عمر الفاروق رضى الله عنه حين ذهب ربيعى بن عامر إلى بلاط رستم وعرض عليه الإسلام قال لرستم : أننا سوف نجاهد حتى ننال وعد الله . فقال له رستم . ما هو وعد الله ؟ أجاب ربيعى بن عامر : « الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى » •
(البداية والنهاية)

ولا شك أن معيار العزم والفداء الذى أظهره أصحاب رسول الله ﷺ لو ظهر فى جماعة أخرى ، فإن نصر الله يصبح يقيناً ومؤكداً ... فسنه الله تحكماً للجميع .

لقد كان هؤلاء الذين نصرُوا الإسلام هم الرجال الذين رأوا وهم يبايعون رسول الله أن معنى وضعهم يدهم فى يد الإسلام (بيعتهم) إنما يعنى اداء فرائض ومستلزمات هذه البيعة إلى آخر مدى . حتى لو اضطروا إلى الفناء تماماً على هذا الطريق . فالببيعة تعنى بالنسبة لهم الموت .

فكان معنى الطاعة فى داخلهم يعنى استعدادهم الفورى لتنفيذ ما يطلب منهم .

عن أبى ثعلبة الخشنى رضى الله عنه قال : كان الناس إذا نزلوا تفرقوا فى الشعاب والأودية : فقال رسول الله ﷺ : إن تفرقتم فى الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان فلم ينزلوا بعد ذلك منزلاً إلا انخضم بعضهم إلى بعض حتى لو بسط عليهم ثوب لوسعهم .

وحين دخل كل صحابى الإسلام لم يكن يبق لخط نفسه شيئاً فخط الإسلام هو الخط الذى لا خط لسواه !!

وحين سأل النبى ﷺ الناس رأيهم قبل غزوة بدر قال سعد بن معاذ الذى كان يمثل الانصار : يا رسول الله خذ من أموالنا ما شئت وأعطنا ما شئت وما أخذت منا كن أحب إلينا مما تركت .

إن هؤلاء هم الناس الذين حرروا أنفسهم وخلصوها من جميع أنواع العقد النفسية ، ومن جميع التحفظات ثم دخلوا دين الله . ومثل هؤلاء الناس إذا اجتمع منهم عدة مئات : أمكنهم أن يحركوا التاريخ الإسلامى حركة لا ينتهى تأثيرها إلا إذا انتهى — فى عالم العقول والنفوس — ذلك المنهج الذى كانوا قد قاموا على هديه بحركتهم !!

مَبْجِ الدعوة إلى الإسلام

يقول عز وجل في محكم آياته :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » (الثورى — ١٣)

وعكذا لم تقل الآية القرآنية (أقيموا الدين واقتضوا على الباطل) بل جاء فيها « أقيموا الدين ولا تتفرقوا » هذا فيما يتعلق بإقامة الدين . فالحالة التي جاء فيها الأمر بالإيجاب والحالة التي جاز فيها الأمر بالمنع والنهى هما — طبقاً لما ورد في الآية الكريمة — حالتان تتعلقان بالدين ذاته . وقد جاء الأمر بنترك حالة واتباع أخرى وكأن الأمر الذى جاء في الآية لم يكن إقامة الدين في مواجهة إقامة الباطل بل جاء الأمر بإقامة الدين في مواجهة التفريق في الدين .

لقد كتب المفسرون أن المقصود بالدين في هذه الآية هو الدين الأساسى . لأن الدين الأساسى كان واحداً بين جميع الأنبياء . وفيه يمكن أن تكون التبعية المشتركة للجميع : أما الشريعة المفصلة فيوجد فيها اختلاف طبقاً لتصريح القرآن الكريم « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً » ، ومن هنا فلا يمكن اتباع جميع الأنبياء في وقت واحد فيما يتعلق بالشريعة المفصلة . ولم يكن الفرق الموجود بين الأنبياء بالنسبة للشريعة المفصلة قائماً على أساس أى تطور تشريعى بل كان قائماً على أساس الفرق بين الظروف ومراحل الدعوة . وهذا الفرق موجود الآن أيضاً بين مختلف الفرق الإسلامية وسوف يظل على الدوام ، ويمكن أن نعبر عن هذا الأمر بعبارة أخرى

وهى أن الدين ينقسم إلى قسمين : قسم مطلوب بحالة واحدة على السدوام . وآخر يكون تابعاً للظروف . والأول يتعلق بالنعمائيم الأساسية وقد جاء ذكره في القرآن الكريم باسم « الشورى » وللقسم الثانى الشريعة أو المنهاج أى القوانين الفرعية وأسلوب العمل . والقسم الأول عبر عنه القرآن بكلمة « سبيل » والقسم الثانى من الدين ذكر باسم « سبل » ولهذا فالقسم الأول يظل باقياً على الدوام واحداً ويظل معمولاً به لجميع الأزمنة وسيظل السبيل الواحد . وعلى العكس من هذا فإن القسم الثانى من الدين يتعلق بالظروف . ويمكن أن يكون فيه احتمال أكثر من شكل واحد . والحكم هو : اتقيوا الدين . دعووا الدين . ولا تقيموا سبلاً متفرقة . اتسعلوا باقامة الدين المتفق عليه . ولا تتدفعوا وراء لدين المختلف فيه فتتفرقوا .

ويخاطب القرآن الكريم المؤمنين فى عدة مواضع فيقول :
« إن الله قد حدد لكم حراماً أو سبيلاً فامضوا عليه ولا تتبعوا سبلاً أخرى متفرقة . وإلا ضللتكم وابتعدتم عن الصراط المستقيم .
وعبر القرآن الكريم عن هذا السبيل بأنه الدين القيم (١) . حبلى الله (٢)
سواء السبيل (٣) الصراط المستقيم (٤) وغيرها . وفى سورة الأنعام وبعد تقديم بعض الأحكام الأساسية : يقول تعالى :

« وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذاكم وصاكم به لعلكم تتقون » (الأنعام — ١٥٣)
وليس المقصود بالسبل فى تلك الآية طرق الكفر والشرك بل تلك السبل التى تخرج فى الدين باسم الدين : (قال مجاهد : السبل البدع — القرطبى) .

١١ البية .

١٢ آل عمران .

١٣ المسئلة .

١٤ الانعام .

فما يريد الله تبارك وتعالى من عباده جاء ذكره بوضوح في القرآن الكريم . أما كيف يتم تطبيق التعليمات القرآنية بصورة عملية في الحياة فهذا موجود في حياة الرسول وأصحابه . فيجب على الإنسان ان يقوم على الدين الثابت من ناحية العقيدة والعمل الذي مسح عن رسول الله . . أما اسقاط الآراء والأهواء على الدين فهذا أمر لا يقبل اسلامياً بلا خلاف بين المسلمين الفقهاء بدينهم . . وهو من الضلال والتفريق على سبل مختلفة . وثأنه أن يبعد الإنسان عن الصراط الإلهي الأساسي ، فالإنسان نفسه يعتقد أنه يمشی على هدى الدين بينما هو لا علاقه له بالدين الإلهي الأساسي .

الفرق بين الدين والمشریعة

ما الدين ؟

الدين هو التوحيد وجوهره عتراف المخلوق بحالقه ومالکه . وجعله محوراً لجميع اهتماماته فهو كل شيء بالنسبة له . يسلم له نفسه . ويخضع له هذا هو اصل الدين . فمن ملكه ملك كل شيء ومن اضاعه اضاع كل شيء . وعندما يضيع دين الإنسان الحقيقي فلا يبقى للإنسان أى شيء حتى ولو زعم بشكك تمبیلی أو بأسلوب جدلی أنه متدين . والأمر الذي جاء في القرآن الكريم باقامة الدين يتعلق بذلك الدين . وما جاء في بعض سور القرآن عن هدف إقامة الدين إنما یعنی في الأصل إقامة التوحيد أى أن يلجأ العبد الى الله وحده لجوءاً حقيقياً . وأن يعبد وحده لا يشرك به أحسداً فيعبده — بالتالى — حق عبادته ، فاذا قامت جماعة ما باثارة نزاع فقوى حول جزئيات العبادة أو المسائل المختلف عليها . أو راحت تقييم جبهة سياسية تخدم الجماعة الحاكمة حتى ولو كانت معادية للإسلام باسم إقامة الدين فهذا لا یعنی أبداً « إقامة الدين » بل هو — بالمعبرة القرآنية —

(اتباع لنسب التفرقة) وهو أمر ممنوع تماماً في الدين وإن اثاره الممارك حول الأمور الثانوية أو القضايا المختلف فيها إنما يقضى على وحدة الأمة فالأمة حين تتفرق إلى فرق مختلفة فهي تحرم من نصر الله الاجتماعى . وإقامة الدين إنما هو اسم للجهاد من أجل القضية (المتفق عليها) وهى قضية عبادة الله حق عبادته . وليس اثاره جدل ونزاع بين المسلمين في المسائل المختلف فيها .

فإذا كان المراد أصلاً من الدين التوحيد فسوف ينضم بداخله دوماً جميع المسائل المتفق عليها فى القرآن والسنة والتي لا تحتل وجود آراء أخرى .

وعلى سبيل المثال فإن قضايا (وجود الله) ووحدانيته . والدعوة إلى ربوبيته بين الناس ... مثل هذه الأمور ليس فيها اختلاف بين الأمة . لأن هذه العقائد ثابتة بحكم الآيات والأحاديث . وعلى العكس من هذا فإذا ما أخرجت لطلبه الصراع أبحاث مثل : هل له جسم أو لا ؟ أين عرشه ؟ هل الله قادر على خلق نظيره أم لا ؟ (١) وغيره من الأمور التى لا يمكن أن تتفق فيها الأمة كلها على رأى واحد . لأن جميع هذه الأمور أمور استنباطية والخوض فيها يجعل البعض يأخذ اتجاه ما طرقت لاستنباط شخص آخر بينما يأخذ البعض الآخر اتجاه آخر . وهكذا تظهر نتائج مختلفة . وتتجمع حول كل (نتيجة) جماعة من المؤمنين بها . لدرجة أن يتحول الدين الواحد إلى عدة أديان .

وهكذا يبدو لنا أن الجهاد في مجال المعتقدات (المتفق عليها) سابقة الذكر ، إنما هو وحده (الإقامة للدين) وعلى العكس من هذا فالقسم الثانى (أى المعتقدات الجدلية) سوف يوجد شقاقات وشروخاً

١- لم يسع المسجلين في تاريخهم ولم يبدو أنفسهم إلا الانشغال بمواد الحضارات الدارسة
الفاضلة التي تهمهم رسول الله عن الانشغال بها (المراجع) .

كثيرة في المعتقدات . وهو ما يسمى بالمصطلح القرآنى « التفريق في الدين » والنسب الأول مطلوب والشيء الثانى غير مطلوب .

هذا هو أسلوب معاملة تلك الأمور التى يقال لها عبادات . فمثلا :
الوضوء من أجل الصلاة مسألة متفق عليها . إلا أن الآراء المتعلقة بعدد أركان الوضوء وشروطه آراء كثيرة ، وبصرف النظر عن عدد السنن والمستحبات هناك اختلاف في الراى بين المفتهاء فيما يتعلق بفرائض الوضوء . معند الحنفية فرائض لوضوء أربعة وعند المالكية سبعة وعند الشافعية والحنابلة ستة (١) . فإذا ما جعل تحديد تعداد هذه المسائل المختف فيها موضوعا للبحث والمباحثة فلا يمكن أن تتفق الآراء فيما يتعلق بعدده . وهذا سيكون سببا في ظهور الاختلافات والفرقة . وسوف يقسم الامه انواحدة إلى عدة أمم ولهذا صدر الحكم في جعل مدار الدعوه قائما على الأمور المتفق عليها . وعدم جعل مدار الدعوة من الأمور المختلف عليها .

هذه المعاملة هى السياسة الإسلامية . فإذا قام شخص فدعا الله أن يصلح الحكام . والتقى بهم لقاء فردياً ونصحهم أن يعبدوا الله ويتعظوا بالآخرة . ثم أوضح جوانب السياسة الإسلامية عن طريق الكتابة والخطابة بأسلوب واضح مترن . فلن يكون هناك اى تفريق أو اشاعة للفتن بين رجال الأمة . وعلى العكس من ذلك ؛ إذا رفع بعض الناس راية الاحتجاجات والمطالبات وكونوا جبهة سياسية وقاموا بحركة تهدف إلى تنحية الحكام عن انسلطه . فإن النتيجة الواجبة هى أن تصبح الأمة جماعات متفرقة . إذ تنحاز فرقة إلى الحكام بينما هناك فرق أخرى ستعمل على تنحية الحكام عن السلطة ؛ وهكذا تنقسم الأمة إلى جبهتين تحارب إحداهما الأخرى . وهكذا يظهر التفريق في الدين باسم إقامة الدين .

(١) راجع الفقه على المذاهب الاربعة .

أما فيما يتعلق بآداب الموضوع وقواعده فهذه مسألة استنباطية ، وهذا هو السبب في وجود آراء مختلفة لدى أهل العلم وذلك بالنسبة لتحديداتها . وهذه الحالة هي حالة الرسالة السياسية للأمة الإسلامية . وهي كلها أيضاً معاملة استنباطية . لأنه لا يوجد في القرآن والحديث نص يحدد حراحة نوعية المومة السياسية وكانت النتيجة ظهور عدة آراء متعددة لدى أهل العلم في هذا الباب . وترى جماعة من جماعات وقتنا الحاضر — بإصرار — أن الهدف الأساسي للأمة المسلمة هو لجهاد لتأسيس حكومة إسلامية . بينما يرى آخرون أن الحكومة أمر وعد لله المسلمين به أي أنها منحة من عند الله وليست هدفاً يبذل من أجله الكفاح والجهاد (١) . وترى جماعة ثالثة أن أساس العمل هو إصلاح المجتمع وليس إصلاح الحكومة . فإذا ما أصلح المجتمع ظهرت تلقائياً الحكومة الصالحة . وبالإضافة إلى هذه الاختلافات النظرية يوجد أسلوب يختم أموراً عملية حساسة جداً بالنسبة للحكومة وذلك حين تتم محاولة تنحية جماعة تسيطر على الحكم وسلبها لحكم . فهي بالضرورة ستستخدم قوتها ضد معارضيها السياسيين . ونتيجة لذلك سيحدث سفك للدماء بين المسلمين . وتنتج عن محاولة « إقامة الدين » « تفريق في الدين » وهكذا تكون نتيجة إقامة الدين (لتفريق في الدين) وهناك أمر يتعلق بالشريعة أيضاً إذ يحتفل وجود أكثر من وجهة نظر واحدة تتعلق بأمر واحد من أمور الشريعة . وتكون نتيجة محاولة تجميع الناس تحت راية واحدة ظهور العديد من الرايات : ولهذا صدر الحكم دائماً بالأن جعل الأمور الاختلافية أساساً للحركة الإسلامية بل يجب أن تقوم حركتنا على أساس الأمور المتفق عليها فقط .

(١) يقصد المؤلف أن الله سبحانه وتعالى يهلك المفسدين مؤلفات الناس والخطاة في الأرض ويكونوا في مستوى الخلافة (المراجع) .

ونتيجة لهذه الأسباب تحول نظام الخلافة إلى نظام مندى في المصدر الأول . وظلت على هذا الحال لمدة ألف عام إلا أن مسلمى الأمة الصالحين لم يخرجوا على هذا النظام . غفد قاموا بتقديم نماذج فردية للحكام إلا أنهم لم يقوموا بحركة انقلاب لتنتحيتهم عن السلطة . فهذا فقط هو دين الحركات المنظمة في العصر الحاضر . إذ ظير بين المسلمين بعض الناس يتقاون بأن الثورة السياسية هي أصل مهمة الأمة الإسلامية . . وكانت النتيجة أن أصبح المسلمون في كل بلد مسلم منقسمين إلى جبهتين : جبهة الحكام وجبهة المعارضين لثوار . وتدور رعى الحرب السياسية بطريقة لا نهائية بين مجموعتى المسلمين . ولا تقدم لهم عن هديه سوى هلاك البشر على المستوى الإسلامى العام ؛ وكل ما يحدث - الأسف - يحدث باسم « إقامة الدين » .

وفيما يتعلق بنوعيه المهمة السياسية توجد آراء عدة بين علماء الأمة : وهذا دنيل على أن قضية الحركات السياسية هي قضية فرعية « للسبل المتفرقة » وليست مسألة فرعية (الدين) ولهذا فيجئ للمصلح أن يقوم باصلاح حال الحكام المسلمين بالنصيحة إذا ما شاهد فيهم اعوجاجاً ؛ إلا أن لصدام السياسى مع الحكام باسم إقامة الدين يعنى الانحراف عن كتاب الله وهو اتباع للسبل المتفرقة وليس إقامة الدين في حقيقة الأمر .

وليس معنى هذا التقسيم أن المطلوب من الدين هو الكليات فقط وأن الجزئيات ليست مطلوبة فالهدف فقط هو ملاحظة الفرق بين المطلوب الحقيقى والمطلوب الاضافى . واتباع أسلوب التسامح في الأجزاء الاضافية مع التشديد على الأجزاء الحقيقية . ويمكن أن نفهم هذا من خلال مثال محدد . فهناك قضية تتعلق بالطعام . ما هو الفرق بين الحرام والحلال . فالؤمن يجعل من الحلال غذاء له ولا يدخل إلى حلقه

أى طعام حرام . والغضبية الثانية هى مسألة آداب الطعام . فمثلاً هل يتناول الطعام بيده أو بالمعلقة ؟ هل يتناول الطعام جالساً على الأرض أو يتناوله جالساً على الكرسي إلى النضدة ؟ هل يتناول الطعام منتعلاً حذاءه أو خالفاً يديه ؟ إلى غير ذلك . فالمسألة الأولى تدخل فى كليات الدين فنلتمنى باسم الله يوضح بطريقة محددة ما هو الحائل وما هو الحرام بالنسبة للعبد . ولكن بالنسبة للأمر الثانى فلا يوجد بالنسبة له أى تحديدات فهناك أكثر من نموذج فى سيرة النبى ﷺ وفى حياة الصحابة الكرام . ففى مثل هذه الحالة إذا ما قام رجل بالتشدد فى مسألة لحلال والحرام المنصوص عليها : وجعل منها هدفاً يركز عليه . فلن تنقسم الأمة لأن التأكيد والتشدد هنا إنما يكون على نفس الأمور التى يتفق عليها علماء الأمة ولا توجد فيها أى خلاف فيما يتعلق بالأراء المختلفة . وعلى انعكس من هذا لو تم التشديد على قضايا آداب انضمام فلن يكون هناك أى اتحاد فى الرأى على أى مسلك تنتهجه الأمة كلها . وعلى سبيل المثل سيقول البعض أن هذه ليست مسألة إعدام شرعية لأمر جائز بل هى مسألة يمكن فيها اتباع الأمر السهل . لأن الحديث يقول : « اخلعوا نعالكم فانها أروح لأقدامكم » ومن هنا فالمنهج الصحيح هو « كلوا من الدنيايات واعملوا صالحاً » (١) وعليه يتم التشديد والتأكيد ولكن يجب 'تباع التسامح فى الأشياء المتعلقة بنوعية آداب الطعام .

وحركة « أهل الحديث » هى فى شكلها الأصلى والأساسى كانت خاصة بهذا الفهم المتمسك بالجزئيات . ومع أنها لم تقدر على البقاء على هذا المسلك . إلا أنها كانت — على الأقل — هى الحركة التى انتشرت على مستوى العامة بهذا الفهم !!

الدين الكامل كيف يتحقق ؟

إن الصراع الذى يدور بين مختلف البلدان بين حملى لواء الثورة الإسلامية الشاملة « وبين « حملة الدين المرحلى » هو فى الحقيقة قائم على أساس لفهم الخاطى « للدين الشامل » فالناس يرون إن الإسلام دين كامل على أساس القوانين الحضارية . ومن هنا فإن إقامة الدين تستلزم إقامته كنظام حضارى كامل ؛ فإذا كان معنى الدين الشامل هو هذا ، فإنه يعنى إن دين إبراهيم عليه السلام كن ديناً ناقصاً ، فمن المعروف انه لم يقدم جميع القوانين والضوابط الحضارية ؛ وهكذا الأمر بالنسبة لمعظم الأنبياء بينما نص القرآن الكريم صراحة بقوله :

« شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (١)

فالأصل إن الدين إنما جعل . ليكون الإنسان موحداً بجميع المعانى ؛ وكمال الدين هو فى الأصل كمال التوحيد . فالإنسان بقدر ما يعبد ربه بقدر ما يجعل من دينه ديناً كاملاً ؛ ويقدر ما ينسى ربه بقدر ما يكون دينه ديناً ناقصاً ؛ ومهما كتبت من مواد قانونية فلن تستكمل هذه المواد معنى « الدين » وعلى سبيل المثال فإذا أدرجت جميع الأحكام المتعلقة بعالم القرن السابع الميلادى فى القرآن الكريم . فستظل هناك أمور قانونية كثيرة لم تستكمل مثل القوانين البحرية والقوانين الخاصة بالفضاء وغيرها ، وذلك لأن هذه القضايا لم يكن لها وجود فى ذلك الزمان .

والحقيقة ان الدين الكامل إن اُحد على حد ينسب إلى الإسلام
لا يبدو أيضاً ديناً كاملاً .

الأمير همداني (نموذج للمسلم المثالي)

هناك مثال على المنهج الإسلامي سابق الذكر . نجده في تاريخ
خسرو . وخصمير منطقة مسهورة بجمال طبيعتها ، إلا أن فيها ما هو
اجمل واعظم من جمال ضيئتها وهو نموذج المنهج الإسلامي الذي
نجده في حياة الأمير سيد علي همداني (١٣١٤ - ١٣٨٤ م) وقد
اشتهر في كشمير باسم « أمير كبير » وقد ترك بسيرته نموذجاً قابلاً
للاحتذاء قل أن نجد له مثلاً في القرون الحالية . خصمير هي كالجنة
بضيئتها الخلابة وهي (بأمر كبير) قدمت منهاجاً للدعوة الإسلامية .
وهذا المنهج اعظم خيراً من جناتها . وقد قال محمد اقبال (١٨٧٧ -
١٩٣٨ م) عن الأمير همداني :

« إن لي يده منهج بناء الأمم » .

وهذا الرأي صحيح مائة بالمائة . فكشمير المسلمة اليرم انما هي
سيرة جهاده . الذي لم يتبع فيه أسلوب « السيف والرمح » أو
« انصادم مع الزمان » بل أتبع فيه أسلوب الهداية المحبة لدى معظم
الشداء المسلمين في الوقت الحاضر . لقد حقق الأمير همداني النجاح
والانحلاص بعد أن ترك « السيف والرمح » وكان اعظم درس قدمه
في حياته هو قوله : « ان اردتم بقاء الاسلام حياً فادنوا إلى الأبد
فكرة التصارع والتناحر . وتجنبوا تماماً إثارة الصراعات المذهبية
والسياسية : وبعدها ستنالون نصر الله وتروفيقه . وسيحقق للإسلام
العزة والروعة ويعز الله المسلمين بإسلامهم » .

كن (الأمير سيد علي همداني) - من سكان ايران - معاصراً
لتيمورلنك (١٣٣٥ - ١٤٠٥ م) وقد غضب عليه شاء تيمور لسبب

ما . وأصدر حجما بنفيه من إيران : ولم يكن إمام الأمير همدانى من سبيل إلا إعلان الجهاد ضد تيمورلنك والعمل على اقامه حكومة صالحة فى إيران . حتى ولو كانت النتيجة الاستشهاد . ولكنه (امير كبير) . أتبعه - فى أسلوبه - عن التصادم السياسى . بل أخذ رفاقه الأربعين وخرج من وطنه (همدان) . ووصل بهذه القافلة إلى كشمير سنة ٧٨١ هـ مارا بافغانستان . وكان قد زار كشمير للبيشاهة من قبل فى سنة ٧٦٢ هـ .

ووصل إلى كشمير فواتته فرصة لإعلان حركة سياسية هناغضة للشاه تيمور ، وكان هناك أناس فى زمان تيمور يكرهونه لأسباب سياسية . كان يمكن للأمير كبير أن يقيم معهم تحالفاً للقضاء على السلطة التيمورية . إلا أنه تجنب لأقصى حد أى نوع من هذا العمل : وهكذا فتح الطريق أمامه ليمتلك زمام القيادة . وكانت هناك قضية تتعلق بالحقوق الاقتصادية والاجتماعية لمسلمى ذلك الوقت . ومع أن أمير كشمير كان من أسرة مسلمة إلا أن مسلمى كشمير كانوا يمثلون أقلية فقيرة مستضعفة حتى قيل أنهم كانوا يضطرون إلى دفع نذور المعابد الهندوكية ، وكان يمكن للأمير همدانى أن يقود حركة الزعامة التى تهدف إلى المطالبة بحقوقهم . ويتمكن من أن يصبح قائداً للمسلمين إلا أنه لم يهتم بهذا النوع من السياسة الطائفية !!

وهكذا اتجه (همدانى) إلى الطريق الذى ارتضاه وهو أن يبلغ رسالته باسم « الإنسانية » وأن يقدم عظاته وخطبه بطريقة سلمية لجميع فرق كشمير المختلفة ، وتمكن بسرعة كبيرة من أن ينال مكانة محبة لدى الفريقين المتصارعين فى كشمير ، لأن الفريقين أعجبوا به ، فقد راح يعمل على ايجاد وحدة بين الفريقين دون إثارة مسألة الحق والباطل ، وبطريقة لا يشعر فيها أى من الفريقين أنه خاضع لضغط ما .

وجدير بنا أن نقول في مجال المقارنة بين أسلوب همداني والأسلوب الثوري السياسي - إن النوع الثوري من الحركات مهما بدأ ناجحاً على مستوى الاجتماعات والخطب (والتعارات) فإنه قد أثبت بصورة عملية وعلى الدوام أنه أسلوب فاشل . بالإضافة إلى أن هذا الأسلوب ليست له علاقة مباشرة بالدعوة الإسلامية . وهو أسلوب من العمل رغم ما يبدو فيه من جانب ظاهر طيب إلا أنه يركز على قضايا الدنيا فقط بينما هدف الدعوة الإسلامية هو توجيه الناس إلى قضايا الآخرة .

وبرنامج « همداني » لم يكن قائماً على عملية رد فعل مضاد للشاه تيمور أو رد فعل متأثر بالظروف الوقتية لمسلمي كشمير الذين كان يحكمهم في ذلك الوقت حاكم مسلم هو (سلطان قطب الدين) وكان يؤمن بالعديد من الاعتقادات الفاسدة ويرتكب الكثير من الأعمال السيئة . لكن همداني أرسل إلى السلطان رسائل عديدة مليئة بالنصح والارشاد واهتمت بضرورة اصلاح الأحوال . وهكذا لم يؤسس همداني حركة ثورية تهدف إلى عزل السلطان عن إنحكم ووضع حاكم صالح مكانه ، بل ارتفع « همداني » فوق هذه العوامل واقام برنامجه الاصلاحى على أساس فكر ثابت . ولم يكن لهذا البرنامج ميثاق (!!)

فقد كان برنامجه برنامجاً عملياً . لقد انتشر هو ومن معه من اخوانه في نواحي منطقة كشمير وبدأوا يبلغون الإسلام لأهالى هذه المناطق، تعلموا لغة الكشميريين وتأقلموا مع ظروف المنطقة . وتحملوا المتاعب الناتجة عن استيطان بلد غير بلدهم .

وهكذا عاش (أمير كبير) حياة الصبر والتحمل . وقام بحركته الاصلاحية في صمت وهدوء .

الإسلام في كشمير

مع أن دخول الإسلام في كشمير بدأ على يد محمد بن القاسم الثقفي (٦٦ - ٩٦ هـ) فإن انتشار الإسلام بدأ بصورة واضحة في كشمير أيام (سيد بلبل شاه قلندر التركستاني) ، وقبل سبعمائة سنة كانت كشمير إمارة خاضعة لأمير بوذى يدعى (رنيجن شاه) وقد أسلم هذا الأمير البوذى على يد سيد بلبل شاه ، ولما كان الناس - في ذلك الزمان (١) - على دين ملوكهم ، أسلم عدد من الكشميريين ، وكان بلبل شاه تابعا للمذهب الحنفي . وهكذا اتبع المسلمون الكشميريون آنذاك المذهب الحنفي في عبادتهم . وحين قدم (الأمير سيد على همداني) إلى كشمير وبدأ الناس يسلمون على يديه ظهرت مسألة خلافة تتمثل في أي المذاهب يسلكون في عبادتهم ، فقد كان (همداني) نفسه شافعي المذهب بينما كان مسلمو كشمير على مذهب أبي حنيفة !! فإذا ما قام (أمير كبير) بتقنين هؤلاء المسلمين الجدد المذهب الفقهي الشافعي فالنتيجة الحتمية هي انقسام المسلمين إلى جماعتين من حيث المذهب : الجماعة التي أسست على يده ثم بقية مسلمي كشمير ، فقد كان الخلاف بين الحنفية والشافعية يتعدى انفصال مدارسهما ومسجدهن إلى أصل عملية التبليغ . في محاولة كل منهما إثبات صحة وأفضلية مذهبه الفقهي . فإذا ما أصبح المسلمون في كشمير جماعتين منفصلتين . بدأت كل جماعة تتصارع مع الأخرى فتضيق فيما بينهم تلك القوة التي كان يجب أن تبذل في سبيل نشر كلمة « الحق » وتمضي الأجيال ويستمر الاختلاف الذي لا ينتهي أبداً .

(١) ولزوالوا (المراجع) .

وهذا قام (الأمير سيد غنى همداني) ببنيغ أسس الدين ففض . ولم يتر أبدا أى بحث يتعلق بالمذاهب الفقهية . ولقد احتاط حتى إنه أخفى عن متبعيه مذهبه الشافعي وكان يصلى مع المسلمين جميعا بالطريقة الحنفية . وكان يمدح زملاءه بأداء العبادات طيفا للمذهب الحنفي . وكانت النتيجة أنه وجد فرصا مناسبة ليؤدي — دون نزاعات جانبية — رسالته في كشمير : ففاز بتعاون جميع الطبقات . وظل في أمن . بعيدا عن الدخول في متاهات القضايا الفرعية . وقد نجح في نشاطه في سبيل الدعوة الإسلامية حتى أصبحت كشمير منطقة تضم أغلبية مسلمة حتى الآن . ولو قام (أمير كبير) باثارة جدل حول المذهب الحنفي والمذهب الشافعي لما حالفه النجاح في تلك المنطقة . ولو حقق بعض النجاح فسيكون على حساب انقسام مسلمي كشمير إلى فريقين متصارعين .

وليس معنى هذا ان الناس الذين يعضون على هذا الطريق لا ينشأ بينهم اختلاف . وأحوال « أمير كبير » نفسه تدل على هذا . فحين كان في الثالثة والسبعين قدم له بعض الأشرار من منطقة (بكيلي) (بكشمير) السب فكانت وفاته إلا أن هذا النوع من الاختلاف انما يكون نتيجة لأسباب شخصية . تهدف إلى الاضرار الشخصي بالداعية فقط : بينما إنشاء فرقة دينية عن طريق تحويل مسألة غير دينية إلى مسألة دينية يعد جرمًا كبيراً . اذ يسلب الجماعة المسلحة جميع النعم التي قدرها الله لها كجماعة تحمل كتابه وتستمسك بصراطه المستقيم .

وحياة (أمير كبير) إنما هي مثال عملي ناجح تماما لاسلوب انعمل الاسلامي . فالشيء الذي ركز عليه في كتابه ونشاطه من أجل الدعوة كان قضية (التوحيد والآخرة) . ولم يثر على الإطلاق أية

قضايا أخرى كالفضايا السياسية أو الاقتصادية أو الفقهية فقد كان يركز أساساً على أصل الدين ، وليس على فروع الدين • وليس معنى هذا أن السياسة والاقتصاد عنده أمور خارجة عن الدين ، أو أنه كان يعدّها أموراً غير ضرورية من ناحية الآداب والمناسك • فقد كان يعرف أهمية كل منها ، واتباع كل شيء اتباعاً عملياً إلا أن الشيء الذى ركز عليه كأساس لعمله هو الدين المتفق عليه وليس « السبل المتفرقة » !!

كان « أمير كبير » يصلى مراعيًا جميع شروط الأحكام الفقهية ، ولم يسع أبداً وراء الاختلافات الفقهية أو اثبات خطأ مذهب ما وترجيح مذهب آخر • وقد اتخذ أيضاً منهجاً اقتصادياً ، والا فكيف كان يمكنه ورفاقه أن يعيشوا ، ولكنه لم يجعل حل القضايا الاقتصادية أو العمل على وحدة الأمة كلها قضية يقيم عليها أساس حركته ، وهكذا ورغم أنه لم يرفع شعار السياسة إلا أنه كان يتبع سياسة عميقة وراسخة؛ ولو لم يتبع هذا الأسلوب لما كانت لكشمير اليوم هذه المكانة ، فهى الولاية الوحيدة بالهند التى بها وزارة مسلمة ، ولا مجال لقيام أية وزارة من أديان أخرى • وهذه البنية السياسية التى تنتمى بها كشمير إنما هى نتيجة لدعوة « أمير كبير » •

ومع أنه لم يمض حياته كلها على أى برنامج سياسى بالمعنى المعروف • ولم يعترف به أحد « كقائد سياسى » ومع أنه لم يسع وراء شيء كهذا : وقام فقط بالاستمسك بالحقائق المطلقة • فإن كل الأشياء قد سعت إليه بعد ذلك ، ونال كل ما أراد أن يحققه من نشر دين الحق بين أهل منطقة كشمير !!

والخلاصة أن أهمية الدين تكمن أساساً فى نجات الإنسان كلية من الشرك ، وتركيز جل اهتمامه على الله الواحد فقط : وهكذا تدين له الحياة بأكمائها • ومن الضرورى لنا أن نؤكد قبل كل شيء على هذا

الأمر . وأن نجعل من هذا الأمر أساسا للدعوة والتبليغ . وبعدها يلزم اتباع طريقة ما فيما يتعلق بالمستلزمات الدينية المطلوبة في المعاملات التحصيلية . تتخابق مع الظروف . وبالتالي لا يجوز أن نتخذ من تلك الأشياء أساسا لحركة الدعوة . فالإنسان حين يتخذ من مسألة ما أساسا لحركة الدعوة فهو يجعل للمسألة الفرعية نفس مكانة المسألة الأساسية . ومثل هذا النوع من العمل من شأنه أن يحسب نظام للدين بالاضطراب . ويدخل عليه الفوضى — فإذا أعجبك مذهب فقهي خاص أو رأي ما فلتتخذ مذهباً أو رأياً لك . ولكن لا يجوز أن تقيم على أساسه مسجداً أو مدرسة . وإذا كنت تحترم طريقة ما فليكن لك م تضاء ، ولكن لا تجعلها أساساً أو ميزاناً إسلامياً تقيس به الآخرين . فإذا أقام حاكم مسلم نظاماً على أساس الملكية أو الجمهورية . ورأيت أنت أن النظام الصحيح هو أي نظام آخر فلا تجعل من تلك المسألة محل نزاع سياسي في البلاد . وإذا كنت تُدرك بحميره . ورأيت حقوق أمنك الاقتصادية والاجتماعية قد سلبت فغرس لدى أفراد الأمة العاطفة التي تمكنهم من القيام بالدفاع عن حقوقهم بقوة وأمانة وحل قضيتهم . ولكن لا تشر فيخانات الاحتجاجات والمطالبات ضد من تفترض أنت أنهم ظلمة . فمثل هذا النوع من السلوك إنما هو ابتعاد عن سبيل الدين الواحد . وهو يسعى وراء السبل المتفرقة . ومثل هذه المحاولات مهما كانت تحمل من حسن النوايا فهي تنتشر — في الواقع — الفساد فقط ، إذ هي لا تبعد الإنسان عن عبادة الله الحقيقية فقط ، بل تصبح سبباً في تمزيق الأمة وتفريق الجماعات : وانه لا يجب بث الفرقة بين أهل أمته ، ولا يمكن لمن نالوا نصر الله — إن فعلوا هذا — أن ينالوه مرة ثانية ، كما أن الفرقة لا يمكن أن تعيد الأمة وحدتها السابقة ؟

(١) هذه المداورة الغت في الإصاح للسوى الجامعة اهل الحديث ، حمول وكشم

السيرة النبوية المنهج الأعلى للحركة الإسلامية

إن كتب السيرة التي تناولت حياة النبي ﷺ هي من حيث المجموع تتحدث عن نبي الاسلام كشخصية من الشخصيات المعجزة — فهذه الشخصية — كما تصورنا معظم هذه الكتب قامت بأساليب فوق الطبيعة انبثريه للسيطرة على العرب جميعا .

وكتب السيرة تتحدث عن قصص الكرامات والمعجزات التي لا نجد لها مثيلا في التاريخ الانساني وقد بولغ في هذا الأمر لدرجة أن الناس اضافوا خيالات تلك الأحداث التي لا توجد فيه جواب نتسم بالاعجاز . وعلى سبيل المثال فإن ما جاء في امر هجرة صهيب بن سنان الزومي رضى الله عنه حين تحرّك من مكة فاعترضه بعض شباب قريش ، فقال صهيب : اذا ما أعطيتمكم مالى وعتادى تركنومنى . فقالوا له : فأعطاهم صهيب بعض ما كان عنده من ذهب ووصل إلى المدينة سالما . وتنسب هذه الرواية إلى انبيهي اذ يقول : « فلما رآنى (أى انرسول) قال : يا أبا يحيى : ربح البيع فقلت يا رسول الله من سبقنى اليك أحد . وما أخبرك إلا جبريل عليه السلام » .

إلا أن (ابن مردويه) (وابن سعد) ينقلان نفس الواقعة هكذا : « فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال : ربح صهيب ، ربح صهيب » (مما يوحى بأن النبي كان قد بلغته القصة !!)
فالحقيقة أن حياة النبي ﷺ بأكملها كانت في الواقع حياة انسانية بسيطة ، ولهذا فهو مثال يحتذى للمسلمين ، وذهود رافع ننتهج نهجه ،

فهو إنسان يمشى على الخُرَيْق . ويتعثر أيضا كثيره من عامة الناس .
ولهذا كان الناس يتعجبون : « فانك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش
كما نلتسمه » .
(البداية والنهاية)

والحقيقة ان عظمة حياة انبى ﷺ تتمثل في الجنب الانسنى
لهذه الحياة وليس في قحص إعجازه المليئة بالأسرار وتوفيقه كامن في
نصر الله له . ومن هذا الجنب فهو بلا شك سُخْصِيَة معجزة • ومن هنا
فإن ظهور هذه المعجزة الالهية انما كان على مستوى « التبشير بالرسول »
وليس على مستوى الكرامات الشخصية •

ونتدلل بق صورة رسول الله في القرآن مع صورته الحقيقية على
ظهر هذه الأرض •

بداية الدعوة

حين نزل الوحي على رسول الله ﷺ وعو في غار حراء • وكان
في الأربعين من عمره : ترك لديه رد فعل قوى ، وهو رد فعل كان يمكن
ان يحدث لأى « انسان » عادى . فقد عاد إلى بيته خائفا مرتعدا .
حيث تقيم زوجته خديجة . وكنت هى نفسها بحرف النظر عن حادثة
الوحي في وضع يمكنها من أن تقيم رأيا محيدا . فقالت للنبي ﷺ :
« كلا والله ما يخزيك الله أبدا ، انك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب
المعدم وتترى الخيف وتعين على نوائب الحق »
(متفق عليه عن عائشة) •

وفيما يتعلق بحركة الدعوة ، فقد كان ما حدث للنبي شيئا طبيعيا ،
وتعرض لما يتعرض له أى داعية في بيئة جديدة ، فقد استلزمات
الظروف أن يبدأ دعوته سرا •

« ذكر ابن اسحاق أن علي بن أبي طالب جاءهما وهما يحلبان . فقال علي : يا محمد ما هذا ؟ . قال : دين الله الذي اصطفى لنفسه ، وبعث به رسله فادعوك إلى الله وحده لا شريك له . وإلى عبادته وإن تكفر باللات والعزى فقال علي : هذا امر لم اسمع به قبل اليوم فليست بقاض أمراً حتى أحدث به آبا طالب . فكره رسول الله ﷺ أن يفشى عليه سره قبل أن يستعلن أمره . فقال له : يا علي إذا لم تسلم فاكتم . فمكث على تلك الليلة ثم إن الله أوقع في قلب علي الاسلام . فأصبح غاديا إلى رسول الله ﷺ حتى جاءه فقال : ما عرضت علي يا محمد ؟ فقال له . رسول الله ﷺ : تشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له وتكفر باللات والعزى وتبرأ من الأنداد . ففعل علي واسلم . ومكث يأتيه على خوف من أبي طالب . وتكتم على إسلامه ولم يظهره (١) .

وحين عاد المسلمون الأوائد من الأوس والخزرج إلى يثرب كانت هذه ايض . هي خريفتهم . في النبيام بالعودة سرا . (فخرجوا إلى غومهم يدعونهم سرا — الخبراسي) •

لقد اهتم النبي ﷺ طوال حياته اهتماما سديدا بالألا يتخذ أى اجراء قبل أن تنهيا له اقوة انلازمه لاتخاذ هذا الاجراء . تقول عائشه رضى الله عنها : إنه تجمع لدى النبي ﷺ ٣٨ صحابيا . غطلب أبو بكر رضى الله عنه من النبي أن « يظهر » وأصر على ذلك . (أى أن يأتي أمام الناس ويبلغهم دعوته جهراً) فما كان من النبي إلا أن قال : « يا أب بكر إننا قليل » وهكذا حين اسلم عمر في السنة السادسة للبعثة قال للنبي : يا رسول الله لم نخفى ديننا ونحن على الحق ؟ فدين الآخرين ظاهر بينما هم على باطل ؟ • فأجابه النبي : « يا عمر إننا

قليل « - وظل هذا هو أسلوب النبي ﷺ حتى خانت انهجره . ونظمت القوة الاسلامية . وتركزت في مكان واحد . وقدمت قريش بجيشها لاستئصال هذه القوة . وهذا صدر الاذن بالمواجهة . وفي غزوة بدر حين بدا اصحاب الرسول ﷺ مراجعته اعدائهم قال لهم النبي ﷺ . « هذا يوم له ما بعده . وكان وقت اتخاذ الاجراءات العملية قد حان . وذلك حين أصبح المسمون في وضع يسمحهم من تسخير مستقبل جديد للدين للحنيف عن طريق اتباع مدء الاجراءات العملية التي بدأوها آنذاك . وقبل ذلك لم يسمح لهم باتخاذ مثل هذه الاجراءات العملية .

ونحن نعرف من الروايات ان النبي ﷺ حين كان يحلف بيمينه ما تتعلق بالدعوة العامة . كان يشعر بضخامة هذا العمل وعظمته . فكان ينصرف إليه انصرافاً كاملاً لئلا يراد ان يتكفل به أهل بيته من الناحية الاقتصادية حتى يتمكن من أن يدير الأمور بخارقه طيبة . فجمع في بيته أسرة عبد المطلب وكانت تضم في ذلك الوقت أربعين شخصاً تقريباً وبقياً لأحدى الروايات تجمع ثلاثون شخصاً . فأعلن أمامهم أن الله بعثه إليهم وطلب منهم أن يتعاونوا معه حتى يتمكن من أداء هذه المهمة . قال :

« يا بني عبد المطلب ، إني بعثت إليكم خاصة . وإلى الناس عامة فأياكم يبايعني على أن يكون أخى وصاحبي : ووارثي . ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في أهلي » (أخرجه أحمد عن عائشة)

لم تكن عائلته على استعداد لتحمل مسؤوليته الاقتصادية . كان عمه العباس بن عبد المطلب من الناحية الاقتصادية في وضع يمكنه من تحمل المسؤولية ، إلا أنه سكت أيضاً : « فسكت العباس خشية أن يحيط ذلك بماله » ، إلا أن الله تعالى نصره ، فقد أعانه اقتصادياً

في حياته المكية أولا بمال زوجته خديجة — رضى الله عنها — وبعد ذلك بأبى بكر الصديق .

لقد كان النبى حريصا حرسا شديدا في تبليغه دعوة الحق للناس :
فينقل ابن جرير عن عبد الله بن عباس أن بعض كبار أهل مكة تجمعوا
حول الكعبة بعد غروب الشمس وطلبوا الحديث مع رسول الله فبعثوا
إليه — كما تقول الرواية — أن اشرف قومك قد اجتمعوا لك ليكلموك،
ثم تقول الرواية :

« فجاءهم رسول الله ﷺ سريعا وهو يظن أنه قد بدا لهم فى
أمره بدء وكان عليهم حريصا يحب رشدهم ويعز عليه عنتهم » .
(ابن جرير عن ابن عباس)

إلا أن الذين دعوه كانوا قد فعلوا ذلك رغبة فى الجدل فقط
لا للاقتناع . وهكذا عاد رسول الله ﷺ بعد حوار ضويل : (ثم انصرف
رسول الله ﷺ إلى أهله حزينا آسفا لما فاتته مما كان يطمع به من قومه
حين دعوه ولما رأى من مباعدهم إياه) .

(تهذيب سيرة ابن هشام مجلد ١ ص ٦٨)

وهكذا حين تجمع الناس حول أبى طالب فى مرض وفاته فقالوا :
لقد كان لنا مع ابن أخينا قبل موتك أمراً (فخذلنا منه وخذله منا ،
ليكيف عنا ولنكيف عنه : فدعاه أبو طالب وسأله : ما تريد من القوم ؟
فقال : « نقولون لا إله الا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه » الا أن
القوم لم يكونوا على استعداد للإيمان بما جاء به ، وبعد أن انصرف
القوم قال أبو طالب (طبقا لرواية ابن اسحاق) : (والله يا ابن أخى

ما رأيته سألتهم شططا) . (فطمع رسول الله ﷺ فيه) فجعل يقول له : (أى عم ! فأنت فقلها استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة) .
(البدايه وانهايه)

لقد كان ﷺ يتحضر نورة المدعوين ومجايبهم إلى آخر حد ، بعد فتح مكة حضرت هند بنت عتبة بن ربيعة لتبائع رسول الله . وكما هو متبع في مثل هذا الموقف . وحين كان النبي ﷺ يقرئها كلمات البيعة قال : « لا تقتلوا أولادكم . فقامت نه هند : أو هل تركت لنا أولادا نقتلهم » (ابن كثير)

إلا ان هذه الجملة السخرة لم تترك لدى النبي أى أثر . وأخذ منها البيعة منشرجا مسرورا .

لقد اتجه رسول الله ﷺ بكل قوته العقلية والجسدية : وكرس كل وقته في سبيل الدعوة . بل ضحى بكل ما يملك من أجلها إذ قبل النبوة كان الرسول قد تزوج من سيدة غنية نال بزواجها دالا كثيرا .

ومن وقائع الدور الملكى الأول أن قسادة قريش أرسلوا عتبة بن ربيعة ممثلا عنهم الى رسول الله . وصل عتبة إلى رسول الله فأصابه الخوف وملاؤه الرهبة . وعلاه الرعب ولم يخرج إلى أهله . واحتبس عنهم . فقال أبو جهل :

« والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا حبا إلى محمد وأعجبه طعامه وما ذلك إلا من حاجة أصابته ... انطلقوا بنا اليه . فأثوه . فقال أبو جهل : والله يا عتبة ما جئنا إلا أنك صبوت إلى محمد وأعجبك أمره فإن كان بك حاجة جئنا لك من أموالنا ما يغيثك عن طعام محمد : فغضب واقسم بالله لا يكلم محمدا أبدا » .

(البدايه والنهاية مجلد ٣)

وهكذا يحكى عن عبد الله بن عباس أن الوليد بن المغيرة جاء إليه فأسمعه رسول الله ﷺ القرآن فتسأثر بالقرآن كثيرا ، وعرف أبو جهل أن الوليد بن المغيرة تأثر بكلام الرسول ، فقال له : « ان كنت تريد أن يجمع الناس لك مالا جمعوا لك لأن بك رغبة في ما محمد » .

وهكذا كانت حالة النبي المالية جيدة في بداية عهد النبوة ... ولكن في السنة الثالثة عشرة حين هاجر إلى المدينة لم يبق معه شيء حتى انه اقترض من أبي بكر ليعد متاع السفر .

لغة الدعوة :

مع أن النقاط الأساسية للدعوة الإسلامية محددة على أساس منطقي ، إذ أنها تتسم بالتماثل الشديد ، فإن كلمات الدعوة حين تخرج من لسان الداعي فهي تضم شيئا آخر ، وهي ذات الداعي نفسه ، وتعد هذه إضافة تسجل للمضمون المحدد للدعوة وتجعله عملا خالدا ، ورغم كونه عملا واحدا إلا أنه يبدو بأشكال متنوعة لا يمكن أن يوضع لها فهرس محدد ، ففي صدر الداعي قلب يرتجف من خشية الله وهو يتمنى بكل إخلاص أن يتقبل المدعو الإيمان ، ويحمل الداعي بداخله عاطفة تجعله يود لو أستطاع جذب عباد الله إلى دين الله لينال بذلك رضا الله . هذه الأمور لا تضيف تأثيراً خاصاً فقط إلى طبيعة الكلمات التي تنطلق من لسان الداعي بل تمنح الدعوة تنوعاً كبيراً من الناحية الشكلية لأن عاطفة الشوق التي تؤثر في المدعو تجبر الداعية على أن يراعى عقلية كل شخص مراعاة تامة وهو يعرض عليه دعوته .

ويتضح هذا الأمر بجلاء في حياة النبي ﷺ ، لقد انشغل بتبليغ الدعوة ليل نهار ، إلا أن أسلوبه لم يكن ممتثلاً في ترديد عدة ألفاظ محددة أمام كل شخص بل كان يعرض حديثه مراعيًا نوعية المخاطب.

غفى العصر المكي الأول قام بدعوة أبى سفيان وزوجته هند ،
وطبقا لرواية ابن عساکر . قال :

« يا أبا سفيان بن حرب ويا هند بنت عتبة والله لتموتن ثم
لتبعن ثم ليدخلن المحسن الجنة والمسيء النار » .

وينقل ابن خزيمة أن الرسول ﷺ خاطب سيخا يدعى حصين
فقال : « يا حصين ! كم تعبد دن اله ؟ قال : سبعة في الأرض وواحدا
في السماء . قال فإذا أصابك الضر فمن تدعو ؟ قال الذى في السماء .
قال فإذا هلك المال فمن تدعو ؟ قال الذى في السماء . قال فيستجيب
لك وحده وتشركهم معه ؟ » (١) .

وينقل الامام احمد عن أبى امامه أن رجلا من إحدى القبائل
قدم إلى رسول الله ﷺ ليعرف بماذا يأمرهم به . فقال له الرسول :
« بأن تصل الأرحام ونحقت الدماء وتؤمن السبل وتكسر الأوتان
وتعبد الله وحده لا تشرك به شيئا » .

وبعد وصرل النبي إلى المدينة أرسل إلى أهل نجران كتابا يدعوهم
فيه إلى الايمان جاء فيه :

« إني أدعوكم إلى عبادة الله ونبذ عبادة العباد وأدعوكم إلى
ولاية الله ونبذ ولاية العباد » .

نقد كان القرآن الكريم على الدوام هو الوسيلة الهامة
للدعوة والتبليغ . فكان الرسول ﷺ إذا ما قابل شخصا أسمعه بعض
آيات القرآن الكريم . وجاء في معظم الروايات هـ : يلى : (ثم ذكر
الاسلام وتلا عليهم القرآن) . وفى رواية أخرى : (فعرض عليهم

الاسلام وقرأ عليهم القرآن) . وكان لجاذبيه القرآن وقع في نفوس العرب لدرجة ان بعض مخالفى الاسلام العتاة كانوا يخرجون بالليل، ويختفون بجوار بيت الرسول فيسمعون القرآن وهو يتلوه ..

لقد كان للأدب السماوى القرآنى تأثير لا حد له على العرب . حين قدم الوليد ابن المغيرة ممثلا لقريش إلى النبی ﷺ تلا عليه النبی آيات من القرآن . فارتجف . ولما رجع قال لقريش : إنه كلام يفوق ناس كلام : (ولنه ليعلو ولا يعلى عليه وانه ليحظم ما تحته) . وتلاوة القرآن من أجل التبليغ كانت الطريقة المعروفة في ذلك الزمان ، فحين وصل مصعب بن عمير إلى المدينة مبلغا كانت طريقته أن يتحدث مع الناس ويبتلو عليهم القرآن (يحدثهم ويقص عليهم القرآن) وقد اشتهر بالمقرئ نظرا لاقترانه الناس القرآن (وكان يدعى المقرئ) (١)

وفي مكة استمرت دعوته بأسلوب ثابت مترن في ظل الأدب القرآنى الرفيع . ولم يكن لدى المعارضين من شيء سوى السب والشتم حتى انه بدأ يقال بين جماعات مكة المتزنة أنه لا يوجد لدى معارضى محمد من جواب دامع يمكن أن يجيبوا به عليه ، وقد قام أشراف مكة في اجتماع خاص بدعوته : وأعدوا خطة للحديث معه . والسبب طبقا لرواية ابن جرير هو أن يبرئوا ذمتهم . أمام قومهم (أبعثوا إلى محمد فكلموه وخاصموه حتى تعذروا فيه) (٢) .

كفاية العرب وصلاحياتهم :

فيما يتعلق بقبول الدعوة . كان أمرها يعتمد على صدق الدعوة وجهاد الداعى ، وفوق هذا كان أمرها يتوقف على ظروف المدعو .

١: حلبة الأولياء . المجلد الاول .

(٢) الطبرى .

وكان للعنصر الانسانى الذى تجمع فى بلاد العرب قيمة عظيمة . فمن ناحية احتفظ العنصر العربى بالاضافة الى ما لديه من جاهلية عربية قديمة وبداءة وضراوة احتفظ ببساطة الفطرة . فقد ضمت مساحة الثلاثمائة ألف كيلو من الأرض المسطحة الساخنة • أعلى وأسمى المثل الانسانية فالعربى الذى جعل من ناقته الوسيلة الوحيدة لمعاشه يقوم بذبحها ليقدمها طعاما لضيوفه حتى لا يجوعوا . وكان اذا ما لجأ مظلوم إلى خيمة عربى . حمل هذا العربى سيفه وقام بحمايته . فلا يتمكن أحد من قتل المظلوم قبل قتل صاحب الخيمة : وكان الأشرار اذا ما قاموا بعمليات السلب والنهب ، وأرادوا الاستيلاء على ملابس او مجوهرات النساء لم يتمكنوا من تجريد النساء من ملابسهن • وما كانوا أبدا ليلمسوهن : فقد كانوا يرون أن من الضرورى سلب المجوهرات حين تكون المرأة فى كامل ملابسها ، وكان المهاجمون والمعيرون يحولون أنظارهم حتى لا تقع على النساء العاريات •

وليس من الصحيح القول بأن عرب البادية كانوا أصحاب عقول بسيطة قليلة الادراك ••• لا ••• لقد كانوا على درجة عالية من الادراك والوعى وكان يمكنهم الوصول إلى ادق معانى الكلمات بل إلى بطون الكلمات •

لقد قدم سبعة من المسلمين الجدد من احدى القبائل إلى رسول الله ﷺ ، وأثناء حديثهم معه قالوا : لقد تعلمنا من الجاهلية خمساً سنظل عليها حتى تمنعنا إياها :

(قال وما الخصال التى تخلقتم بها فى الجاهلية ؟ قالوا : الشكر عند الرخاء : والصبر عند البلاء ، والصدق فى موطن اللقاء والرضا

بمر القضاء . وترك الشمانة بالمصيبة اذا حلت بالأعداء . فقال رسول الله ﷺ . فقهاء أدباء . كادوا أن يكونوا انبياء (١) .

وكان (ضماد) رجلا من قبيلة (أزدشنوة) . وكان يقوم بأعمال السحر والشعوذة . وقدم ذات مرة إلى مكة . فأخبره الناس أن النبي ﷺ . حل به أثر من الجن . فذهب ضماد إلى النبي وفي نيته أن يعالجه بما لديه من معلومات . ولكن حين سمع (ضماد) كلام النبي قال : « بالله لقد سمعت كلام الكهنة والسحرة ، ورأيت كلام الشعراء ، إلا أنني لم أسمع مثل هذا الكلام أبدا فمد يدك أبياعك » .

وكالعادة لم يخطب النبي خطبة طويلة بل قال فقط ما كان يقول في هذه المناسبة الإسلامية :

« إن الحمد لله نحمده ونستعينه : من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له . أشهد أن لا إله الا الله وحده لا شريك له » .

إلا ان (ضمادا) وجد في هذه الكلمات المختصرة كنزا من المعاني (فقال له ضماد) أعد على كلماتك هؤلاء فلقد بلغن قاموس البحر (٢) .

ولم يكن هناك أى فرق بين قول العربى وفعله . لقد كان ﷺ صادقا قولاً وعملاً . وكان يرى الآخرين أيضا هكذا . فما يراه مصدقا عقلا يؤمن به على الفور . يروى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أن قبيلة بنى سعد أرسلت ضمام بن ثعلبة ممثلا لها عند رسول الله ﷺ . فقدم إلى المدينة فأناخ ناقته على باب المسجد وربطها : ودخل المسجد بعد ذلك . وكان رسول الله ﷺ جالسا مع أصحابه في ذلك الوقت .

١/ كنز العمال ١ - ٦٩ .

٢/ البداية والنهاية ٣ - ٣٦ .

وكان ضمام رجلاً شجاعاً عاقلاً وقف أمام مجلس النبي وقال : « أيكم ابن عبد المطلب ؟ » فقال رسول الله ﷺ : « أنا ابن عبد المطلب . فقال ضمام : يا محمد . قال رسول الله . نعم . قال : يا ابن عبد المطلب أريد أن أسألك وسوف أشتد في سؤالي فلا تتأثر من هذا . فقال رسول الله ﷺ : أنا لا أتاثر بهذا . أسأل وأخرج ما في قلبك . قال ضمام : استخلفك بمعبودك : وبمعبود أولئك الناس من قبلك . وبمعبود من بعدك (آله بعثك إلينا رسولا ؟) فقال ﷺ : نعم . قال ضمام : استخلفك بمعبودك وبمعبود أولئك الناس من قبلك وبمعبود من بعدك هل قال الله لك أن تأمرنا أن نعبد وحده ولا نشرك به أحداً وإن نترك هذه الأصنام التي كان يعبدونها ويقدسوا آبائنا وأجدادنا ؟ قال ﷺ : نعم . قال ضمام : استخلفك بمعبودك وبمعبود أولئك الناس من قبلك وبمعبود من بعدك هل أمرك الله أن نصلى الصلوات الخمس ؟ قال رسول الله : نعم . يقول الراوى وهذا ذكر الزكاة والصوم والحج وجميع أحكام الإسلام كان يستخلفه بالطريقة السابقة . ويسأله عن كل غريضة حتى إذا ما فرغ قال :

« غانى أشهد أن لا إله إلا الله وأنشد إن محمداً رسول الله . وسأوى هذه الفرائض وأجنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص » (١) .

ثم ركب ناقته وعاد . ووصل إلى قومه وأخبرهم بالأمر كله — وطبقاً لأحدى الروايات — لم تغرب شمس ذلك اليوم حتى أسلم جميع من كانوا في مجسده رجالاً ونساء .

لم يكن في العرب نفاق . لم يعرفوا شيئاً ثالثاً بين الإقرار أو الإنكار : فحين يقولون قولاً يطبقونه على كل حال . حتى لو قدموا

الروح من أجله . وقدموا أعلى التضحيات . ومن خطب قبائل يدرج (الأوس والخزرج) ما يدل على أخلاق العرب ، وهي الخطاب التي قالها ممثلا تلك القبائل بمناسبة بيعة العقبة الثانية ..

لقد ورد في بعضها :

« إن القوم ! اجتمعوا لبيعة رسول الله ﷺ . قال العباس بن عباد بن نضله أخو بني سالم بن عوف : يا معشر الخزرج . هل تدرون علام تبايعونه ؟ على حرب الأحمر والأسود من الناس . فان كنتم ترون أنكم اذا انهكت أموالكم مصيبة وأشرافكم قتلا أسلمتموه من الآن فدعوه . فهو والله ان فعلتم خزي الدنيا والآخرة وان كنتم ترون أنكم وانتم بما دعوتهم اليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فاثبتوا .. فغالروا .. فما لنا بذلك يا رسول الله أن نحن وغينا ؟ قال : الجنة . قالوا : أبسط يدك . فبسط يده فبايعوه !!

وأثبتت الاحداث أن هذا نم يكن مجرد كلام . بل تم تنفيذ هذا العهد بهذا غيره !! . وحتى حين ساد الاسلام وانتصر . ظلوا أيضا مقدمون التضحيات دون مطابقة بأى تعريض سياسى بل ارتضوا تسليم الخلافة للمهاجرين . ومضوا من الدنيا على هذا الحال .. واحدا واحدا .

شمولية الدعوة الإسلامية :

يروى ابن اسحاق عن عبد الله بن عباس أن أشراف قريش تجمعوا عند أبى طالب ذات مرة . وكان من بينهم بعض قادة قريش من أمثال عتبة بن ربيعة : وشيبة بن ربيعة . وأبو جهل بن هشام ، وأمية بن خلف . وأبى سفيان بن حرب . وسأل هؤلاء الناس — بواسطة أبى طالب — النبى ﷺ ماذا يريد منهم بعد كل هذا ؟ فقال ﷺ :

م ٩ - واقفنا ومستقبلنا

« كلمة واحدة ، تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم » (١) •

فكلمة التوحيد إن كانت في الظاهر كلمة عقائدية إلا أنها تحمل بين طياتها سر جميع أنواع الفتوحات الانسانية ، أنها صوت المنطرة الانسانية ولهذا غمى تصل إلى اغوار النفس البشرية ، وتتحول أذن المعارضين لها إلى أقوى المدافعين عنها ، أسلم خالد بن الوليد قبل فتح مكة بفترة . إلا أن صدق الاسلام كان قد وصل إلى قلبه قبل ذلك . وقد أعلن هو نفسه عن هذا الأمر بعد إسلامه . فذكر أن هذا الأمر وقع في قلبه قبل ذلك بكثير وهو أن الحق لم يكن في جانب قريش بل كان في جانب محمد . ويجب عليه (على خائف) أن يكون معه ... قال : (لقد شهدت هذه المواطن كلها على محمد ﷺ . فليس في موطن أشهده إلا أنصرف وأنا أرى في نفسي أئى موضع غي غير شيء) (٢) •

وهكذا يروى عن الكثير من الناس أن الاسلام كان قد دخل في قلوبهم قبل أن يعلنوا اسلامهم حتى أنهم بدأوا يشاهدون في أحلامهم أنهم على وشك أن يسقطوا داخل حفرة من نار . وهناك من يود أن يدفعهم ليستقظهم فيها . وبينما هم كذلك إذا نبي الاسلام يأتي وينقذهم من السقوط في النار •

ورغم انه لا صلة بين الدعوة والاقتصاد في الظاهر إلا أن الدعوة هي في ذاتها عملية اقتصادية بطريقة غير مباشرة لأن الانسان حين يتقبل الاسلام تصبح جميع وسائله ومصادره تابعة بالتالى للاسلام • ففى الزمن المكي الأول أفادت ثروة خديجة رضى الله عنها الاسلام ، وبعد

(١) البداية والنهاية المجلد ٢ ص ١٢٣ .

(٢) البداية والنهاية مجلد ٤ .

ذلك آمن أبو بكر الذي كان يربح من تجارته أربعين ألف درهم . فساعد رأس ماله في دفع الحركة الاسلامية اقتصاديا ، وفي أثناء الهجرة أخذ ستة آلاف درهم وخرج من البيت وهي التي غطت جميع تكاليف السفر . وفي غزوة تبوك . قدم عثمان رضى الله عنه عشرة آلاف دينار كانت بمثابة ثلثي ما كان يحتاجه الجيش . وقدم عبد الرحمن بن عوف في مناسبة واحدة خمسمائة فرس للجهاد . وهكذا قدم هؤلاء الناس الذين أسلموا أموالهم مع أرواحهم لتصبح جزءا من خزانة الاسلام .

ونظرية التوحيد نظرية مكتملة لا مجال فيها لتقسيمات اجتماعية أو امتيازات طبقية . ولهذا فحين تمضى اية حركة على اساس هذه النظرية ، فانها تؤثر في عامة الناس بطريقة مذهلة لأنهم يشعرون بأنه في ظل التوحيد يمكنهم أن يصلوا إلى المقام الحقيقي للمساواة . والعظمة الانسانية انما تكون في ظل التوحيد .

ولقد كان لخطبة مغيرة بن شعبه حين قدم بلاط فارس أعظم الأثر في نفوس أهل البلاط . يروى ابن جرير :

« فقامت السفلة : صدق والله العربى . وقالت الدهامتين : والله لقد رمى بكلام لايزال عبيدنا ينزعون اليه قاتل الله أولينا ما كان احمتهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة » (١) .

وحل النبي ﷺ مع أبى بكر إلى المدينة في السنة الثالثة عشرة للبعثة ؛ فاجتمع هناك حوالى خمسمائة رجل من سكان المدينة واستقبلوهم فقالوا : (انطلقا آمنين مطاعين) (٢) .

فكيف تمكن النبي ﷺ من قيادة المدينة !! إن الاجابة هي أنه

(١) تاريخ الطبرى مجاد ٣ ص ٣٦ .

٢ الدابة والنهاية مجلة ٣

تمكن من ذلك عن طريق الدعوة فان أول من دعاء النبي إلى الاسلام من سكان يثرب هو في الغالب سويد بن الصامت الخزرجي . ذكر له الاسلام فقال : (نعل لديك ما هو لدى) فقال ﷺ : « ماذا لديك ؟ » فقال : حكمة لثمن ، فقال ﷺ : أوضح . فأسمعه بعض الأنصار فقال النبي : لدى القرآن أفضل منها . وبعد ذلك تلا عليه القرآن . فأسلم على الفور . وحين رجع إلى يثرب حمل رسالة الاسلام إلى قبيلته فقتلوه « (١) » .

وبعد ذلك قدم أحد زعماء يثرب ويدعى أبا الهيثم أنس بن رافع إلى مكة مع جماعة من شباب بنى النضير . وكان هؤلاء الناس قد قدموا إلى مكة ليتعهدوا مع قريش لحماية قبيلة الخزرج . فعلم النبي ﷺ بقدهم فذهب إليهم وقال : « ألا ادلكم على أمر أنفس مما جئتم له ؟ » وبعد ذلك عرض عليهم التوحيد . فقال ثواب منهم يدعى إلياس بن معاذ : يا قوم والله إن هذا لأفضل مما جئتم له . إلا أن الوفد لم يفهم هذا الأمر . فقالوا : « دعنا منك قد جئنا لغير هذا » وعادوا إلى يثرب . وبعد ذلك بفترة قصيرة اشتعلت نيران الحرب بين الأوس والخزرج . تلك التي اشتهرت باسم « بعث » .

ويقول حبيب بن عبد ائرحم ان شخصين من يثرب قدما إلى مكة وهما (سعد بن زرارة وذكوان بن قيس) فأتاهما عند عتبة بن ربيعة . وسمعا عن النبي فأرادا أن يلتقيا به فدعاهما الرسول ﷺ إلى الاسلام وتلا عليهما القرآن ، فأسلما ثم لم يعودا إلى مضيفهم عتبة بن ربيعة . بل عادا مباشرة إلى يثرب . وكان هؤلاء هم الرجال الذين بلغوا أهل يثرب الاسلام في البداية . وهذه الواقعة كانت في السنة العاشرة للهجرة .

وفي السنة الحادية عشرة للبعثة خرج ستة رجال من قبيلة يثرب للحج وبايعوا النبي واعدوا إلى بلدهم حيث بدأوا تبليغ الاسلام .
وفي السنة التالية (سنة ١٢ من البعثة) بايع اثنا عشر رجلا النبي واشتهرت بيعتهم في التاريخ الاسلامي باسم بيعة العقبة الاولى (٦٢١ م) . وفي السنة الثالثة عشرة للبعثة زاد هذا العدد وحضر إلى مكة ٧٥ دن أهل يثرب . ثم كانت بيعة « العقبة الثانية » •

وعلى العكس من مكة اشتهت يثرب بأمر خاص ؛ اذ أسلم في المرحلة الاولى عظماء المدينة وأشرافها ، وكان هذا هو العصر القبلي ، وكان من السامع في القبائل أن تكون القبيلة على دين رئيسها ، ومن هنا بدأ الاسلام ينتشر في يثرب بسرعة (حتى لم تبق دار من دور الانصار إلا وفيها رهط من المسلمين) . وهكذا حين أصبح المسلمون أكثرية بين سكان يثرب كان من الطبيعي أن تكون هذه المدينة ذات تأثير كبير (فكان انصارون أعز أهلها وصالح أمرهم) (١) •

إرهاصات الدعوة :

في كل زمان هناك أناس يبتعدون بأنفسهم عن تأثيرات الزمان ، يعيشون على الفطرة • وفي المجتمع العربي وجد عدد من الناس يبحثون عن الصدق والحق ولم تعجبهم عبادة الأصنام : وكان وجود هؤلاء الناس نتيجة للبساطة الفطرية ؛ ولبتقاء تأثير الأمة الابراهيمية ، وعرف هؤلاء « بلحنفاء » • ومنهم على سبيل المثال : « قيس بن ساعدة » « وورقة بن نوفل » وغيرهما . وكان هناك حنفى يدعى جندب بن عمرو الدوسي ، كان يقول في زمان الجاهلية :

(١) أخرجه الثبراني عن مروة •

« إن للخلق خالفا لكن ما أدرى من هو » (١) .

وحين علم بخبر بعثة النبي ﷺ قدم بخمسة وسبعين رجلا من أهل قبيلته وأعلنوا الاسلام جميعهم . وكان أبو ذر الغفاري من بين هؤلاء الناس الباحثين عن الحق . علم بخبر النبي ﷺ فأرسل أخاه إلى مكة ليأتيه بالخبر فعاد الأخ وحمل اليه تقريراً جاء في إحدى فقراته : « رايت رجلا يسميه الناس الصابىء هو أشبه الناس بك » (٢)

مثل هؤلاء الناس لم يواجهوا أية صعوبة في فهم دعوة النبي ﷺ ،
وحين تبدأ الدعوة في أى مجتمع فإن بذورها تنبت في أماكن لا يمكن حتى للداعى نفسه أن يتوقعها . ولم يكن معنى قبول من أسلم « مؤخرا »
من العرب . أن الاسلام قد انبثق امامهم نجاة . فالواقع أن حياة النبي ﷺ الأخلاقية السامية . وأنوماكه في دعوته ونيلها .
بالاضافة إلى المعارضة التي واجهته وذيرع حيته وذيرع رسالته ...
كذلك هذا جعل من وجوده سارا تسؤل الجميع . ومثل هذه الأمور غرست بذرة الاسلام في أذهان العديد من العرب .

ونتيجة لعصبية القبلية كان الشكوى يحاسب بالعناد الظاهري إلا أنه لا يستطيع أن يوقف تغلغل الاسلام ونموه في داخله . فقد اشتهر بالنسبة لاسلام عمر رضى الله عنه أن حادثة مناجته كانت سببا في إسلامه في النهاية . ولا شك أن هذه الحادثة كانت سببا مباشرا في إسلامه إلا أن بذرتها الأولى كانت قد وقرت في قلبه قبل ذلك بكثير .

أخرج ابن اسحاق عن عبد العزيز بن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أمه أم عبد الله بنت أبي حذفة رضى الله عنها قالت . والله إنا لنترحل

(١) ابن عبد البر في الاستيعاب ج ٢ .

(٢) أخرجه مسلم عن طريق عبد الله بن الصامت .

إلى أرض الحبشة وقد ذهب عامر في بعض حجتنا . إذ أقبل عمر :
فوقف على وهو على شركه ، فقالت وكنا نلقى منه أذى لنا وشدة
علينا قالت فقال : انه الانطلاق يا أم عبد الله قلت نعم . والله لنخرجن
في أرض من أرض الله إذ آذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا
مخرجاً . قالت فقال : سبحانه الله . ورأيت له رقة لم أكن أراها ثم
انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا (١) .

خفى لك زمان توجد افكار تتغلغل في اذهان عامة الناس فاذا لم
تتخطم جدران هذه الافكار فلا يمكن لأى صوت أن يجد صدى لديهم
على اساس من الحقائق الفلسفية فقط : ولم تكن مظاهر الاختلاف
التي ظهرت بين العرب في الزمان الأول قائمة على اساس المصلحة
والعدوان . بل كانت قائمة على أساس عدم قدرتهم على فهم امكانية
وجود دين صحيح أو حق غير ما وجدوا عليه سدنة الكعبة . وقد ظلت
المقائيل العربية المجاورة لليهود بعيدة عن مثل هذا التعقيد العقائدى
لأنهم كانوا يسمعون من اليهود أنه مكتوب في كتابهم أن نبيا سيظهر
من العرب .

« فلما سمعوا قوله أذنبوا واطمأنت أنفسهم إلى دعوته .
وعرفوا ما كانوا يسمعون من أهل الكتاب من ذكرهم إياه بصفته
وما يدعوه اليه فصدقوه وآمنوا به » (٢) .

وفي سوق عكاظ حين قدم عليه السلام إلى خيـم بنى كندة : عرض
عليهم الاسلام ، فوقف شاب وقال :

« يا قوم اسبقوا إلى هذا الرجل قبل أن تسبقوا اليه فوائه إن
أهل الكتاب ليحدثون أن نبيا يخرج من الحرم قد أظلم زمانه » .

(١) البداية والنهاية مجلد ٣ ص ٧٩ .

(٢) الطبراني .

(٣) أبو التميم في الدلائل .

والسبب في إقدام قبائل المدينة من الأوس والخزرج على الاسلام هو وجود هذه الفكرة الذهنية لديهم . أما بالنسبة لأهل مكة ومعظم قبائل العرب فقد كانت سلطة الكعبة هي معيار الحق عندهم ، وكانت مكانة الكعبة بين العرب قديما مثل مكانة « انتاج » بين الأنظمة الملكية؛ وبالإضافة إلى مكانة الانتاج فقد كان أمر الكعبة مرتبطا أيضا . بتصوير السلطة السياسية فقط . وتزيد مكانة الكعبة درجة أخرى فبالإضافة إلى السلطة كانت هناك تقاليد مقدسة تماما . إذ كان العرب يفهمون بعقليتهم البسيطة أن من بيدء أمر الكعبة هو نفسه بيده الحق والصدق؛ يحكى ذو الجوشن الضبابي من بنى عامر ما جرى بينه وبين رسول الله :

(قال يا ذا الجوشن ألا تسلم فتكون من أول هذا الأمر ؟ فقلت لا . قال لم ؟ قال قلت رأييت قومك قد ولعوا بك قال : كيف بلغك عن مصارعهم ببدر ؟ قلت قد بلغني . قال فانا نهدي لك . قلت إن تغلب على الكعبة وتدخلها . قل لعلك إن عشت ترى ذلك قال فوالله إنى بأهلى بالغور إذ أقبل راكب فقلت ما فعل الناس ؟ قال : والله قد غاب محمد على الكعبة وقطنها . قلت هبائنى أمى واو أسلمت يومئذ ثم أساله الحيرة لأقطعنيها) (١) .

وهذا هو السبب في أنه حين فتحت مكة دخل الناس في الاسلام أفواجا !! .

رد فعل حركة الدعوة :

بدأ رسول الله ﷺ حركة الدعوة . وبدأت الأحداث التى تظهر عادة في حالة ظهور صوت جديد في أى مجتمع . تحير بعض الناس حول ماهية هذا الشيء ؟

(١) الطبراني .

ويشغل ابن حميد في مسنده ان قتادة غريش اختاروا ذات مرة عبه بن ربيعة ليهذلهم عند رسول الله . فوصل عتبة إلى النبي وألقى خطبته الطويلة التي عارض فيها النبي ﷺ وحين انتهى قال النبي ﷺ : (غرغت) غشا نعم فقال النبي ﷺ : (بسم الله الرحمن الرحيم وقرأ عليه من (حم فصلت) ثلاث عشرة آية . فسمع عتبة وام يحرجوا . وتل : احسبك ما عندك غير هذا ؟) فقال النبي : لا . وتحكى الرواية بعد ذلك ... (فرجع إلى قريش فقاتلوا ما وراءك ؟ قال ما تركت شيئا أراكم تذلونه فيه إلا كلمته . قالوا فهل أجابك ؟ فقال نعم . ثم قال : ألا والذي نصبها بينه ما فهمت شيئا مما قال غير انه انذركم صاعقة)) (١)

وقد رأى بعض الناس الذين ألفوا الاطار التقليدى للدين أن في دعوته ﷺ تحقير للسلف . غلظ نقل أبو نعيم في (دلائل النبوة) كما نقل النسائي والبغرى وغيرهم ان خلفا قدما إلى مكة ليعتمر فجلس ذات يوم في مجلس كان فيه أبو جهل وعتبة بن ربيعة وأمية بن خلف . . فقال أبو جهل :

هذا الرجل الذى فرق جماعتنا ونسفه احلامنا وأضل من مات منا وعاب آيوتنا فقال أمية : الرجل مجنون من غير شك (٢) .

ودعا عمرو بن مرة الجهنى أهل قبيلته « جهينة » إلى الاسلام فقال رجل :

« يا عمر بن مرة : أمر الله عيشك ان تأمرنا برفض آلهتنا وأن نفرق جمعنا وأن نخالف دين آبائنا الشيم العلى : إلى ما يدعوننا اليه هذا القرشى من أهل تهامة — لا حبا ولا كرامة » (٣) .

(١) الترمذى .

(٢) الاصابة مجلد ٢ ص ٢١٠ .

(٣) البداية والنهاية مجلد ٢ .

وبعد ذلك أنشد ثلاثة أشعار . كان آخرها :

ليصفه الأشياخ ممن قد مضى

من رام ذلك فلا أصاب غلاحد

وكان الحسد مانعا لبعض الناس من ان يسلموا . لأنهم كانوا يريدون اعلان نبوتهم ، وبالألفاظ أخرى يرى هؤلاء الناس أن لديهم علم الحقيقة . ويصبح من أصعب الأمور على الانسان أن يعترف بأن الله قد أعطى علم الحقيقة الذي يدعيه لشخص آخر . ينقل البيهقي عن مغيرة بن شعبه أن أبا جهل بن هشام انفصل عنه ذات يوم قائلا :

والله أنى لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعنى شيء — أن بنى قصى قالوا : فيينا السقاية فقلنا نعم ، ثم قالوا فيينا الندوة فقلنا نعم ، ثم قالوا فيينا اللواء فقلنا نعم . حتى قالوا منا نبى والله لا أفعل (١) .

وبعض الناس عارضوا النبى لأنهم راوا فى دعوته وفى ايمانهم بدعوته خطرا على اقتصادهم : فقد كانت الكعبة من أكبر بيوت الأصنام قبل الاسلام ، وضعت فيها أصنام جميع المعتقدات حتى أنه وضعت بها صور للمسيح ومريم أيضا . وهكذا كانت الكعبة مزارا لأهل الأديان جميعا ، وكان هذا هو الهدف من الأشهر الأربعة الحرم ، ففيها كان يفد على مكة أتباع جميع الأديان آنذاك . فإذا ما رفعت الأصنام من الكعبة فلن يأتى أحد لزيارة الكعبة . وسيلقى سوق مكة الذى كان ينعقد لمدة أربعة أشهر . ولهذا شعر أهل مكة بخطر دعوة النبى ﷺ واعتقدوا أن دين التوحيد لو انتشر فإن المنطقة (وهى غير ذى ذرع) سوف تنتهى تماما ، كما أن ولاية الكعبة أيضا كانت تجعل لقريش مكان الصدارة بين القبائل المختلفة .

يكتب احد المؤرخين فيقول : « كانت أموالها وتجاريتها تسافر في الشرق والغرب في خلال معاهدات تجارية بينها وبين امم وثنية مثلها كفارس وامم مسيحية كالحبشة وكمثل بيزنطة وكانت قريش تتحور أن تأييدها لرسالة محمد إنما يعنى شيئاً واحداً هو أن تتحلل الأمم المجاورة لها بل وقبائل العرب نفسها المقيمة على الوثنية من تعهداتها بحماية تجارة قريش وقوافله وإذا حدث ذلك فهذا يعنى موت قريش تجارياً واقتصادياً وانتهاء عصر سيادتها على العرب . وكما جاء في تفسير آية من سورة الواقعة (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) أى تجعلون الكذب غذاء لكم . أى انكم تعتقدون أن انكار التوحيد الذى يدعو اليه نبي الاسلام إنما يمكن أن يحفظ اقتصادكم وأموالكم .

وكانت نتيجة دعوته أن أصبح حديث الناس تساؤل . ويسأل الناظر للشخص الآخر قائلاً : « أهو هو ؟ » .

(ويمض بين رجالهم وهم يشيرون اليه بالاصابع) (١) .

وكان اذا ما جاء شخص إلى مكة عاد ليخبر رفاقه بأخبار رحلته . ومعها يخبرهم بأن محمداً بن عبد الله تنبأ . وقد تبعه ابن أبى قحافة . وقد وضعت قريش اسم (مذمم) بدلاً من محمد (اسم النبي ﷺ) فقد اتهموه بتحقيق الأسلاف وتسفيه الآباء . وفى الليل كانوا يلقون القاذورات فى طريقه ، وذات مرة رآهم النبي ﷺ . فقال : يا بني عبد مناف أى جوار هذا ؟ (٢) .

وحتى فى حياة أبى طالب لم يكن أحد يجرؤ على اتخاذ أى اجراء عدائى تجاه النبي ﷺ وذلك طبقاً للتقاليد القبلية . فان قتاله يعنى قتالا

(١) رواه احمد عن جابر .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام .

مع قبيلة بنى هاشم ، وحين أخذ عمر بن الخطاب — قبل أن يسلم —
السيف • وخرج عازما على قتله : كانت الجملة التي أطلقها أحد الناس
كافية لتهدئته . إذ قال له : (ويحك كيف تأمن بنى هاشم اذا قتلت
محمدا) وكان هذا هو ما يواجهه أى شخص يعزم على اتخاذ أى عمل
عدوانى ضد النبى ﷺ : وكان هذا هو السبب فى أن المظالم والاعتداءات
التي حدثت فى مكة كانت فى معظمها ضد العبيد والاماء •

ينقل الامام أحمد وابن ماجه عن عبد الله بن مسعود أنه فى الدور
الأول كان هناك سبعة أفراد مسلمين فى مكة هم (رسول الله ﷺ ، أبو بكر .
عمار : سعيد ، صهيب : بلال ، ومقداد) •

فأما رسول الله ﷺ فممنعه الله بعمه واما أبو بكر ممنعه الله بقومه
واما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم دروع الحديد وصبروهم فى
الشمس (١) •

يروى الامام البيهقى عن عبد الله بن جعفر أنه حين توفى أبو طالب
زعيم بنى هاشم قام أحد رجال قريش السيئى بالتقاء التراب على النبى
ﷺ . فعاد إلى بيته ونظفت إحدى بناته التراب من فوقه فقال ﷺ
حينئذ : « لم يحدث أن أصابنى مكروه من قريش حتى الآن . لقد مات
أبو طالب فبدأوا يفعلون هكذا ، وفى رواية لأبى هريرة : « لما مات
أبو طالب توجهوا بالنبى ﷺ فقال يا عم ! ما أسرع ما وجدت بعدك » (٢)

فبعد وفاة أبى طالب بدأت قريش تستشير أهلها فى أمر قتله .
فنصح أبو جهل بأن يضعوا سيفا فى رأسه ، ورأى عقبة بن معيط أن

(١) رواء أحمد .

(٢) أبو نعيم — الحلية ٨

يلقوا بسامنا على رقبتة ويسحبوه . فمن الواضح أن الطريق صار ممهدا لارتكاب الأعمال العدائية ضد النبي بعد وفاة أبي طالب ، ولقد ظلت هذه الأحداث نوعا من العار والخجل لأنها كانت الوحيدة من نوعها في تاريخ العرب بالاضافة إلى أن بعض المشركين كانوا يقولون بحمايته بوازع من ضميرهم . فمثلا حين قام أبو جهل بالضغط على رأسه ورقبتة ﷺ ليخنقه علم أبو البخترى بذلك فحمل السوط وقدم إلى الكعبة حيث كان يجلس أبو جهل مع رفاقه جلوس المنتصر . وحين عرف أبو البخترى بصحة الواقعة (بعد بحث وتحقيق) ضرب أبا جهل على رأسه بالسوط ضربات جعلته يصرخ !!

ويخبرنا تاريخ الأديان أن الشرك يكون دائما حساسا لأقصى درجة لسماع أى نقد يوجه ضده . ولما كان أساس النظام الاجتماعى قائما على الشرك قديما فلقد تجمعت الوسائل السياسية أيضا مع هذه الشدة وعصديتها وساندتها . وهكذا استلزمت دعوة التوحيد في بيئة مكة من النبي ﷺ الكثير من الصبر والمثابرة : وفي السفرات الثلاث الأولى لم يؤمن بالرسول إلا عدد قليل من الناس ، وكما أنه لا يمكن لشجرة واحدة أن تظل مكة التى باغت مساحتها حوالى كيلو مترين مربعين فإن رفاقه كانوا أيضا لا يجدون من يظلمهم ... فقد كان بجواره ﷺ أربعة أشخاص فقط : (خديجة وعلى وزيد وأبو بكر) ، ومع أن عائشة بنت أبى بكر كانت معوم أيضا إلا أنها كانت أول من يولد مسلما ، وهكذا كانت جبهته ﷺ تتكون من خمسة أفراد فقط .

ومضى الأمر على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات فكان إذا خرج من بيته أستقبل من أناس كالمجانين .

ومرة خرجت جماعة خطط لها أبو جهل لتسببه وتشتته ، وكان هذا سلوكا لا يمكن قبوله من أشراف مكة ، وممر شخص منهم فرأى هذا

الموقف فذهب إلى عمه حمزة وقال له : أين غيرتك ؟ إن الناس يسبون ابن أخيك وأنت لا تساعده . وامثلا حمزة بن عبد المطلب بالغيرة والحمية العربية . فوصل إني أبى جهل فضربه بقوسه الحديدى على رأسه وقال : منذ اليوم أنا على دين محمد فافعلوا ما شئتم (دينى دين محمد فامنعونى ذلك إن كنتم صادقين) .

وكان حمزة من أبطال العرب المشهورين . فزادت همة الناس . ووصل عدد المسلمين إلى أربعين شخصا . وفى ذلك الوقت كن فى مكة شخصان من أصحاب النفوذ والأثر . الأول عمر بن الخطاب والثانى أبو جهل . فدعا رسول الله ﷺ بدعائه المشهور (اللهم أعز الاسلام بعمر بن الخطاب أو بأبى جهل بن هشام) وتقبل الله دعاءه لاول من نطق باسمه . وفى السنة السادسة للنبوّة كان لاسلام عمر اثر كبير فى اسلام الكثير من الناس ووصل عدد المسلمين إلى أربعين . كان هذا فى وقت اتخذ فيه المسلمون من دار ابن الأرقم مركزهم السرى . وذكر صاحب البداية والنهاية أن عدد المسلمين الذين كانوا يتجمعون فى دار ابن الأرقم كان تسعة وثلاثين مسلما إلا أن أولئك الناس الذين كانوا مع النظام السائد كانوا بالتالى يمتلكون القوة . وهكذا وبعد توقف عارض بدأت سلسلة من المظالم من جديد . ورغم محاولات إيذاء النبى بشتى الطرق إلا أن احدا لم يتمكن من قتله . لأن التقليد القبلى يعنى أن قتل أحد افراد القبيلة هو بمثابة حرب مع القبيلة كلها ؛ كانت هذه هى القضية التى على أساسها قيل لشعيب : (ولولا رهلك لرجمناك) (١) .

ولقد طالبت قريش زعيم بنى هاشم وعمه أبا طالب بن عبد المطلب أن يخرجاه من القبيلة حتى تتمكن قريش من قتله إلا أن حمية أبى طالب

لم تجعله يفكر أو يكون على استعداد لهذا . وذات مرة قال أبو طالب
لرسول بعد شكوى قريش له : لا تعيب آلهتهم • فظن النبي أنه سيسلمه
لقريش (فظن أنه قد بدا لعمه فيه وأنه مسامح) إلا أن أبا طالب قال
يطمئنه : والله لا أسلمك بسوء أبدا (١) •

وتجمعت قريش ونفذت معاهدة اجتماعية تقاطع بمقتضاها بنى
هاشم وأعلنت المقاطعة . وكان ذلك في السنة السابعة للبعثة . وبعد هذا
أخذ أبو طالب وأخذ معه أسرته وخرج من مكة . وإقام في مكان يطلق
عليه (تسع أبي طالب) وهو هضبة وعرة لا يوجد فيها سوى بعض
الإنسجار التي تنمو طبيعيا . وظلوا على هذا الحال لمدة ثلاث سنوات .
يقفون على أوراق الشجر وجذورها . هذا باستثناء الأشهر الحرم
الأربعة حين كان أهل أسرته يذهبون إلى مكة ويحماون معهم لحم
القرابين فيجففونها ويتناولونها لفترة طويلة •

وبعد ثلاث سنوات وفي السنة العاشرة للبعثة انتهت المعاهدة
إلا أنها أثرت على أبي طالب نظرا لقسوتها وشدتها . وبعد أن توفي
أبو طالب أصبح أكبر أفراد القبيلة هو عبد العزى (أبو لهب) من
بنى هاشم . فعين زعيما لها . وهكذا يجلس الآن العدو على كرسي
القاضي فأعلن عن براءة القبيلة منه وأعلن إخراجه منها •

الإخراج من القبيلة

إن إخراج فرد من قبيلته هو في حيانا 'اصدراء' كهن يلقى بشخص في بحر . ففي النظام القبلي حين لا تدون هناك حكومه تتحمل المسئولية في البلاد . فأى شخص يمكن أن يعيش حياته في ظل حماية آية قبيلة .

وإثناء إقامه النبي ﷺ في منى قام بعرض دعوته على إحدى القبائل . ورفضت القبيلة التسليم بدعوته . رغم أنه يتضح من كلام أحد أفراد القبيلة ويدعى ميسرة بن مسروق العسى أنه تأثر بدعوة النبي ولاحظ النبي ذلك (فجمع رسول الله ﷺ في ميسرة فكنمه فقال ميسرة : ما أحسن كلامك وأنواره ولكن قومي يخافونني وإنما الرجل بقومه) (١) .

وكانت حادثة إخراجه ﷺ من القبيلة من أصعب الأمور على نفسه ، وهكذا لم يعد له ظل يذله في بلده . وكان أهله حل واحد وهو أن يبحث عن قبيلة أخرى تحميه . وكانت أولى محاولاته في هذا المجال هي خروجه من مكة : وذهابه إلى الطائف . وقال رسول الله ﷺ عن هذا السفر لعائشة :

« إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل بن عبد كلال » .

ويقول عروة بن الزبير :

« ومات أبو طالب وازداد من البلاء على رسول الله ﷺ شدة

فعمد إلى تنيف بربزه أن يرؤوه وينصروه (١) » .

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٣ .

٢ أبو سفيان عن دلائل النبوة .

إلا أن الناس هناك سلكوا معه سلوكا وحشيا ممجيا فدعا الله
وهو عائد من الطائف بقوله :

« اللهم إليك أنكو ضعف قوتي وثقله حيلتي وهوانى على الناس
يا أرحم الراحمين » (١) •

وقال لأهل الطائف وهو يعود منها : « لا تبلغوا أهل مكة ما صنعتكم
بى وإلا ازدادوا جسارة » (٢) •

عاد النبي من الطائف وأقام مرّة ثانية خارج مكة وأرسل إلى
الناس يطلب منهم موافقة أحدهم عمى حمايته حتى يتمكن من البقاء فى
مكة . وفى النهاية قبل مطعم بن عدى حمايته . ودخل مكة فى ظلم
سيوف أولاده •

ووضع النبي خطة للذهاب إلى القبائل التى تسكن أطراف مكة ،
والتي كانت تقدر عليها فى الأعياد والأسواق وذلك ليجهز هذه القبائل
وبهيئتها لقبول حمايته . قال لعنه العباس :

« لا أرى لى عندك ولا عند أخيك منعة فهل أنت مخرجى إلى
السوق غدا حتى تنظر فى منازل قبائل الناس » (٣) •

فكان النبي ﷺ يذهب إلى موقع كل قبيلة ويسألهم : (كيف
المنعة فيكم ؟) ويعرض عليهم نفسه ويقول لهم إن قبيلته كذبت وأخرجته
ويسألهم حمايته وإيواءه حتى يبلغ عند الله عز وجل ما أرسله به ،
ويروى المؤرخون أن النبي ﷺ اتصل بخمس عشرة قبيلة ، قابل
أفرادها فرداً فرداً •

(١) البداية والنهاية مجلد ٣ .

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، ص ٩٨ .

(٣) البداية والنهاية : جلد ٣ .

إلا أن القبائل كانت تعرف مدى حضوره قبول شخص أخرجه قريش من حمايتها . وهكذا رفضت القبائل كلها إيواؤه وحمايته . وهناك قبيلة أظهر أهلها تسامحا إلى حد ما . قال أحد أشرافها : (أخرجه عسيرته وتؤوونه ! أنتم تحملون حرب العرب) (١) . فحماية شخص أخرجه قبيلته تعنى فى العرف العام إعلان الحرب على تلك القبيلة . فإذا حدث ذلك مع قبيلة قريش التى تملك السيادة على البلاد كلها فإنه يكون أمرا بالغ الصعوبة . وكما تقضى التقاليد العربية فإنه من الأمور الشائنة جدا أن يطلب شخص الحماية ثم لا يجدها . فهذه هى أول حادثة واضحة من نوعها فى التاريخ العربى ؛ أن يظل عليه الصلاة والسلام يدور بين القبائل طالب الحماية لعدة سنوات . فلا يجد أحدا على استعداد لحمايته ؛ لا أهل الطائف ولا أهل القبائل العربية الأخرى . والسبب هو أن أمر النبى هذا كان يحمل نوعية خاصة ؛ فالقبيلة التى (طردته) كانت قبيلة قريش زعيمة العرب قاطبة ؛ وتقديم الحماية للشخص الذى تطرده قريش يعنى إعلان الحرب على العرب قاطبة .

كانت هذه هى الخلفية التى على أساسها قال أبو الهيثم بن التيهان رضى الله عنه لأصحابه وهو يأخذ البيعة من الأنصار :

« فاعلموا أنه إن تخرجوه رمتكم العرب عن قوس واحد » (٢) .

وعلاوة على ذلك فهناك سبب آخر للأحداث السابقة وهو أن القبائل التى كانت تسكن أقاليم الحدود كانت تربطها مع جيرانها من غير العرب معاهدات أخرى ؛ وكانت تخشى أن تؤوى هذه الشخصية المتنازع عليها فتبدأ مشاكل ونزاعات مع تلك الحكومات .

(١) أبو نعيم فى دلائل النبوة .

(٢) الطبرانى .

جاء في البداية والنهاية أنه ﷺ ذهب إلى سوق في « منى »
وتحدث مع زعماء بنى شيبان ابن ثعلبة ، فاستحسنوا رسالته : ولكن
هانى بن قبيصة عقب قائلا : نحن نعيش على حدود كسرى (ملك
فارس) وبيننا وبينهم معاهدة •

(ولعل هذا الأمر الذي تدعو إليه تكرهه الملوك) (١) •

ويمكن تقدير الحلة التي وصل اليها رسول الله ﷺ في ذلك
الزمان من تلك العبارة التي وردت في إحدى الروايات حين ذهب ذات
مرة إلى قبيلة يقال لها (بنو عبد الله) :

« فدعاهم إلى الله وعرض عليهم نفسه حتى انه ليقول : يا بنى
عبد الله إن الله قد احسن اسم ابيكم ، فلم يقبلوا منه ما عرض
عليهم » (٢) •

وهكذا قضى النبي ﷺ السنوات الثلاث الأخيرة في الحياة
المكية باحثا عن الحماية بين القبائل ، ورغم محاولاته وكفاحه إلا أن
أية قبيلة لم تكن على استعداد لحمايته . لدرجة أن بعض القبائل
قالت :

« أما آن لك ان تيأس منا ! » وأخيرا وفق الله قبائل يثرب
(المدينة) الأوس والخزرج إلى هذا الأمر : وكان وراء استعداد كل
من الأوس والخزرج لحماية النبي خلفية نفسية ، فهاتان القبيلتان
كانتا تسكنان بجوار قبائل اليهود ، وكان يهود خيبر يسجلرون على
أخصب الأراضي بالمنطقة ، وكانت التجارة في أيديهم أيضا ، وهكذا
كان اقتصاد عرب (الأوس والخزرج) ييثرب في معظمه في يد

(١) البداية والنهاية ج ٣ •

(٢) البداية والنهاية •

اليهود . ومما هو جدير بالذكر أنه بعد الهجرة قام النبي وأصحابه بتعمير المسجد النبوي بأيدي أجراء اليهود . فورد هذا البيت على لسانه ﷺ :

هذا الحمال لا حمال خيير هذا أبر ربنا وأظهر (١)

وكانت نتيجة التفوق الاقتصادي اليهودي والسيطرة انعرييه حدوث عدة حروب بين الأوس والخزرج وكانت اليهود تقول إن كتابنا بخبرنا بظهور بنى من العرب قريبا ، وحين يأتى سنكون معه وسنحاربكم ونقضى عليكم تماما . وقد أشار القرآن إلى قول اليهود هذا فى الآية الكريمة : (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) (٢) .

سمع أهل الأوس والخزرج دعوة النبي فقالوا : بالله هذا هو النبي الذى حدثتنا اليهود عنه فلنؤمن به قبل أن يسبقنا اليهود إليه ولنصبح من جماعته . وبالإضافة إلى هذه الخلفية كانت هناك أسباب أخرى تاريخية واجتماعية جعلت عشائر الأوس والخزرج قادرة على فهم كلام النبي ﷺ والايمان به بسهولة أكثر من بقية القبائل العربية وجعلتهم يمدون أيديهم لمبايعته .

والآن جاء الوقت الذى كان ينتظروه من سنوات . فقد وجد قاعدة يمكن أن ينطلق منها كفاحه ونشاطه بشكل مؤثر وتحت حماية القبائل ، وأن يجمع مسلمى مكة وأطراف مكة فى مكان واحد يجعل منه مركزا إسلاميا . وقبل عدد كبير من أهل يثرب الدين الجديد ودخلوا فى الإسلام مما جعل من الممكن أن تتجمع الطاقات الإسلامية

(١) البداية والنهاية ج ٢ .

(٢) البقرة ٨٩ .

المتفرقة في مركز واحد حتى يمكن لنشاط دعوة الحق أن يستمر بتأثير أكبر وهكذا يذكر المؤرخون عن مبايعة الأوس والخزرج للنبي ﷺ :
« قال . فلم يلبث رسول الله ﷺ إلا يسيراً حتى خرج إلى أصحابه فقال لهم : احمدا الله كثيراً فقد ظفرت اليوم أبناء ربيعة بأهل فارس (١) » .

اعد ﷺ عدة الهجرة . ورغم الحذر الشديد في إخفاء الخبر إلا ان غريبتا عرفت بالأمر . ينقل الطبراني عن عروة :

« ان مشركي قريش أجمعوا أمرهم ومكرهم حين ظنوا ان رسول الله ﷺ خارج وعلموا أن الله قد جعل له بالمدينة مأوى ومنعة وبلغهم إسلام الأنصار ومن خرج إليهم من المهاجرين فأجمعوا أمرهم على أن يأخذوا رسول الله ﷺ فيما أن يقتلوه وإما أن يسجنوه وإما أن يوثقوه وإما أن يخرجوه » (٢) .

وبعد إيمان الأوس والخزرج بالنبي قام ﷺ فرسم خطة محكمة وبعدها خرج في صمت من مكة .

الهجرة :

والمساعدة التي قدمتها قبال المدينة (الأنصار) للنبي ﷺ وللمسلمين تمثل حادثة تاريخية محيرة في الواقع . فالناس إذا أعطوا شيئاً أعطوه نظير مقابل أو نتيجة لخوف أو نتيجة لوجود « بركة » معينة ، وهناك بعض الناس (أحياء أو أموات) يفترض فيهم « العظمة » ، والإنفاق عليهم أو الإغداق عليهم — طبقاً لهذا التصور —

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٣ ، ص ١٤٥ .

(٢) أخرجه الطبراني عن عروة بن مولا .

إنما يكون محسرا لوجود برخه نحل بالاولاد او تنخر لاسول إلى آخره
مما هو وارد في هذا الباب ، إلا أن ما حدث من الانصار كان أول مثال
بارز في التاريخ الإنساني على الإيتار والتضحية . فلم يحدث ان قامت
أمه بأكملها بفتح ابوابها كمله للمهاجرين على اسس الاخوة الخالصة .
فالانصار لم يقدموا للمهاجرين بيوتهم فقط بل أقاموا بينهم وبين
المهاجرين مؤاخاة واعتبروهم كاشقائهم . فقسموا بينهم ممتلكاتهم :
فعلوا كل هذا وهم يعرفون ان هذا العون المقدم للمهاجرين ليس
مجرد عون اقتصادي بل هو إعلان للحرب ضد العرب والعجم . وتصور
العبارة التي قالها « على » هذا الأمر تصويرا دقيقا :

(كانوا حذقاء صبراء) (١) •

حين ترك المهاجرون وطنهم ووصلوا إلى يثرب كان كل واحد من
الانصار يود أن يحصل على شرف استضافة احد المهاجرين حتى انهم
اقتنعوا على ذلك (ولقد تشاحوا فينا حتى ان كانوا ليقترعون علينا
ثم كنا في أموالهم أحق بها منهم) ورغم هذا الإيتار الخاص قاموا
بمبايعة الرسول كما هو متبع وعلى أن يتم ترجيح الآخرين عليهم في
تقسيم العبد (أثرة علينا) على (أن لاننازع الأمر أهله) (٢) •

وهكذا فبعد الهجرة لم تكن حياة المدينة حياة هدوء بالنسبة
للنبي : فقد ظهر العداء العربي المتحد في أسوأ مظاهره • يقول
أبي بن كعب :

« لقد قدم النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة وآوتهم الأنصار :

(١) البداية والنهاية ، مجلد ٣ •

(٢) نهج سيرة ابن هشام ، مجلد ١ ، ص ١١١ •

فى الاهمية لم يسبق له نظير : فضرورات الإنسان الفعلية تزايدت اليوم لدرجة أن الحياة بأسلوب بسيط خراغى على الطراز القديم أصبحت أمراً غير ممكن .

فإذا كانت مسئولية المسلمين الأساسية هى الدعوة والتبليغ فإن الأسباب السابقة تستلزم الكفاح والاجتهاد أيضا بكل قوة ليتمكن المسمون من المشاركة بنصيب مشروع فى الاقتصاد الحديث . وذلك بمسورذ فردية وبصورة قومية أيضا .

ومع أن أساس مهمة أهل الإيمان فى هذه الدنيا هو الدعوة والتهذيب إلا أن الواقع أن هذه الدنيا مادية . ووجود الجماعة المعارضة لذلك هو وجود مستهتر . ومن الضروري لأهل الإيمان أن يجتهدوا ويكافحوا بقدر استطاعتهم لامتلاك جميع الوسائل المادية . لقد هاجر النبى ﷺ من مكة إلى المدينة فى السنة الثالثة للبعثة بلا متاع لكن بعد عشر سنوات حين تحرك لفتح مكة كانت الدعوة قد انتشرت لدرجة أن ركبته كان يضم عشرة آلاف رجل . ومن ناحية أخرى فقد كانت الاستعدادات تجرى لإعداد ألفى رجل فى الخفاء (لا يرى منهم سوى الحدق) الطبرانى .

والعمل حليقا لهذه السنة نتأكد أهميته البالغة فى ضوء ظروفنا الحاضرة : فأهمية الآلة فى حروب اليوم تزيد كثيرا على استخدام العضلات لدرجة أن التصور القديم للأجناس العسكرية أصبح خرافة الزمان الغابر . وهكذا أصبح للوسائل الاقتصادية تأثير فى زماننا "تحالى حتى أن الحياة الإنسانية كلها أصبحت تابعة لها . وفى الزمان القديم لم تكن لعملية الدعوة والتبليغ أية علاقة بالاقتصاديات . إلا أنك اليوم إن أردت أن تستخدم « القلم » فى الدعوة والتبليغ فإنك لن تستطيع أن تستخدمه بتأثير بدون وسائل اقتصادية عظيمة ومؤثرة ثم حين نشاهد الأديان الأخرى تنتشر عن طريق الطائرات والإذاعات : فإن الضرورة الاقتصادية تصبح أشد من ذى قبل مئات المرات .

وهكذا فإن أهمية الوسائل الاقتصادية تكون أكثر مئات المرات ، ثم إنها فى ضوء الضرورة الشخصية فى عالم اليوم تصل إلى مدى

أرض العدو بينما القواعد الأمريكية قريبة من حدودها لدرجة أنها يمكن أن تصل إلى أهم الأهداف كلها داخل روسيا في خمس أو عشرة دقائق .

والآن ماذا فعلت روسيا ؟ لقد قامت بتعيين جيش من العلماء لاكتشف سلاح سريع يتمكن به حكام روسيا من الوصول إلى معامل ومصانع أمريكا وهم جالسون في بلدهم . وهكذا في سبتمبر سنة ١٩٥٩ وصل الصاروخ الروسى ليونك رقم ٢ بنجاح كامل إلى القمر ، وتم إعلان ذلك في هدوء كامل أيضا بقولهم إن البحث قد نجح . ومن الجدير بالذكر أن المسافة بين الأرض والقمر تزيد على المسافة بين روسيا وأمريكا خمسين مرة ، والآن فالصاروخ الذى حمل صندوقا آليا ليصل به إلى انقمر يمكن أن يستقط القنابل على أبعد البلاد مسافة، كما أن التحكم بالرادار والكفاءة التى أظهرها بالنسبة للطيران فى الفضاء كان كافيا لإثبات أن القنبلة الذرية والهيدروجينية يمكن إسقاطهما بدقة على أى هدف فى الأرض ، وأمام هذا الاكتشاف فإن ما قامت به أمريكا انهار كما تنهار عمارة بلا أساس فجأة على الأرض .

هذا هو التحدى الروسى على الأرض وهو الذى أوجدت له روسيا حالا فى السماء . وأثبتت انه لا حدود نهائية للرقى فى هذا العالم . والحقيقة أن الله تعالى قد خلق إمكانيات لا حدود لها للقوة والطاقة فى هذا الكون . وإذا أظهرنا الهمة والعزيمة أمكن ركوب كل صعب لدرجة أن كل ما يقوم به العدو يمكن أن يصبح مسدقا لقوله تعالى : « بطل ما كانوا يعملون » (١) .

أمام كل جماعة مسلمة سواء كانت تمثل أقلية أو أكثرية في البلد الذي تعيش فيه . وسواء كانت السلطة في يدها أو لم تكن .

وهذا استدأور له أترده فغن حرينه بدانا نلاحظ فى دور أمريقيه . الأكثرية المسلمة وقد غقدت سلطاتها وتأثيرها فى بلدها . وأصبح المسيحيون يسيخرون بصورة عملية على أمور السياسة وجميع شعب الحياة الاجتماعية الأخرى فى البلاد . وذلك لا لشيء إلا لأنهم تفوقوا على المسلمين فى مجاا العلوم واقتصادية . وفى الصناعات والحرف . وفى النظام والانضباط ؛ وعلى سبيل المثال يمثل المسلمون فى نيجيريا نسبة ٦٥٪ من بين السكان الأصليين بينما يمثل المسيحيون نسبة ٢٠٪ فقط إلا أنه فى سنة ١٩٧٤ كان من أعضاء الوزارة خمسة من المسلمين وعشرة من المسيحيين . وسبب هذا الفرق هو تفوق المسيحيين وتأخر المسلمين ، وفى المدارس الحكومية لا يزيد عدد الطلبة المسلمين على ٢٥٪ من المجموع الكلى للطلاب . وتتناقص هذه النسبة فى مراحل التعليم العالى . وبينما يمثل الطلبة المسيحيون فى البلاد ٢٠٪ فقط إلا أن الهيئات العلمية تمنح بهم .

ومثال آخر من ذرية أخرى وهو روسيا ، فبعد الحرب العالمية الثانية قامت أمريكا بمشروع ضد عدوها الاتحاد السوفيتى يقضى بعتد معاهدة مع البلاد التى تقع على حدودها حتى تقيم فيها قواعد عسكرية لها أو تكسبها إلى جانبها . وكانت معاهدات (داتو) و (سياتو) و (سفتو) هى الوسيلة التى تتمكن بها أمريكا تمرير سفنها العسكرية بالمحيط الأطلسى اتصل إلى أوروبا وشمال أفريقيا وآسيا وهكذا وعن ضربت عدد من القواعد العسكرية أصبحت أمريكا فى وضع يسمح لها بالتمكن من مراقبة العالم الشيوعى مراقبة شديدة . وكان معنى هذا هي أن على روسيا أن تطوى مسافة سدس الكرة الأرضية لتصل إلى

نغبط بالمجتمع الإسلامى الذى يمثلت السلطة • ما معنى هاتين القوتين فى زماننا الحاضر • وكيف يمكن الحصول عليهما ؟

حتى يتضح ذلك نقدم اليابان وروسيا كمثالين على هذا الأمر :

حين هزمت اليابان فى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ — ١٩٤٤) وتم نزع سلاحها ، واستولى الجيش الأمريكى على اليابان . تم إغلاق أبواب الأفكار العسكرية أو السياسية أمام اليابان وألقى امبراطور اليابان هيروهيتو (١٩٠١ —) خطاباً قال فيه :

« علينا أن نتحمل كل ما بوسعنا لبناء الأجيال اليابانية القادمة » .

ومن هنا بدأت اليابان كلها تعمل من أجل تطوير جميع المجالات الأخرى غير السياسية . فاعطوا لأساتذتهم رواتب الوزراء وسلموهم سلطات المحافظين حتى يمكن أن يرتفعوا بالتعليم إلى أعلى مستوى ، وتطورت الصحافة لدرجة أن أكثر الصحف طباعة فى العالم هى الصحف اليابانية ، وتطورت الصناعة والتقنية فى اليابان حتى وصلت أوج كمالها •

ورغم عدم وجود الحديد والصلب باليابان فهم الآن يقومون بصناعة أعظم الآلات فى العالم ، وقد ارتفعوا بمستوى صناعتهم ونوعيتها حتى وصل المعيب فيها إلى درجة الصفر ، وتطور الإحساس القومى والنظام والانضباط لدرجة أنه لا يوجد بين أمم العالم من يضارعها فى ذلك •

ورغم أن مجالات التطور هذه ليست مجالات عسكرية أو سياسية فى الظاهر ، إلا أنها أثبتت قوتها لدرجة أن امريكا قامت باستدعاء جيوشها من اليابان بدون أية مواجهة تذكر •

هذا هو مجال البناء والرقى • وهو مجال مفتوح بكافة إمكانياته

وعاطفة إسلامية . وواجه الاثنان « القوة الغربية » إلا أن الأول أصبح ماتحا للقدس والثانى واجه فقط العدو وهزم واستشهد . وهذا الفرق بينهما لا يرجع إلى سر « سليمان » فالحقيقة البسيطة أن السلطان تيبو واجه عدوه فى القرن الثامن عشر فى وقت كان فيه الغرب متفوقا فى الصناعة العسكرية . فقد اكتشف أنواعا من الأسلحة التى يستخدمها ضد العدو من مسافات بعيدة ، وقد أغنته هذه عن استخدام الأسلحة التقليدية الرائجة فى تلك الفترة . كما تمكن الغرب من السيطرة على القوة البحرية تماما . وعلى العكس من هذا واجه صلاح الدين عدوه فى القرن الثانى عشر الميلادى حين كان المسلمون يملكون تيادة الدنيا فى الصناعة الحربية . وفى تلك الفترة امتلأت مصر والشام والعراق بالمصانع التى تنتج أحدث وأحسن الآلات الحربية فى العالم : وكان للمسلمين اليد العليا فى وقف حملات الروم فى العصر العباسى : وفى صد الأمم الأوروبية زمان الحروب الصليبية ، وقد تطورت الصناعات العسكرية فى هذه المنطقة بصفة خاصة فى زمان الحروب الصليبية حتى أنه حينذاك وبعد عقد اتفاقيات الهدنة كان أهل أوربا يتجهون إلى أسواق مصر والشام بصفة خاصة لشراء الأسلحة ، حتى أصدر العلماء المسلمون فى ذلك الوقت فتوى تقضى بأن بيع الأسلحة للنصارى حرام لأنهم سيستخدمونها ضد بلاد المسلمين^(١) . هذه هى القوة التى ورد ذكرها فى القرآن باسم « القوة المرهبة » حيث قال : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)^(٢) .

والقوة المرهبة قوتان : الأولى تتعلق بجميع المسلمين ، وعلى كل جماعة مسلمة أن تعمل للحصول عليها على قدر ما تملك : والثانية تتعلق

(١) د . مصطفى السباعى ، من روائع حضارتنا ،

(٢) الأنفال ، ٦٠ .

وقائع الخلاف والنزاع التي نالت وراء جميع صور الغسل التي تعرض لها المسلمون .

يذكر القرآن الكريم ان المؤمنين بعضهم اوليا بعض . وهكذا قالوا فليسوا بعضهم اولياء بعض . وهذا يعنى وجود اختلافات فطرية فى الطبائع البشرية ؛ فإذا كان هناك شخص موزون الإرادة فإنه سوف يبحث عن عوامل الاشتراك بين أفراد البشر التي تضمهم وتجمع بينهم . يبدون هذه العوامل المشتركة لا يمكن لى عهد أن يحتق أى نجاح فى هذه الدنيا ، فإن الاخلاص للهدف يجبر موزون الإرادة على أن يتخاض عن جوانب الخلاف ليوحد أهل جنسه ؛ وأهل الكفر مهما كان بينهم من فروق واختلافات فإنهم أيضا ينتقون على بعض النقاط . وهكذا شرغم الاختلاف الفطرى بين جماعة المؤمنين . ففى حياتهم الاجتماعية يوجد شىء يمكنهم من الاتحاد مع إخوانهم . وان حدث خلاف بينهم فإنه يحدث حين تخالط قلوبهم من الخير تماما . (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) (١)

٣ — والأمر الثالث اللازم لبناء الأمة يمكن استخلاصه من تلك الآية :

(وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) (٢) إن أهمية القوة المارحة فى دنيانا هذه يمكن أن نرى من مثال واحد :

تسابق كل من السلاطان صلاح الدين الأيوبي بهمر (١١٣٧ — ١١٩٣ م) والسلاطان تيبو بالهند بما يملكان من كفاءة عسكرية وشجاعة

(١) الأنفال ٧٠ .

(٢) الأنفال ٦٠ .

دخل محمد بن القاسم إلى منطقة باكستان الحالية عن طريق ملتان سنة ٧١٢ م ، ولم يدخل البلاد غازيا كما فعل محمود الغزنوي أو بابر . بل دخله بدين الرحمة وكما يقول أحد المؤرخين : « كان أعدل من انو شيردان وكان رحيمًا راعيا للرعية . وهكذا وخلال سنوات قليلة انتشر الاسلام من سواحل بحر العرب إلى كشمير . واعتبره السكان المحليون ملاكاً . وبعد عودته أقاموا له مأتماً (فبكى أهل الهند على محمد وصوروه بالكيرج — البلاذري) : وقد قام سليمان بن عبد الملك (ت ٩٩ هـ) بعزل محمد بن القاسم واستدعائه الى دمشق لسبب غير مفهوم في نفسه : وبعدها سجنه وتوفي محمد بن القاسم على هذا الحال وهو ينشد هذا البيت :

أنساغوني وأى فتى أضاعوا ليوم كريمة وسداد ثغر !

وتوقف زحف الإسلام على شبه القارة الهندية بعد محمد بن القاسم لمدة ثلاثمائة سنة . ثم بدأ الزحف الإسلامى ثانية : وتم بعزيمة أصحاب الهمم ثم انتهت بعد ذلك عاطفة نشر الإسلام لدى الجيل التالى من المسلمين . تلك العاطفة التى كانت تموج بقلب محمد بن القاسم . يكتب جواهر لال نهرو :

« إن الدولة العربية التى بلغت مدى كبيراً من الاتساع والتى بدأ ظاهرياً أن العرب لم يلقوا أية صعوبة فى سبيل الانتشار خارجها . لم تتمكن من التقدم إلى أبعد من السند فى الهند .. وبعد غزرون على فتح السند هجم المسلمون على شمال الهند . ومن الممكن أن يكون سبب هذا التوقف الصعوبات الداخلية التى واجهت العرب : لأن السند (بعد محمد بن القاسم) انفصلت عن القوة المركزية لبغداد وأصبحت دولة مسلمة مستقلة »^(١) وفى الفترة التاريخية التالية نشاهد هذا النوع من

(١٢٣٥) حاكما على منطقة خراسان وما وراء النهر . قام ابن خوارزمشاه بمنع ذكر اسم الخليفة في الخفصة . ووضع خطة للهجوم على العراق ليضمها إلى سلطنته . وعلم الخليفة الناصر لدين الله بالأمر وحتى يقوم بالقضاء عليه أرسل خطابا — سراً — إلى التتار ليهجموا على ابن خوارزمشاه وكان يعتقد أن ابن خوارزمشاه سوف يشتغل بهذا بقضية الدفاع عن نفسه . وإن يفكر في الهجوم على العراق ، واستفاد التتار من هذا الخلاف . فجهموا على ابن خوارزمشاه وقضوا على هذه السلطنة . ثم بدأوا يتحركون بقيادة جنكيزخان (١١٦٢ — ١٢٢٧) بقلب هادئ ليهجموا على سلطنة الناصر لدين الله . وقاموا بتخريبها وتحطيمها من أولها إلى آخرها .

وكان السبب في القضاء على الحكومة الإسلامية بأسبانيا هو أيضا الاختلافات الداخلية : ففي الوقت الذي هزم فيه مسلمو أسبانيا على يد الأمم المسيحية كان المسلمون يتفوقون عليهم في العلوم والتقنية تفوقا كبيرا ، ولكن سبب الهزيمة هو أن المسيحيين كانوا متحدين معا بينما كان المسلمون يتصارعون معا ، وبدأ عمال الأقاليم يعلنون العصيان وينفصلون عن مركز الخلافة مستقلين بما في أيديهم ، فأقاموا إمارات صغيرة مستقلة حتى أن أحدهم لم يكن يخجل من الاستعانة بالجيوش المسيحية لقتال المسلمين . لقد تمت هزيمة المسلمين السياسية في أسبانيا في آخر القرن الخامس عشر الميلادي حين استولى المسيحيون على قلعة غرناطة واستغرق إخلاء البلاد من المسلمين قرنا من الزمان ، ورغم عمليات الإبادة الجماعية التي حدثت ثلاث مرات إلا أن آخر قوافل المسلمين خرجت من أسبانيا سنة ١٦٠٥ ، وكان السبب في هذا هو سيطرة المسلمين هناك على الاقتصاد والآداب والفنون ، ولهذا فرغم القضاء على سلطتهم السياسية . لم يكن من الممكن إخلاء البلاد منهم على الفور . وهكذا كانت نتيجة الخلافة . فحين عمهم الخلاف لم تكن هناك من غادة لأي عمل يقومون به .

« عن عبادة بن الصامت قال : خرج انبى ^١ ليخبرنا بليلة القدر فتلاحى رجلان من المسلمين فقال : خرجت لأخبركم بليلة القدر فتلاحى فلان وفلان فرفعت » (١) •

وبعد أن نقل ابن كثير هذه الرواية علق بقوله : « يفهم من هذا الحديث أن الإسلام ينبذ انزعاج بين المسلمين لدرجة أن البركات تنصاع بسببه » •

والأمة المحمدية تحمل « كتاباً محفوظاً » ولهذا فلا يمكن لأحد أن يفتنى عليها غوذه الأمة ستظل باقية طالما بقي القرآن على هذه الأرض ، ومعنى هذا أنه لا يمكن لأية قوة خارجية أن تنصيبها بضرر حقيقى ، وإذا أصيبت بضرر فسيكون من جراء غفلتها الداخلية ، ويأتى على رأس هذه الغفلة النزاعات الداخلية ، قال ^٢ فى خطبة حجة الوداع : « ألا لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » (٢)

واند أثبت التاريخ بطريقة محببة هذه التنبؤات فى القرن الثالث عشر الميلادى حدث حُوران التتار الذى غداى العالم الإسلامى بالقتل والدمار وجعل منه مقبرة . هذا بينما مر على العالم الإسلامى عصر شهيد ظهور صلاح الدين الأيوبي (١١٣٧ — ١١٩٣) الذى هزم الأمم الصليبية هزيمة منكرة . وكان لهذه الحادثة أثرها فى تثبيت الكفاءة الحربية للمسلمين لدرجة أن أية قوة سياسية لم تكن لتجرؤ بعدما على التحرك تجاه السلطنة الإسلامية ؛ إلا أنه بعد وفاة صلاح الدين الأيوبي بأقل من عشرين سنة كان هجوم التتار على العالم الإسلامى ؛ لقد كان السبب الرئيسى والوحيد لما حدث هو الخلافات الداخلية . فائناء تلك الحملة كان السلطان الناصر لدين الله (١١٥٨ — ١٢٣٥) قائما على اخلافة فى بغداد بينما كان علاء الدين محمد بن خوارزمشاه (١١٢٠ —

١١ بخبر تفسير من تفسير ، المجلد الثالث ، ص ٦٢٢ .

٢ من حديث أحمد عن أبي هريرة الترمذى .

أن شخصياتنا هذه لم تتمكن من فهم فرق الزمان فقد ركزوا كل اهتمامهم في الزمن الحالى على السياسة قياساً على الماضى ، لم يبذلوا أى جهد حقيقى في سبيل تطوير وتعزيد اقتصاد المسلمين ، ثم إن الاقتصاد في زماننا الحالى يرتبط ارتباطاً وثيقاً ببقية العلوم الجديدة ، التى تنفيذ في جميع الأعمال ابتداء من الفلاحة حتى استخدام الآلة ، وهنا أيضاً اثبت المسلمون غفلة محيرة ، فلم يفهموا العلاقة الجديدة بين التعليم والاقتصاد وقنعوا وظلوا على قناعتهم بالعلوم التقليدية لقرون من الزمان ، وانغمسوا في ذلك لآخر مدى وظهرت نتيجة هذه الغفلة في النهاية ، وجاء جيل بعد جيل حتى أصبح العالم فيهم جاهلاً إذ ما قورن علمه بالتطور العلمى في عصره .

٢ — والشىء الثانى اللازم لبناء واستحكام الأمة هو الاتحاد :
« ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم »^(١) ومن المعروف أن الاختلاف ينبت الجبن ويقضى على المهابة التومية . وعلى العكس من هذا إذا ما اتحدت الأمة فإن شخصاً واحداً يساوى مائة ألف شخص ، فالاتحاد يولد لدى الناس الهمة والثقة بالنفس ويعلى من سمعة المسلمين بين الأمم وأهمية الاتحاد في الدين أهمية كبرى حتى انه لا يستحب أن يوجد في مسجد واحد مجالسان في آن واحد .

رأى ابن مسعود حائتين في مسجد الكوفة ، فقام بينهما فقال :
أيكما كانت قبل حاجبتها ؟ قالت إحداهما : نحن ، فقال للأخرى : قوموا إليها فجعلهم واحدة » (رواد الطبرانى في الكبير)

وبناء على أهمية الاتحاد قدم الصحابة انعقاد الخلافة على تجهيز وتكفين النبى ﷺ بعد وفاته : جاء في إحدى الروايات :

العصر الحديث تغير معنى الاقتصاد تماماً : فأكبر وسائل امتلاك الاقتصاد الآن هى الصناعة والتجارة حتى أن الزراعة أيضا أصبحت فى العصر الحاضر إحدى الصناعات ، لقد تدخلت التقنية الحديثة الآن فى كل شئى حتى تحولت الثروة بطريفة طبيعية إلى أيدى أولئك الناس انذين يملكون التكنولوجيا ، وتمثل القضية القومية الأساسية للمسلمين فى أنهم لم يتقدموا أبداً عن عصر الزراعة التقليدية والتجارة التقليدية، والنتيجة هى أنهم أصبحوا أمة من الدرجة الثانية من الناحية الاقتصادية فى العالم ، هذا باستثناء الدول التى تملك الثروة نتيجة لمخزون المصادر الطبيعية دون أن تبذل أى جهد ، وعلى سبيل المثال دول الخليج العربى وذلك بسبب البترول •

فاذا أراد المسلمون أن يعيشوا فى هذا العصر الحديث فعليهم أن يفهموا المتغيرات الاقتصادية الجديدة وذلك بصورة أساسية وضرورية وأن يعملوا على مسايرة اقتصاديات العصر الحاضر وإلا ظاوا فريسة سهلة لسيطرة الأمم الأخرى ثم يصبحون فى النهاية أمة منبوذة اقتصادياً بين دول العالم •

وحركات المسلمين الكبرى التى ظهرت فى العصر الحاضر راحت — بدون استثناء تقريباً — ضحية هذا الخطأ ؛ فقد أعطت للثورة السياسية اهتماماً أكثر مما تستحق بينما الاقتصاد وماله من صلاحيات ومكانة فى عصرنا الحاضر يحتل المكان الأول ويليه بالدرجة الثانية السياسة فالسياسة هى اليوم فى يد أولئك الذين يمتلكون الاقتصاد ومن لا توجد فى يده القوة الاقتصادية لا تكون له أية سياسة •

فى فترة قريبة مضت أنبتنا شخصيات رفعناها إلى اليمىالاي من الناحية السياسية ، ورغم هذا لم تحصل على المكانة التى كان يجب أن تحصل عليها مثل هذه الشخصيات العظيمة ، والسبب الوحيد هو م ١٣ — واقعنا ومستقبلنا

وتترجم كلها جميعا حرفا حرفا إلى اللغة الإنجليزية ويتم نشرها بعد ذلك .

ما هي الأسس التي توضع عليها عملية بناء واستحكام الأمة ؟
أوضح القرآن الكريم ثلاثة أصول خاصة :

— قيام الأمة

— الانتصاد

— القوة المربهة

١ — عبر القرآن عن المال بالقيام (أموالكم التي جعل الله لكم قياما) (١) ويأتى القيام أيضا بمعنى العون والتعاضد (Support) . قام على عياله أو هو قيام أهله . ويقال أيضا حين يكون الشخص عوناً لأهله وعياله . وقد جعل الله المال أو الاقتصاد عوناً اقتصادياً للإنسان في هذه الدنيا . وعن طريقه يستطيع أن يسد حاجات حياته التي يتمكن بها من الحفاظ على جسده . ومن هنا فهو يصبح مالكا لتلك الوسائل التي توجد في هذا انعالم المادى والتي تحتاج بالضرورة إلى قدر من الجد والكفاح للوصول إلى النجاح . وقد جاء من بين دعاء النبى : اللهم إني أعوذ بك من الفقر . وتعجبت عائشة وسألت الرسول . أتلت هكذا ؟ فقال نعم يا عائشة . (كاد الفقر أن يكون كفراً) .

وقبل خمسمائة سنة كان المسلمون يسيطرون على اقتصاديات العالم . ولكنهم اليوم حرموا من « القيام » الاقتصادى . والسبب هو أنهم لم يفهموا اقتصاديات العصر الحديث . ولهذا فشلوا أيضا في أن ينهضوا ويتطوروا باقتصادهم . ففى العصر القديم كان الاقتصاد مقصورا على الإنتاج الزراعى (الزراعة والفلاحة والبستنة) ولكن في

الوحيد في المؤتمر الذي يرتدى القبعة وقد استقبله بقية ممثلي البلاد الإسلامية بانقباض شديد^(١) .

ماذا فعل لينين بعد السيرة على الحكم في روسيا ؟ لقد أنشأ لجنة للترجمة من اللغات العالمية في سنة ١٩٢٢ وأسمها Aminolit . وكان عملها جمع كتب العلوم والتقنية المكتوبة باللغات الأجنبية . وترجمتها إلى اللغة الروسية . واعتبر لينين هذا العمل مهما لدرجة أنه أنشرف عليه شخصيا رغم اشتغاله بالعديد من الأعمال الأخرى . وكانت النتيجة جمع العديد من الكتب التي ملئت ذخيرة خضفه بروسيا واستمر هذا العمل حتى أنه اليوم يصدر جرنال روسي بعنوان Referativy idurnal . يحتوي كل عدد منه على ملخص لليون مقاس علمي وتقني صدرت بسبعين لغة في ١١٧ بلدا . وحتى يتم هذا العمل تم تعيين مائة ألف خبير مترجم في هذا الجرنال . كما يضم غرين المترجمين انخاص لاتحاد معاهد المعلومات والتكنولوجيا All Union Institute For Scientific and technological information

الفين وخمسمائة مترجم بالاضافة إلى ٢٢ ألف خبير مترجم يعملون بعض الوقت ، وفي روسيا الآن أكثر من خمسة آلاف مؤسسة علمية تضم تقريبا مليون عالم من بين أعضائها . كما تم وضع نظام تعليمي في روسيا ضمن وجود عدد ضخم من يستمعون للكتابة والترجمة بلغتين في وقت واحد . وكان من نتيجة هذا العمل المتواصل أن كانت روسيا أول بلد يرسل أول قمر صناعي إلى الفضاء (١٩٥٧) . وذلك في تاريخ الانسانية . ويحتل العلم الروسي والتكنولوجيا الروسية أهمية كبيرة لدرجة أن ٢٥٠ جرنالا علميا روسيا تطلب في أمريكا

١ Ifan Orga Margarete, Ata tuk Michael Joseph Ltd,
London, 1967 P. 965

(١٩٢٢) فى زمن واحد تقريبا . أضف إلى هذا أن مؤسس الثورة التركية مصطفى كمال أتاتورك (١٨٨١ — ١٩٣٨) عاش أربع عشرة سنة فوجد فرصة للعمل أكثر مما وجد مؤسس الثورة الروسية فلاديمير لينين (١٨٧٠ — ١٩٢٤) إلا أن الوضع الآن هو أن الروس يرسلون بمراكبهم الفضائية إلى الفضاء . والأترك لم يتمكنوا بعد من تثبيت أقدامهم على الأرض .

وهذا الوضع ليس مجرد صدفة محضة إن وراءه أسباباً تاريخية عميقة . فحين استولى كمال أتاتورك على السلطة فى تركيا رأى بل استند أن سر الترقى والمدنية يكمن فى تقليد الحضارة الغربية تقليداً كاملاً . فغير « الدولة الدينية » القديمة إلى دولة « علمانية » وقضى على قانون الشريعة الإسلامية وطبق فى تركيا القانون الديوانى السويسرى . والقانون العسكرى الإيطالى . والقانون الدولى التجارى الألمانى . ومنع التعليم الدينى وأصدر قانوناً ضد الحجاب ، وطبق التعليم المختلط وقضى على اللغة التركية المكتوبة بحروف عربية واستبدل بها الحروف اللاتينية . ومنع الأذان باللغة العربية ولم يسمح بالذهاب لأداء غريضة الحج بمكة وغير الزى القومى وأصدر قانوناً يلزم لبس القبعة حتى أن مسألة لبس القبعة أصبحت وكأنها حرب منظمة داخل تركى . وأعدم العديد من الناس لأنهم رفضوا خلع الطربوش وارتداء القبعة . وأعتقل آخرون وأعدموا لأنهم استنزأوا بالقبعة أو رفضوها . وبعد حرب شديدة نجحت مهمة إلbas الشعب التركى القبعة وعان كمال أتاتورك انتصاره فأرسل إلى المؤتمر الإسلامى بمكة (١٩٢٧) مندوباً من البرلمان يدعى أديب ثروت للاستراك فى المؤتمر ممثلاً لتركيا . وكان أديب ثروت هو الممثل

بناء الأمة

مع ان الدعوة الإسلامية بدأت في منطقة لم يؤمن فيها بالإسلام سوى لدعى فقط فقد ظل التركيز مستمرا على حركته الدعوة الإسلامية بالإنذار والتبشير . واداما وجد من آمن بالإسلام أصبح من واجب الداعي بالضرورة العمل على تجميع هؤلاء الناس وبنائهم داخل أمة . كما نشاهد بالنسبة موسى عليه السلام : فقد صدر الحكم الإلهي له بالذهاب إلى فرعون وإلى أقباط مصر ليطلعهم على اليوم الموعد (انزها إلى فرعون إنه طفي) (١) ومن ناحية أخرى ظل يقوم بعمله الأخرى وهو تخليص منسمى ذلك الوقت (بنى إسرائيل) من العذاب الفرغوني (فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم) (٢) وهذا العمل الثاني عبر عنه الكتاب المقدس كما يلي :

(تخليص أمة من لمسيه) [الأعمال ٧ : ٣٥]

ولقد وقع تأثير ما يطلق عليه اسم تعمير الحديث على المسلمين بصورة واضحة لأن الأمم تعربيه — التي سيطرت على العالم بتقوتها الجديدة — كانت تمثل العالم الذي سيطر المسلمون على الجزء الأكبر منه . وكان رد الفعل الطبيعي لظهور حركات تهدف إلى إعادة بناء الأمة الإسلامية . وظهرت هذه الحركات على نطاق واسع . وهدفت إليها منذ سنة الآن . ولكن لم يتمكن المسلمون حتى اليوم من استرجاع مكانتهم النائية . والسبب هو أنهم لم يستطيعوا فهم أساس قنيتهم . وظلوا يبحثون عن مستقبلهم وسط تدابير سطحية وعاطفية لقد نامت الثورة الاشتراكية الروسية (١٩١٧) والثورة التركية

الإسلامية رغم أنها بالطبع متعامدة مع الإسلام إذ أنها من حيث المراجع ليست على استعداد كامل لإعلان قيام دونه دينية خالصة . ومصر وباكستان واندونيسيا أمثلة على هذا الأمر : رغم ما حققته الحركات الإسلامية في تلك البلاد في وسد الفتن الحالية من نهضة ونجاح إلا أنها — للأسف — لم تنجح في تطبيق الشريعة الإسلامية . ولقد توفرت لمصلحين الفرح لأنهم في بلد إسلامي . وتوفرت لهم سبل الدعوة الإسلامية بطريقة مؤثرة . إلا أن كل هذا ضاع وانتهى نتيجة للخلافات والاحتجاجات السياسية .

نقد اختار رجاء بن حيوة مرافقه الحاكم الاموي سليمان بن عبد الملك شاعده لينصب للخلافة من بعده عذر بن عبد العزيز (٦٨٢ — ٧٢٠) . وقد قبل القاضي أبو يوسف منصب قاضي القضاة في عهد هارون الرشيد ليوضح للناس كيف يمكن للإسلام أن يقضي في الظروف المتغيرة للزمان . والشيخ أحمد سرهندي (١٥٦٤ — ١٦٢٥) نقابن مع الامبراطور المغولي جهانكير ونجح في محاولة القضاء على بدع أكبر .

هذه الطريقة في المصالحة مع الحكم كانت وسيلة المسلمين السابقين في العمل من أجل الإصلاحات الجزئية . ولو أن مصلحي وقتنا الحاضر قد قاموا بمثل هذا واتخذوا منه وسيلة لحركات إحياء الإسلام فإنهم بذلك سيؤدون عملا عظيما من أجل رفعة الدين وغلبة الإسلام . عمل مازلنا نفكر فيه الآن . نفكر فيه فقط ولا نفعل شيئا من أجل تنفيذه .

ولكن مامعة اكثرهم هم يكن سوى تضييع هذه الفرصة والجري وراء غرض اخرى لم تكن لتتوافر فى ذلك الوقت فقد فهموا العمل على امة حراع سياسى مع اهل السطاهان حولهم العديد من الفرص التى تنتج لهم اهم الاعمال : 'الاصلاح الاخلاشى' ثمسين. إعداد أدب إسلامى يلائم 'تعمير' الجديد . بناء الامة الإسلامية بناء صناعيا وعلميا ، العمل على وحدة العالم العربى . إنعاء الخوء على أهمية القود الطبيعية الضخمة للبترول والاستفادة منه ؛ تبليغ الإسلام فى قبائل إفريقيا غير المسلمة 'لنى' نتظر قدومنا منذ قرون ؛ العمل على رفع المستوى التعليمى والاقتصادى للمسلمين فى بلاد إفريقيا المسلمة فنتيجة لانخفاض المستوى التعليمى والاقتصادى . سيطرت عليهم الأقلية المسيحية هناك . لكن هذه القيادات العظيمة رغم إخلاصها الكبير ورغم ما صدر عنها من تخشعات غالية لم تتمكن من القيام بأى عمل من تلك الأعمال السابقة على سبيل المثال .

وهناك خطأ اجتهدى لدى المصلحين المسلمين فى العصر الحاضر ؛ فقد اعتقدوا أن من الواجب البدء فى المطالبة بتنفيذ الشريعة الإسلامية فى تلك البلاد التى توجد بها أكرية مسلمة والتى يحكمها المسلمون سياسيا . وكان هذا خطأ ما بعده خطأ ولا توجد له من نتائج عملية سوى أنهم صاروا حزباً معارضا فى بلدتهم واستقر أمرهم على هذا . وإذا كانت الظروف الخاصة فى البلاد التى توجد بها أقلية مسلمة تفسح القضية على عائق 'الأكرية المحلية' غير المسلمة ، فإن ذات القضية فى البلاد التى توجد فيها أكرية مسلمة تتمثل فى الظروف العالمية . بالإضافة إلى أن من يسيطرون على جميع غروع الحكومة فى البلاد المسلمة إنما هم أولئك الذين درسوا فى إدارات ومؤسسات على الطراز الغربى لأنهم هم الذين يملكون الكفاءة التى تمكنهم من إدارة البلاد فى هذا العصر الجديد . ولهذا فإن الطبقة الحاكمة فى البلاد

لقد وجد محلحو الأمة في العصر الحديث فرساً للعمل لا حصر لها . فقد كان (عبد القهار مذكر) في أندونيسيا (١٩٠٢ — ١٩٧٣) من الأصدقاء المقربين للرئيس سوكارنو . وتمكن من البدء في اتخاذ إجراءات وأعمال كثيرة في سبيل رقي الدين واستحكامه في البلاد . كان لها عظيم الأثر في تشكيل المجتمع في أندونيسيا حتى بعد غيابه وبعد غياب سوكارنو إلا أنه اختلف مع الحكومة في ذلك الوقت على مسألة تشكيل الدستور الإسلامي وكانت النتيجة أن انتقل من هذا العالم ولم تصدر عنه سوى الاحتجاجات والشكوى فقط .

ثان هذا هو الحال بالنسبة لجميع البلاد الإسلامية في ذلك الوقت ، فمصر والشام جعلتا على مكانة الزعامة والقيادة الفكرية في العالم الإسلامي نظراً لما تنتهجان به من مميزات تاريخية وجغرافية . وقد وهبهما الله العديد من الشخصيات الإسلامية . وحين التقى جمال الدين الأفغانى لأول مرة بالأمير شكيب أرسلان صدرت منه على الفور هذه العبارة :

« أنا أهنئ أرض الاسلام التي أنبتك »

ولو نامت هذه الشخصيات العظيمة التي ظهرت في هذه المنطقة في العصر الحاضر بالاستفادة الصحيحة من الامكانيات العملية ، ولم تصدم حدامات غير ضرورية مع أصحاب السلطة لشهد العالم الإسلامي اليوم تاريخاً جديداً . لقد كانت هذه الشخصيات قد وجدت الفرصة للعمل في المنطقة الإسلامية واستمر عملها من حيث المجموع لفترة زادت على قرن من الزمان ، وهم لم يبالوا فقط شهرة واسعة بين عامة الناس بل كان من بينهم من له تأثير كبير لدى الحقيقة الحاكمة . مما كان يعطيهم فرصة كبيرة للإصلاح الديني .

مسنوره داحد ناريتج البتريه . وعد بدا العصر الحدي من هدا
المحلى من ديون (١٦٤٢ - ١٧٢٧) .

وند ساء ونى الله دهنوى (١٧٠٣ - ١٧٦٢) حين كان نيوتن حيا .
وند صور كتابه المسنور عن النسبية (فى ١٦٨٧م) . إلا أنه حين
حضمت الأمم المعادية للإسلام هيكل العلم التقليدى . وبدأت فى ايجاد
علم جديد أين بعض المحلحين فى ذلك الوقت ترك هيكله التقليدى .
وسم يتمن من الترفيق أو النجاح فى غير تفسيه العصر . نقد نرح
بعضهم نرحا واغيا نروحات التصوف التسانع . ثم ظهرت
فى تلك الفترة الثورة الفكرية التى أطلق عليها
« الجمهورية » . فقامت جمهورية السورة الفرنسية (١٧٨٩) وانفصل
أهل امريكا عن انجلترا وأقاموا حكومتهم القومية (١٧٨٣) . ومع
أن ذلك حدث بعد هذا العهد إلا أن العوامل الفكرية لكل هذه الأمور
كانت قد اكتملت فى هذا الزمان حتى أن روسو كان معادراً تماماً لهذا
العهد ولكن الضوفان السياسى كان له تأثير بعيد المدى : فى هذا
العصر . نتحدث الثورات الجمهورية فى أوروبا وأمريكا . إلا أنه
صعب على مدلى هذا العصر أن يقيموا للمسلمين خطاً مؤثرة لحركة
اجتماعية تتلاءم مع ظروف العصر الحديث فى ضوء الدين فى وقت
كانت فيه أصول الجمهورية أو بعبارة أخرى حكم الأغلبية مسلمة
سياسية معترفا بها فى العالم . وضخى العلماء والمفكرون جيلا بعد
جيل بالروح والمال فى سبيل قيام حكومة ذاتية على أساس القومية
الوطنية ، ولم يكن من السهل أن نتوقع تمكن الأغلبية المسلمة من الفوز
بالغلبة فى بلادنا هذه مرة ثانية حيث أعوزتهم الدراية بالمتغيرات
السياسية الجديدة فى الوقت الذى وقعت فيه ثورة ١٩٤٧ ، واتخذت
القرار الأخير . وأجبرت المسلمين على أن ينكمشوا . وهم يشاهدون
بحسرة أمانيم المقتولة ، وهكذا يمضون من هذه الدنيا .

بخارى فى سنة ١٦٩٨ م وذلك، إبن حشم الامبراطور عالمكير للهند .
وكان نموذجا لامبراطور ادى جمع بين الدين والسياسة •

ومن ناحية اخرى كان السلطان احمد الثالث (١٦٧٣ — ١٧٣٦)
يعتلى عرش الامبراطورية العثمانية . إلا أن كلا من الامبراطورية
المغولية والامبراطورية العثمانية كانتا بمعزل عن العالم ، فلم تعرفا
بخبر هذه الثورة التى حدثت فى موازين الطاقة . تلك الحافة التى
انتشرت وكانت فى النهاية سببا فى التضاء على هاتين الامبراطوريتين

وهناك حادثة اخرى لها اهمية كبيرة من وجهة النظر الإسلامية ،
وتتمثل فى اختراع المطبعة . ويقال إن اول من نجح فى بناء مطبعة من
الخشب كان ألماني يدعى كوتن برن (١٣٩٨ — ١٤٦٨) وقام ولیم
نيخولون الانجليزى ببناء اول مطبعة من الحديد . وحسم اول مطبعة
تعمل بالآلة . كان هذا فى سنة ١٧٩٠ فى الوقت الذى حقق فيه بعض
المسلحين نجاحا كبيرا فى حركتهم ضد « ابدع » • فى هذا الوقت
كانت جريدة التايمز اول جريدة طبعت بمطبعة تعمل بمحرك بخارى فى
٢٩ نوفمبر سنة ١٨١٤ فى وقت كانت تعيش فيه شخصيات إسلامية
كبيرة . إلا أن العالم الإسلامى كله لم يفتح رجلا واحدا يشعر بأهمية
الأمر فى حينه ويدرك أن هناك حافة جديدة ظهرت فى العالم اسمها
المطبعة وقريبا ستسيطر على عقول الدنيا كلها . وأول من أدخل
المطبعة إلى مصر هو نابليون (١٧٦٩ — ١٨٢١) ومن مصر انتقلت
المطبعة إلى البلاد العربية تدريجياً •

وهناك أمر آخر يحتل مكان الصدارة من وجهة النظر الإسلامية.
وهو ما يطلق عليه « العلم الحديث » • بدأت الإراهاصات الأولى
لظهور العلم الحديث منذ فترة طويلة عبر التاريخ البشرى ، إلا أننا
نلاحظ دائما أن عصر العلوم كان ينتقل من مرحلة إلى مرحلة أخرى

أن أحدا لم يدر عن هذه الواقعة فقد كان الجميع يطوفون في غلهم
أرواحى حتى يتمكنوا من الوصول إلى اجتادات في أبحاث معقدة
عن وحده الوجود ولذا ظلوا لا يدرون شيئا عن هذه الواقعة التي
حدثت ببلدهم . فقد طورت الأهم الغربية قواتها البحرية وسيطرت
على سواحل البلاد . ثم وصلت قواتها إلى حد السيطرة على المنطقة
استراتيجية للهند حيث من مدراس إلى بمباى وإلى كلكتة وأصبحت
« سلطنة دهمى » أمام هذه القوات بلا حول وبلا قوة . فقد كانت
الأمبراطورية المغولية مشغولة بفتنة أكبر : تحاول إصلاح ما أفسدته
هذه الفتنة إلا أن فتنة البرتغاليين لم تنتزع لهم وكانت من حيث نتائجها
المتوقعة أكثر خطراً من فتنة أكبر . وكان حيدر على (١٧٢٢ — ١٧٨٢)
والد السلطان تيبو هو أول من شعر بأهمية القوة البحرية فحاول
إقامة مصنع للسفن البحرية في جزيرة (مالديف) إلا أن الوقت كان
قد ولى . فلم يحقق أى نجاح فى مشروعه .

والنقى الذى اوجد عنصر القوة والغلبة فى العصر الحديث
هو الآلة . وقد بدأت ثورة الآلة باكتشاف البخار : أى الاستخدام
الصناعى لقوة البخار . فقد كان اكتشاف محرك البخار عاملاً لإمكان
وجود صناعة حديثة . كان الإنسان قبلها يستخدم قوته العضلية ،
أو يستخدم الحيوان أو الماء والهواء فى بعض الأحيان ، أما الآن
فهو يمتلك هذا المحرك الذى يعمل بقوة آلاف حصان . والذى بدأ يمد
المصانع بالقوة والضاقة . وأخذ يجرى بالإنسان بسرعة فائقة على البر
وفى البحر . هذه هى قوة الآلة التى مكنت أهل الغرب من هزيمة العالم
التقليدى القديم والسيطرة عليه .

كان أول من اكتشف أول محرك بخارى الإنجليزى تومس
سيورى (١٦٥٠ — ١٧١٥) ومن المحير أن تومس سيورى كان معاصراً
لأونكريب (١٦١٨ — ١٧١٧) وقد صمم تومس سيورى أول محرك

اندكس والكجرات ووصلوا إلى سواحل مدراس ، ومن هناك وصلوا إلى البنغال الشرقية وأسام ومنها عبروا إلى الصين وانتشروا وهم في طريقهم هذا في جزر مالديف وسيلان وسنغافورة وجاوا وسومطرة وبقية الجزر المحيطة بها وأصبحت معابهم التجارية مراكز لمحاولات نشر الإسلام • إلا أن هذه المحاولات قد انتهت مع نهاية القرن الخامس عشر • ففي سنة ١٤٩٨ م وصل فاسكو دي جاما عن طريق رأس الرجاء الصالح إلى السواحل الجنوبية للهند ودخل مدينة (كاليكت) وقام البوقرق في سنة ١٥١١ م بالاستيلاء على « ملكا » وأقام قوة بحرية برتغالية في بحر الهند • ثم خضعت جاوا لسيطرة البرتغاليين : وكانت سيطرة البرتغاليين على بحر الهند في زمان أكبر (١٥٤٣ — ١٦٠٥) قد وصلت إلى حد قيامهم بسلب ونهب امتعة الحجاج المتوجهين إلى مكة من الهند • وكان من بينهم عادة بعض أفراد الأسرة الحاكمة والأمراء • ويقول أحد المؤرخين : « رفرفت راية الامبراطور المغولي على الحريق البري بينما كان البرتغاليون يملكون البحر » •

سيطر البرتغاليون على بحر الهند وحرموا العرب من تجارة جنوب الهند : ولم يعد من الممكن للعرب الوصول إلى الهند عن الطريق البحري الذي لم يكن أسهل السبل للسفر فقط بل كان أسهل السبل لنقل الأمتعة والبضائع التجارية • بعد انقطاع العلاقة بين جنوب الهند والتجار العرب توقفت عملية الدعوة إلى الإسلام ، وانتشر في تلك المنطقة كلها ، وأصبح هذا الأمر حكاية يذكرها التاريخ •

بعد وفاة فاسكو دي جاما بأربعين سنة ولد الشيخ أحمد سرهندي (١٥٦٤ — ١٦٢٥) وكان زمانه موافقا لتلك الحادثة التي وقعت على ساحل الجنوب والتي صنعت تاريخا جديدا لهذا البلد ، إلا

عنق « معارص الإسلام » بل إن سبب هذا الفضل هو أن الأسلوب البري، لحاملي رايات الإسلام تمثل في محاولة إنشاء منارة سياسية إسلامية في بلدهم دون تغيير الطريقة الفكرية للجماهير وذلك فيما يتعلق بالنواحي الاجتماعية . وهكذا أيضا غنسل الإسلاميون في إقامة حكومة إسلامية وكان السبب في ذلك أيضا هو أنهم اغترضوا — على الرغم من مستلزمات العصر — إمكانية إقامة سورة إسلامية على أساس نظري فقط .

قضية جديدة :

إن ما نخلق عليه « تخليه الإسلام الجديد » بدأ منذ خمسمائة سنة حين اكتشف الملاح البرتغالي غاسكودي جاما (١٤٦٠ — ١٥٢٤) الطريق البحري بين الشرق والغرب . ومن ناحية أخرى عبر البحار الايطالي كرسطوفر كولومبس (١٤٤٦ — ١٥٠٦) الأطلسي فربط العالم القديم بالعالم الجديد برباط بحري . بعد هذه الاكتشافات دخلت الملاحة البحرية عمراً جديداً .

وحتى القرن الخامس عشر الميلادي كان هناك طريقان للتقدم من اوروبا الى الهند : الأول طريق بري والثاني بحري وهو المؤدى إلى الشام ومصر . وكان الطريقان كلاهما في يد العرب . وكان انتجار العرب في ذلك الوقت يسيطرون على المناطق الساحلية لجنوب الهند ؛ وعنى ضوء نجاحهم التجارى انتشر الإسلام في تلك المناطق بسرعة . وأصبح عدد المسلمين في منطقة ما لآبار كثيرا لدرجة أن الحاكم الهندي في ذلك الوقت عين لهم قاضيا مسلما ليفصل في أمورهم المتنازع عليها . وكان يطلق عليه « هنرمند » أى صاحب العلم والفضيلة ، وقد قدم التجار العرب الى السند من موانئ خليج فارس ومن أشهرها سيراك والبصرة . ثم عبروا البحر ومضوا على سواحل

كيف تحلمت هذه الشاكلة ؟ إنها قصة لها تاريخ طويل يمتد إلى
غرن نظرياً • استعمل مصطلح « الاشتراكية » بالمعنى الاقتصادي
الحالى لأول مرة سنة ١٨٢٦ م فى جريدة بريطانية تدعى
Operative Magazine؛ وظهر بعدها عدد من المفكرين كتبوا كتباً رائعة
دفاعاً عن هذه النظرية . فأوجدوا ما عرف فى دنيا الأدب باسم
الأدب الاشتراكى وقد كتب ماركس كتابه بعد فراءات استمرت
خمساً وثلاثين سنة . وبعدها ونتيجة لهذا الطوفان الفكرى ظهرت عدة
حركات كبرى تمخضت عنها حركة الاشتراكية والبلشفية . والاشتراكية
المسيحية والثيوعية وغيرها . هذا بالإضافة الى انتشار شبكات
حركات التحرير واتحادات العمال فى العالم كله • وفى سنة ١٩١٧ م
ظهرت حكومة اشتراكية فى روسيا . وبعدها بدأت عملية نشر الأفكار
الاشتراكية على مستوى حكومة منظمة أضافت الى قدرها ونوعيتها
إضافات ضاعفت من حجمها آلاف المرات ، وهكذا أمكن نزع الملكيات
الخاصة للناس فى مساحة ضخمة من الأرض . وأقيم النظام
الاشتراكى واعترف الفكر العالمى بهذا العمل كإجراء اقتصادى مشروع
فى العصر الحاضر . وهكذا فإن تحطيم شاكلة الإلحاد يستلزم هذا
النوع من الكفاح والجهاد الطويل ، وبدون هذا الأمر لا يمكن إحلال
الإسلام محل هذه الشاكلة فى دنيا اليوم •

لقد فشلت حركة الخلافة أو حركة الوحدة الإسلامية رغم جميع
إمكاناتها ، ولم يكن السبب فى ذلك حقيقة « مؤامرة » ما ؛ بل أن
الظروف العالمية فى ذلك الوقت قضت على تلك الحركة فحين يجذب
طوفان الأفكار الدنيا كلها ناحية القوميات الجغرافية فلا يمكن أن تقف
ضدها أية جزيرة ؛ إلا أنه عن طريق طوفان مضاد يمكن تغيير الأفكار
العالمية • إن مسئولية فشل بعض الجماعات الإسلامية فى مصر لا تقع على

الحكيم من أجل توجيه الكائنات بحسبها ومعنوياتها ، فالأسباب المعروفة تكفى لتوجيه هذه الكائنات . ورغم زيادة قوة مشاهدة الإنسان ملايين المرات عما كانت عليه قبلا وذلك عن طريق الوسائل الآلية ، إلا أنه لم يقرأ له « عالم آخر » خارج العالم المحسوس . وبعدها استقر فى الأذهان أنه لا يوجد أى عالم آخر غير عالمنا هذا ؛ ففى الزمان القديم كان القمر يعد إنيا والآن داست أقدام الإنسان هذا القمر .. هذه الأحداث وغيرها غيرت الفكر الإنسانى تغييرا كاملا وبدأ شكل جديد من التفكير يحتل مكانه فى الدنيا وهو ما عبرنا عنه بعبارة « شاكلة الإلحاد » وكان غشل حركات التجديد وإحياء الدين التى ظهرت فى العصر الحالى راجعا إلى أن من تنموا بها رأوا أنه يكفئهم الخى على أسلوب التذكير والتسويق التقليدى فقط قياسا على مجددى العصر الماضى ، وظلوا على هذا الأمر بينما الزمان راح ومضى من حيث جاء حين كان الأسلوب الأول هو استخدام القوة لتحطيم شاكلة الزمن . لأنه اذا لم نتحطم المشكلة فإن الإسلام لا يمكن أن يحتل مكانه الصحيح فى الوقت الحاضر .

ماذا يجب علينا أن نفعل لتحطيم شاكلة الزمن ؟ هناك مثال على ذلك وهو الاشتراكية ؛ فقبل الاشتراكية الجديدة كانت الدنيا كلها تعترف باحترام الملكية الفردية فى جميع الأحوال ولم يكن لأحد أن يتصور سلب شخص ما ملكيته الخاصة فمن يفعل هذا من الناس فهو فى نظرهم غاصب وظالم . إلا أن هذه الشاكلة الاقتصادية تحطمت اليوم . وأصبح هناك ما يسمى « بالملحة الاجتماعية » التى احتلت أهمية تفوق الملكية الفردية . وأصبح من المسلم به أنه من حق الحكومة أن تنزع ملكية من تشاء كما تشاء باسم الملحة الاجتماعية .

» عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال هذا « خلق الله الخلق فمن خلق الله » فمن وجد غنى نفسه شيئا من ذلك فليقل بالله تعالى « (١) » .

كانت هذه هى التنبؤات الخاصة بالدور التالى حين تتحطم القاعدة المسلمة عن « الخالق » وبدلا من أن يتوقف الأمر إلى حد الشرك بالله يذكر أهل الدنيا الإيمان بالله وحينئذ يكون من واجب أهل الإيمان أن يجعلوا من عقيدة الخالق حقيقة علمية مسلمة من جديد : وأن يعملوا على هدم الأساس الفكرى للإلحاد بكل مآلديهم كما انهدم أساس الشرك فى القرن الأول .

بعد الفورة العلمية الجديدة بدأت فترة تاريخية تحطمت فيها الشاكلة الإنسانية مرة ثانية وحلت شاكلة جديدة محل الشاكلة القديمة . شاكلة تقوم بأكملها على أساس الإلحاد . ومع أن بداية هذا العصر الجديد ظهرت مع انتفضة الأوروبية الثانية إلا أنها كانت ملموسة بشكل واضح منذ القرن الثامن الهجرى . وهكذا مر على دور الإلحاد هذا مئتا سنة تقريبا .

وفى الزمان القديم كان هناك أناس لا يؤمنون أيضا بالله ولا يؤمنون بالدين . ولكن كفرهم كان كفرا فرديا . بينما الكفر فى العصر الحديث اكتسب مقام العلوم والبحث العلمى . واكتشفت العلوم الطبيعية أن العالم كله قائم على أصول الأسباب والعلل . وأن هذه الأصول محكمة بقدر : وأنه يمكن استخدامها إذا ما تعرفنا عليها . وفى عالم العلوم رسخت فى الأذهان فكرة فحواها أنه لا حاجة لإله لتحريك الكائنات وهى بذاتها تسمى طبقا لقوانينها الذاتية : واكتشافات التطور فى علم الأحياء أرشدت الإنسان الى أنه لا ضرورة للإيمان بالخالق

وعند بدأ عهد جديد في تاريخ البشرية ، غالط كل الذي غمى
على أساس التفكير قبل ذلك ، خضع لتأثير التوحيد . وأخذت الدنيا
نرجبه ، بجميع أدينها ومدارسها الفكرية . وجميع حركاتها . وفي
دائرة الدين انتشر العديد من "إبراهيم" واليهود في كل مكان وصار
قادة الدين هؤلاء أربابا . إلا أنهم أصبحوا بعد انتشار عقيدة التوحيد
يسرا يسرون جميع البشر . وهم عند الله عباده . وهكذا تم القضاء
على عبادة البشر وبدأ عصر عبادة الله . وأصبحت مظاهر الكون التي
يقدمونها قبلا عبارة عن مخلوقات لله ، ومن هنا ظهرت لأول مرة في
التاريخ فكرة استغلالها ، وكانت البداية في بغداد وقرطبة وحقلية ،
ثم وصل الأمر بعد ذلك إلى أوروبا فكان أساسا للنزرة العلمية
الحالية .

وفي مجال السياسة كان أفراد الأسرة الحاكمة أشخاصا مؤلّمين ،
وبعد انتشار عقيدة التوحيد بدأ الناس يعتبرونهم كعباد الله . وهكذا
ظهر فكر سياسي جديد ، وضع على أساس الثوري ووصل فيما بعد
إلى أوروبا غنما ونشر ونشر في صورة نجمية ونورات التحرير .

واستمرت تلك الفترة التي بدأت مع الإسلام وامتدت حتى
لنفس الأوربية الثانية ، آلاف سنة كاملة . والمجددون الذين ظهروا في
الامة الإسلامية ابتداء من عمر بن عبد العزيز (٦٨٢ — ٧٢٠) إلى
الشيخ أحمد سرهندي (١٥٦٤ — ١٦٢٥) ظهروا جميعا في تلك الفترة .
كان امامهم عالم همته شاكلة غير إسلامية . وكان خلال الناس في ذلك
الزمان نوعا من الأنفلة أو الخيال ولم يكن نوعا من العميان ، ومن هنا
فقد أثمرت محاولات المجددين بالتذكير والنصيحة العامة فقط : وحين
كانوا يدعون الناس إلى الإسلام كانت شاكلة الزمان تساعدهم .

جاء في حديث شريف :

م ١٢ — واقعنا ومستقبلنا

والمحاولات إلى بذلها اليهود لتحطيم هذه الشاكلة توجد بالتفصيل في السور الأولى للقرآن الكريم . ويواجه التاريخ الإسلامى الحديث قضية « الشاكلة » أيضا فكما توجد للأفراد شاكلة أيضا : توجد للأمم شاكلة . فالأمم تمنح على شاكلتها (على بذاتها الفكرى) وطبقا لهذه الشاكلة تقرر ترك الأمور أو اتباعها .

فى القرن السابع الميلادى حين بعث نبي الإسلام ﷺ . كانت شاكلة العرب قائمة على أساس الشرك . وكانت هذه الشاكلة راجعة فى كل مكان ابتداء من بناء الأسرة إلى الخطط السياسية . وفى هذا المناخ الاجتماعى تمكنت عقيدة التوحيد من ايجاد متنافس لها حين حطمت شاكلة الشرك هذه .

لقد جاهد نبي الإسلام ﷺ جهادا عظيما . وحطم هذه الشاكلة . وبطريقة كاملة قامت هذه الشخصية التى تتمتع بكل صفات العظمة بتوحيد جميع القوى على هذا الاساس . فقدم مثالا عظيما على طريق الإخلاص والتضحية والجد والجهاد وهو ما كان يلزم للتأثير فى الناس : وبعدها بدأت النتائج فى الظهور . فقد تغيرت العقول انفرادية فى البداية ، ثم قبلت بعض القبائل هذا التأثير بصورة كلية ، ثم كان يوم فتح مكة (٨ هـ) حين تحطمت أصنام جميع القبائل وجميع المعتقدات ، تلك الأصنام التى وضعت فى مركز العرب (الكعبة) . وهكذا تحطمت بصورة نهائية الشاكلة المشركة . وكانوا يعتقدون أن محمداً كان يحقر هذه الآلهة التى كانت طبقا لاعتقادهم تسيطر على نظام الأمور ولهذا غالبا أن ينزل عقاب تلك الآلهة عليهم وعلى العكس من هذا حين شاهدوا خاتمة أربعمائة صنم تحل ، ولم تنفجر السماء ولم تتزلزل الأرض . تأكدوا أنه لا حقيقة لها ، وهكذا حطم الفتح هذه الشاكلة نهائيا . وبدأ الناس يدخلون فى دين الله أفواجا (١) .

الصدفة ، بل الحقيقة هي تلك التي علمها عند الله والتي أوضحها في كتابه الكريم :

« قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا » .
(الاسراء — ٨٤)

والمثال الذي تقدمه هنا يتعلق باليهود ؛ فاليهود يلاحظون إن الأنبياء يظهرون من نسل اسرائيل فرسخ في اذهانهم أن النبوة هي جزء من أسرة اسرائيل . وحين بعث نبي آخر الزمان من الفرع الإسماعيلي اسيدنا ابراهيم ، لم يكن هذا أمراً مقبولا لديهم وذلك بسبب عقليتهم ومخيلتهم وما رسخ في أذهانهم . فأنكروا الاعتراف « بالنبي الإسماعيلي » ؛ ولم يفهموا ذلك السر . وهو أن النبوة ليست حكراً على أسرة ؛ فهذا هو دين الله يعطيه من يشاء .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما » (١) .

وهكذا فالدين الذي كان اليهود يعرفونه هو الدين الذي يعطى القرابين التي تأكلها النار . ولم يفهموا قرابين الذبائح التي يأكلها الناس ولا تأكلها النار . لم يكن هذا الأمر مقبولا أشاكلتهم الدينية ولم يكن مفهوماً لديهم كيف يؤمنون بمن يدعى الرسالة ولا يعلمهم القرابين التي تأكلها النار .

« الذين قالوا إن الله عهد إلينا الا نؤمن برسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار » (٢) .

(١) النساء : ٥٤ .

(٢) آل عمران : ١٨٢ .

عليه . وهى الطاقة التى لا يمكن أن تقف أمامها البحار أو الجبال
أو البندقية أو المدفع .

وإذا ما وضعنا الحركات التى ظهرت فى زماننا الحديث على
هذا المحك ونظرنا إليها من وجهة النظر هذه . فإن أيا منها لا يرقى
أبداً إلى هذا المستوى الذى يجب أن تكون عليه حركة الدعوة الحقيقية .
إذ كانت هذه الحركات حركات إسلامية سياسية وليست حركات
إسلامية تبليغية تهدف إلى الدعوة للدين الحق ؛ فكل حركة تقريباً
جعلت من القضايا السياسية أساساً لكفاحها وجهادها ، بينما هدف
حركة الدعوة هو جعل التبليغ أساساً للكفاح والجهاد . وبعبارة أخرى
فإن أية حركة من هذه الحركات لم تجعل بداية عملها من هذه النقطة
التي كان ينبغي حقيقة أن تبدأ منها . والسفر إن لم ينتج أولاً نحو
الوجهة الصحيحة فلن يمكن لصاحبه الوصول إلى هدفه ، والضرر
الثانى لأسلوب هذه الحركة هو أن من تأثروا بالإسلام من خلالها
ظهر لديهم مزاج سياسى يشبه مزاج الحركات الدنيوية العامة .
بينما الإسلام الصحيح هو أن يطور لدى الإنسان مزاج حب الآخرة،
والنتيجة الواضحة أن الإسلام لم يظهر بطريقة حقيقية واضحة عن
طريق هذه الحركات الحديثة ، لا على المستوى الاجتماعى ولا على
المستوى الفردى .

الشاكلة :

القضية الثانية هى قضية الشاكلة . فطبقاً لأسباب خاصة يبنى
كل شخص وتبنى كل أمة الأسلوب الفكرى الذى يفكر به الشخص أو
تتركز عليه الأمة وبناءً عليه يؤمن الإنسان بصحة الأشياء أو عدم
صحتها . وينسى تماماً فى معظم الأحوال أن الحقيقة ليست هى تلك
الحقيقة المرسومة فى مخيلته والتى اتخذت شكلها الخاص بمجرد

دخل محمد بن القاسم سنة ٧١٢ م منطقة باكستان الحالية ، ويرى المؤرخون أن مؤسس الدولة الإسلامية في شبه القارة الهندية هو شهاب الدين محمد الغوري الذي فتح ملتان سنة ١١٧٥ م ، وخضعت له جميع منطقة شمال الهند في سنة ١١٩٢ م . وبعد فترة زالت الامبراطورية المغولية التي استمرت لفترة طويلة تحكم في الهند (١٨٥٧ م) وذلك حين حاول المسلمون أن يحققوا النصر في هذا البلد . عن طريق السياسة والسيف . وحين قامت الثورة تحطم قصر عظمتهم وكأنما لم يكن له وجود من قبل .

وتاريخ اسبانيا أكثر إيلاماً من كل هذا ؛ فقد ظل الحكم الإسلامي قائماً بها لسبعمئة سنة (٧١١ - ١٤٩٢ م) وهناك أبداع المسلمون في النواحي المادية المتطورة ابداعاً لم تشهد الإنسانية كلها في ذلك الزمان ، حتى أن المسيحيين الذين هزموا المسلمين وأخرجوهم من اسبانيا كانوا قد تخلفوا عن المسلمين بدرجات كثيرة في الرقى المادى ، أقام المسلمون في تلك الفترة عدة مراصد لدراسة الفلك ، يقول دريبر (١٨٠٠ - ١٨٨٢) عن مرصد إشبيلية : بعد خروج المسلمين Moors من اسبانيا تحول هذا المرصد إلى برج لأجراس الكنيسة ، لأن أهل اسبانيا لم تكن لديهم دراية بطريقة استخدامه ورغم هذا التفوق المادى ظلت اسبانيا من المسلمين حتى انه لم يعد لهم من أثر يذكر سوى بعض الأطلال الحزينة .

تكفى هذه التجربة التاريخية لإثبات أن الأصول الإسلامية إنما تقوم على حكمة سامية فائقة تتمثل في أن نقطة بداية الكفاح الإسلامى كانت دائماً « الدعوة » وقد أعطى للدعوة وللتبليغ مقاماً وكأن الدعوة هي أصل الخيط إذا ما أمسكنا به تمكنا من تحقيق النجاح والسيطرة على الحياة كلها ، وهي مفتاح قهر العدو والغلبة

عن طريق الرقى المادى (الأندلس) * *

وظلت للإسلام الغلبة الدائمة فى المناطق التى دخلها عن طريق الدعوة ، ولم تغير هذه الأمم العادات والتقليد فقط التى راجت فيها قبل الإسلام ، بل اصطبغت لغتهم وحضارتهم واصطبغ المجتمع كله بصبغة إسلامية .

يقول سير آرثر كيث * * الذى درس تاريخ مصر :

« كانت نهاية الامبراطورية البيزنطية وقيام الدولة العربية فى مصر حين انتصر أقل من خمسة عشر ألف جندى من الجنود العرب ؛ بينما كان عدد المصريين يعد بالملايين ، فالفتح العربى لمصر لم يكن بالسيف بل كان بالقرآن ، اذ تعلم المصريون قراءة القرآن ودرسوه وبدأوا فى تعلم اللغة الجديدة أى اللغة العربية ، لقد جعل القرآن المصريين يتكلمون اللغة العربية » (١) .

وكتب (لوبون) عن الموضوع نفسه :

« حكم الإيرانيون واليونان والرومان وادى النيل ، إلا أنهم لم يتمكنوا من إحلال حضارتهم محل الحضارة الفرعونية ، ولكن العرب جعلوا من مصر بلداً عربياً مسلماً ، كان لدى الأمم الأخرى قوة السيف فقط : ومن هنا لم يتمكنوا من إيجاد أى تأثير يتعدى تأثير القوة العسكرية ، وعلى العكس من هذا كان لدى العرب قوة القرآن ، وفتحت هذه القوة أذهان المصريين حتى أنها بدلت دينهم وحضارتهم ولغتهم وكل شئ لديهم » .

* فى الأصل اسبانيا .

* * (١٨٦٦ - ١٩٥٥)

Sir Arther Keith, Anew theory of Human Evolution. (١)

London 1950, p. 303.

« تبا لك سائر اليوم !! ألهذا جمعتمنا ؟! » (١) .

فأبو لهب رأى أنه لا علاقة لهذا الخطاب بالقضايا التي تتعرض لها الأمة الإبراهيمية العربية . ولم يفهم نقطة البداية هذه كمنطلق يمكن أن يكون السبيل لتحقيق الأمل في نهضة الأمة العربية أمام الأمم الأخرى . ونقطة البداية هذه أو الأساس الأول إنما هو بدء التبليغ : تبليغ العقيدة الصحيحة . ومن هنا فالأساس الحمدي يعني أن عملية « الإنذار والتبشير » هي نظرية العمل الأول الأساسى لإحياء الأمة . وأن مقام أبى لهب هو الاستماع إلى ما سبق وانقول رداً عليه :

(أمذا برنامج ؟) .

إن السؤال الأساسى دائماً فى طريق الجهاد هو من أين يبدأ الجهاد ؟ وهو السؤال نفسه الذى يتعلق بالبعث الإسلامى ، وللإجابة على السؤال يازمنا البحث عن الخيوط المناسبة التى تجمع بين الظروف المختلفة ، والتى يمكن عن طريقها أن نمسك ببقيّة الخيوط تلقائياً ... ولقد حدد لنا القرآن البداية الوحيدة ألا وهى الدعوة ، وهذا ثابت وواضح : [يا أيها المدثر قم فأُنذر] وبناء على هذا كانت حياة النبى ﷺ [إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر] (٢) ، وطالما اتبع المسلمون هذا الطريق كان التوفيق حليفهم وحين عارضوه وانحرفوا عنه تعرضوا للفشل الذريع فى النهاية .

والأمثلة التى يشهد بها التقدم الإسلامى فى التاريخ اللاحق يمكن تقسيمها إلى ثلاثة أقسام كبيرة :

- عن طريق الدعوة (مصر كمثال على هذا) .
- عن طريق السياسة (الهند كمثال على هذا) .

(١) المشكاة : باب الإنذار والتحذير .

(٢) المائدة : ٢١ - ٢٢ .

فواضح من أقوال الفاروق الأعظم رضى الله عنه أن ثلاثمائة رجل يكفون لإحداث ثورة ، فإذا ما وصل هذا العدد إلى اثني عشر ألف رجل فلا يمكن أن يهزم أمام أى فريق آخر مهما وصل عدده . وذلك نتيجة لقلة فى العدد ، إلا أنه فى زماننا الحاضر نشاهد فى كل جماعة إسلامية قائدا مسلما ومئات الألوف من الأخوة والزملاء ، إلا أن هذه الجماعات لم تضاف للتاريخ الإسلامى سوى الفشل ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن هناك نقصا أساسيا بالتأكيد فى حركات تلك الجماعات أو الأشخاص وهذا النفس جعل النتيجة تأتى على عكس ما أرادوا رغم وجود الإخلاص وتوفره لديهم ورغم الاستعداد لبذل جميع التضحيات .

الأساس الأول : *

إن إدراك القضية التى تتعلق بهذا الأمر يجب أن يتم من أولها ، ويمكن أن يبدأ حل هذه القضية بالكفاح والجهاد من أجل إحياء الدين .

حين أمر الله نبي الإسلام أن يعان على الملا دعوة الحق . صعد الصفا ونادى فى أهل مكة : وكانت هذه هى الطريقة المعتادة لتقديم أى إعلان قومى خاص فى مكة .

تجمع الناس فخطب فيهم :

« إنكم لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون وإنها لجنة أبداً أو لنار أبداً » (١) .

وكأن بداية الكفاح لإقامة الدين الإلهى كانت من هنا أى إطلاع الناس على حقيقة الحياة ، إلا أن أبا لهب لم يفهم هذا كله فقال :

ج : أو البداية الأولى .
(١) جمهرة خطب العرب .

وكان استيلاء الغرب على العالم الإسلامي أول حادث من نوعه في التاريخ كله . وكانت الحملات السابقة قد خلفت قضايا دفاعية فقط للعالم الإسلامي ، أمكن حلها عن طريق نجاح الوسائل الدفاعية ، وحين تعرض العالم الإسلامي للقضية الحالية تم استخدام جميع إمكانيات القوى الدفاعية قياساً على الماضي ، بينما كان الهجوم يختلف تماماً عن الحملات السابقة ، ولهذا كان من الضروري اكتشاف استعدادات أخرى قبل الإجراءات الدفاعية لمواجهة هذه الحملات . إلا أن هذا الفرق لم يمكن فهمه في حينه ، وكانت النتيجة ضياع جميع إمكانيات القوى الدفاعية التي اتخذت في ذلك الوقت . هذا بالإضافة إلى أن الدعوة إلى الإسلام قد نسيت وسط ضوضاء الحرب الدفاعية ، وهي من ناحية الأصول الإسلامية من أولى وأهم الفرائض التي تقع على المسلمين دائماً .

في السنة السادسة للبعثة حين أسلم عمر الفاروق رضى الله عنه ذهب إلى المسجد الحرام وأعلن إسلامه وقام أهل قريش بملاحقته وظلوا يعارضونه لفترة طويلة ، وفي النهاية خاطبهم قائلاً :

« افعلوا ما بدا لكم فوالله لو قد كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا » (١) .

وبعد أربع عشرة سنة من البعثة أثبتت غزوة بدر صحة الحديث السابق . كتب عمر رضى الله عنه أثناء خلافته إلى عمرو بن العاص وكان أرسله إلى مصر في ذلك الوقت لفتحها وتأخر الفتح :

« واعلم أن معك اثني عشر ألف رجل ولا يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة » (٢) .

١١ ابتدأية والنهاية ، مجلد ٢ ص ٨٢ .

(٢) كنز العمال ، مجلد ٣ ص ١٥١ .

الحركات الإسلامية في العصر الحديث

طبقا للحديث المشهور نفهم أنه سيظهر في الأمة الإسلامية في كل عصر أناس « يجددون للأمة الإسلامية دينها » . وقد ثبت هذا طوال تاريخ الأمة الإسلامية وهذا هو الذي جعل بقاء الدين مكفولا في هذه الأمة .

ونحن نواجه الآن سؤالاً مؤداه هو : لماذا لم تظهر في زماننا الحاضر نتائج محاولات التجديد التي ظهرت في الماضي ؟ لقد حقق المجددون الذين ظهروا في الماضي نجاحا وتوفيقا في محاولاتهم لدرجه أن الإسلام انتشر على وجه البسيطة لمدة تزيد على الالف سنة في مساحة امتدت من حدود الصين الى السواحل الغربية لأفريقيا ممثلة رقعة العالم الإسلامي . وغلبت الأفكار الإسلامية وانتشر المنهج الإسلامي بين الناس سواء من الناحية الفكرية أو من ناحية أسلوب الحياة أو آصون المعاملات : وأصبح الفكر الإسلامي هو معيار الحق والباطل أى أصبح معيار كل الأمور في الحياة ، حتى طبع الإسلام جميع نشاطات الحياة وصبغها بصبغته ، وكانت كلمة المحدث أو الفقيه أهم من أوامر ملك ذلك الزمان .. وفي زماننا الحديث نشاهد العكس تماما ، ظهر العديد من المصلحين ، وقادوا محاولات تجديد على نطاق واسع : وهم من ناحية الكم زادوا كثيرا على عدد جميع المجددين السابقين في مجموعهم . إلا أن الأمر المحير أنهم لم يغيروا وضع المسلمين المتدهور ، فلا تزال غلبة الثقافة والحضارة الجاهلية على خريطة الحياة تزيد يوما بعد يوم حتى انه حين بدأ التجديد قبل مائتي سنة أى في العصر الحديث كان حال الإسلام أحسن مما هو عليه الآن ، فقد تقهقر الإسلام كثيرا اليوم عما كان عليه من قبل .

مكة (أبى سفيان) من ناحية ؛ ومن ناحية أخرى أعلن أن « من دخل دار أبى سفيان فهو آمن » . وكانت النتيجة قيام أبى سفيان نفسه بتوجيه نداء للناس فقال « أيها الناس . أطيعوا محمداً ؛ لا طائفة لأحد هنا بمواجهته . وقد اثبتت أحداث ما بعد الفتح أن هذه الاستعدادات الضخمة لم يكن المقصود منها إراقة الدماء فى مكة بل كان القصد منها إرهاب أهل مكة حتى يسيطر المسلمون على مكة بدون إراقة دماء ، وقد وصل قائد جيش المسلمين سعد بن عبادة بالقرب من مكة وصاح : « اليوم يوم الملحمة » . فقال عليه السلام : « لا اليوم يوم الرحمة » وعزله عن القيادة وسلم الراية لابنه قيس .

ورغم حدوث بعض الغزوات الصغيرة بعد فتح مكة — وقد وصل عددها (صغيرها وكبيرها) إلى ثمانين غزوة — فإن فتح مكة كان بمثابة السيطرة على عاصمة البلاد ؛ وهكذا اعترف العرب جميعا بقيادة محمد صلى الله عليه وسلم .

أن أبا بكر نفسه لم يكن يعرف ما هدف هذه الاستعدادات • وعلى بداية رمضان سنة ٨ هـ حين بدأ الجيش الإسلامي يتوجه إلى مكة بأمر من رسول الله ، عرف الناس هدف هذا السفر الذي تم بحمت حتى وصل الركب إلى « مر الظهران » (ولم تعلم به قريش) وقد دعا النبي ﷺ الله قبل التحرك قائلاً :

« اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها » .
أعد النبي ترتيبات مذهلة للاستعداد لهذه المهمة فقد أمر بقطع الصلات بين المدينة وخارجها تماماً • فلا يدخلها شخص من الخارج ولا يسمح بخروج شخص من المدينة إلى خارجها ، ونقرر أن يشرف بعض الناس على الطريق بقيادة علي بن أبي طالب وقد قبض الناس على (قاصد) هو حاطب بن أبي بلتعة واكتشفوا معه الخطاب المشهور (وعلى كل أقبائل عدد وسلاح) (١) •

وخرج المسلمون جميعهم . (لم يتخلف منهم احد) ورتب النبي ﷺ نظام السير فقسم الجيش الذي وصل قوامه إلى عشرة آلاف إلى مجموعات مختلفة ، وعين لكل مجموعة قائداً يحمل راية ويتقدمهم • وخلفهم مجموعات من مئات الرجال تمشي في صفوف ، وقال لعمه العباس : « اجعل أبا سفيان يشاهد منظر الجيوش : قال ﷺ : « أجلسه بمضييق الوادي عند خطم الجبل حتى تمر به جنود الله فيراها » (٢) •

وظل جيش المسلمين يمر حفا بعد صف وأبو سفيان يشاهد المنظر متحيراً دهشاً حتى نطق قائلاً : (من له بهؤلاء طاقة ؟! لم أر كالיום جنوداً قط ولا جماعة) • وهكذا أثر الرسول ﷺ في قاصد

(١) الطبراني عن ابن عباس •

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام ، مجلد ٢ ، ص ٦١ •

العرب حرجا أن يدخلوا الإسلام فإن ذلك لا يغيظ قريشا ولا يعتبر تحديا لها (١) •

يروى البخارى عن براء أنه قال للناس فيما بعد إنكم تعدون فتح مكة انتصارا إلا أننا نقول : إن صلح الحديبية هو الانتصار (ما كنا نعد الفتح إلا يوم الحديبية) •

وطبقا لهذه المعاهدة .انتهى الحصار الاقتصادي للمدينة وكانت قوافل تجارة المدينة تمر بحرية من مكة وأبى بصير وأبى انجندل وغيرهما وقد اضطروا إلى العودة إلى قريش طبقا للمعاهدة « هربوا ووصلوا إلى « ذو المروة » وهناك تجمعوا مع أمثالهم من المسلمين حتى أنهم كونوا بذلك مركزا ، وأقلقوا القوافل التجارية لقريش حتى قضوا بأنفسهم على هذه المادة من المعاهدة •

إن من أكبر عوامل الضعف البشرى العجلة وحسب الظاهر ، فإذا ارتفع الانسان عن هذا فإن الله تبارك وتعالى يهبه فى الدنيا ما يضمن له الوصول إلى التوفيق والنجاح •

أخرج بن عساكر عن الواقدي قال : كان أبو بكر الصديق رضى الله عنه يقول : ما كان فتح أعظم فى الإسلام من فتح الحديبية ولكن الناس يومئذ قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل كمجلة العباد حتى يبلغ الأمر وما أراد •

إن « الواقعية » هى أعظم توفيق وأعظم نجاح فى هذه الدنيا وهى ضمان الوصول إلى النجاح والتوفيق •

بعد الفراغ من خير بدأ ﷺ استعداداته لمهمة أخرى إلا أنه لم يخبر احدا أبدا بمقصده أو ضد من كان يعد هذه الاستعدادات حتى

(١) محمد صلى الله عليه وسلم وبني اسرائيل ١٠١ - ١٠٢ •

وقعت بين القبيلتين فى (شعبان سنة ٨ هـ) : وكان هذا يتعارض مرحلة مع معاهدة الصلح ، وكانت هذه الواقعة بعد صلح الحديبية بسنتين ، وكان من نتيجة الصلح انتشار الإسلام لدرجة أن أتباع الرسول ساعة صلح الحديبية كانوا لا يتعدون ١٥٠٠ رجلاً ، ولكنهم وصلوا الآن إلى عشرة آلاف .

خرج رسول الله فى صمت ، وبحكمة تحرك لدرجة أن فتح مكة تم تقريباً بدون إراقة دماء .

« وعدكم الله مفانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم » .
(الفتح - ٢٠) .

كان الوضع أثناء عقد المعاهدة فى صالح الإسلام إذ انتشر صوت الإسلام فى أرجاء الجزيرة العربية نتيجة لحركة الدعوة الإسلامية الجادة المتواصلة التى استمرت قرابة عشرين سنة ، ووجد فى كل قبيلة عدد من الناس تفتحت قلوبهم لصدق الإسلام إلا أن قريشاً التى ملكت قيادة العرب وزعامتهم دأبت على منع الناس من إعلان الإسلام ، فأعلان الإسلام كان يعنى الدخول فى حرب مع قريش . وبعد معاهدة الحديبية وحين عرف الناس أن « معاهدة عدم الاعتداء » هذه مستمرة لعشر سنوات بين قريش والمسلمين ، زال عنهم ذلك الخطر . وبدأوا فى دخول الإسلام ، وتدفقوا إلى حظيرته فما أشبههم بمن انطلق حين رأى اخضرار إشارة المرور التى ظلت أمامه حمراء لفترة طويلة .

قال الفقيه بن شهاب الزهرى وغيره إن الله فتح على المسلمين بصلح الحديبية أكثر مما فتح الله عليهم به من أى غزو آخر بدليل أن النبى ﷺ رجع إلى مكة عام الفتح بعشرة آلاف ولم تكن عدته من قبل لتزيد على ثلاثة آلاف بحال ، وعلمه بأنه لما هادن قريشاً لم يجد

انيهودية إلى الأبد . وكانت الواقعة الأولى فى ذى القعدة سنة ٦ هـ .
والثانية فى محرم سنة ٧ هـ .

كان لليهود نمانى قلاع حجرية فى خيبر ، جمعت فيها معدات
حربية لم تكن متيسرة لدى المسلمين على الإطلاق . وقد اختاروا
لتعزيد وتقوية هذه القلاع نفس الأسلوب الذى اشتبه به المارشال
دايان المهندس العسكرى الفرنسى فى سنة ١٧٠٠ م * فكيف كان
يمكن فتح هذه القلاع ؟ هذه فى حد ذاتها قصة دلوية ، إن الحكمة
العملية العسكرية التى اتبعت بهذه المناسبة اقتضت أن يقوم خمسون
رجلا بحمل شجرة ضخمة ثقيله يجرونها ليضربوا بها بوابة القلعة
بشدة . وبعد تكرار هذا الضرب المستمر تحطمت بوابة القلعة .
واقتحمها المسلمون ، ووجدوا أنفسهم وسط فيضانات من السهام
بالإضافة إلى استخدام المنجنيق . وتم للمسلمين السيطرة على أربع
قلاع . وحينئذ هرع أصحاب القلاع الأخرى وفتحوا أبوابهم وسلموا
أنفسهم الجيش الإسلامى .

وهكذا تم إخضاع خيبر . وظلت قضية قريش مكة قائمة ،
وأرشدت الهداية الربانية النبى ﷺ إلى أن الخطيئة المظلمة هى إعطاء
فرصة للعدو ليرتكب خطأ حتى يسمح له بعد ذلك بالتدخل .

كان النبى يعرف أن ما يثير قريش ضد الإسلام ما هو إلا الحسد
والبغض وحب السيطرة . ومن يعارض اندلاقاً من هذه النفسية ،
لا يمكن أن يتورع عن ارتكاب أى عمل غير منطقى وغير أخلاقى ،
وأثبت هذا التقدير صحته تماماً . فارتكبت قريش خطأً بحمايتها
ومساندتها - بصورة غير مباشرة - لقبيلة (بنى بكر) حليفهم وذلك
ضد قبيلة (بنى خزاعة) حليفة النبى ﷺ . وذلك فى الحرب التى

أثوابا من الناس خليقا أن يقرأ ويدعوك) غضب عندئذ أبو بكر
— وكان حليما — وانطلقت منه هذه العبارة : (امصص بظر الملات !
أنحن نفر عنه وندعه ٤) .

الا أن رسول الله ظل يتحمل هذه الأمور المثيرة كلها ووافق على
جميع مطالب قريش . ووافق على عقد معاهدة عدم اعتداء مع قريش
لمدة عشر سنوات . وهكذا أصبحت قريش ملتزمة بعدم الاشتراك
فى أية حرب ضد المسلمين سواء بطريق مباشر أو غير مباشر .

وكانت هذه المعاهدة شديدة الوقع على المسلمين لدرجة أنه بعد
استكمالها وحين طُلب النبى من المسلمين نحر أضحيتهم لم يتحرك
أى شخص رغم أنه كرر الطلب ثلاث مرات : وبعدها قاموا والحزن
يسيطر عليهم إلى حد أنه بعد تقديم أضحيتهم (جعل بعضهم يحلق
بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما) . إلا أن هذه المعاهدة التى
تمت باخضاع على المسلمين كانت لها فوائد عظيمة الشأن لا يمكن
أن تحصى .

ففى الظروف التى تم فيها صلح الحديبية كان المسلمون يواجهون
جبهتين : الأولى يهود خيبر ، والثانية قريش مكة . ولم تكن قوة
المسلمين تسمح لهم بمواجهة الجبهتين فى وقت واحد لأن الهجوم
على إحداها يعنى إعطاء فرصة للجبهة الأخرى للقدوم من الخلف
ودخول المدينة والقضاء على مركز المسلمين . ومن هنا كانت موافقة
النبى على جميع مطالب قريش مكة ورضى بمعاهدة (عدم الاعتداء)
هذه لمدة عشر سنوات . وهكذا أوقفهم فى (بطن مكة) (الفتح : ٢٤) (١) .
وبعدها عاد إلى المدينة وهجم على خيبر فى أول فرصة وحسم القضية

(١) يشير الى قوله تعالى : « وهو الذى كتب ايديهم عليكم وأيديكم عنهم ليبين مكة من
بعد أن ائتمرتم عليهم » .

لدرجة أنهم يتحركون جميعا بإشارة من محمد وشاهد أحد رسل قريش النبي ﷺ وهو يتوضأ فيهرع المسلمون يأخذون بأيديهم الماء الذى يتساقط من بين يديه قبل أن يسقط على الأرض ، وهو حين يتكلم تسكت جميع الأصوات . وهم — من الأدب والاحترام والتعظيم — لا ينظرون حتى إليه ، وعاد هذا الرسول إلى قريش فذكر لهم هذا الوفاء وهذه المحبة التى ملأت قلوب المسلمين : فخافوا وهلعوا ، وحين وصلت الرسالة المذكورة إلى قريش — وقد حملها بديل بن ورقاء الخزاعي — خلب فيهم رجل يدعى عروة بن مسعود فقال : (أى قوم ، أأستم بالوالد ، قالوا : بلى ، قال : أأستم بالولد ، قالوا : بلى ، قال : فهل تتهموننى ؟ قالوا : لا . قال : فإن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، اقبلوها ودعوني آتية) (١) .

أعلن النبي ﷺ أنه سيقبل ما تطلب قريش (والذى نفسى بيده لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمان الله إلا أعطيتهم إياها) ، وهكذا حين بدأوا يكتبون معاهدة عدم الاعتداء ، بدأت حمية الجاهلية تظهر بجلاء ، فحذفوا من المعاهدة عبارة « محمد رسول الله » واستبدلوا بها عبارة « محمد بن عبد الله » وأصروا على كتابة عبارة « باسمك اللهم » بدلا من « بسم الله الرحمن الرحيم » . وأضيفت هذه المادة : إذا أسلم أحد رجال قريش فيجب الالتزام باعادته إلى قريش ، وعلى العكس من هذا : إذا عاد أى مسلم إلى قريش فلا يعاد مرة أخرى إلى المسلمين . ولم يسمح بدخول المسلمين إلى مكة فى تلك السنة .

وكانت هذه شروطا صعبة جدا على الصحابة جميعا حتى أنه حين قال عروة بن سعد — فى إحدى المناسبات : — « يا محمد هؤلاء الناس الذين تجمعوا حولك سوف يتركوك ويهربون » (إني لأرى

(١) البداية والنهاية ج ٤ .

لقد أفادت هذه لرسالة في الحقيقة من الفكر الموجود داخل قريش ذاتها . ففى الدور المكى الاول حين قابل عتبة بن ربيعة (ممثل قريش) النبى ﷺ ، تم عاد إلى قريش بعد حديثه مع النبى — طبقا لاحدى الروايات — كان من بين ما قلده لقريش :

(خوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه واعزلوه . فوالله ليخونن لقوله الذى سمعت نبا . فإن تصبه العرب نعد كفيتموه بعيركم . وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به) (١) .

هذه الفكرة ذلتها كانت موجوده لدى قريش واستفاد منها النبى ﷺ . وكانت النتيجة أنه وجد من بين افراد الاعداء من يداع عن وجهة نظره . وعندما ارسل انبى الرسالة إلى قريش بدا التأثير عليها بأساليب مختلفة . خرج رجل من بنى كنانة من مكة ووص إلى الحديبية حتى يعرف سبب مجىء المسلمين فأخبر اناس النبى بخبره . فقل النبى إن قبيلة هذا الرجل تعظم التضحية بالجمال : أيها الناس خذوا جمالكم (إيلكم) ضحيتم واستقبلوه . فأخذ المسلمون قافلة الجمال وهم يقولون : لبيك اللهم لبيك ، ويمرون أمامه ، فعاد هذا الرجل إلى مكة متأثرا تماما وقال لقريش : إنا على يقين من أن المسلمين جاءوا بهدف زيارة الكعبة فقط فلا تعترضوهم .

وهكذا كان لهذه المظاهرة الايمانية الاسلامية التى يقودها ألف وخمسمائة مسلم تأثير شديد على أهل مكة .

أرسلت قريش رسولا وصل إلى الحديبية فوجد المسلمين مصطفين يصلون خلف النبى ﷺ فشاهد هذا الرجل انضباط الصلاة فأصابه الطلع وعاد إلى قريش وقال لهم : إن اتحاد المسلمين اتحاد قوى

أحدا منهم بمفرده لم يكن قادرا على التجروء على النيل من الإسلام .
ومن هنا قام الفريقان معا بحياكة المؤامرات ، للقيام بعمل عسكري
مستتر فيما بينهما . هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى لم يكن
المسلمون في وضع يمكنهم من مواجهة الخصمين معا في وقت واحد .

في وسط هذه الظروف قام النبي ﷺ وبنوحيه رباني في ذي القعدة
سنة ٦ هـ بالتوجه إلى مكة مع ألف وخمسمائة من صحابته . وأعلن أنهم
لن يذهبوا لقتال أحد . بل سيذهبون للعمرة . وحسب معه أيضا قافلة
تضم حيوانات الضحية . حتى أنه امر أن تعلق قلادة الضحية على
الجمال طبقا للعرف السائد في الجاهلية حتى يعرف أهل مكة جيدا أنه
ورفاقه ذاهبون لزيارة الكعبة وتقديم الضحية . وكان لهذا السفر
أيضا هدف آخر أساسي أراد أن يظهره النبي وهو القضاء على المكنة
الدينية والتجارية للكعبة .

وصل النبي ورفاقه إلى الحديبية على مسافة أحد عشر كيلو مترا
من مكة تقريبا . وكما هو متوقع . وصلت قريش وتقدمت لإيقافه .
وتفادى النبي ﷺ القتال ، وأقام معسكره في ذلك المكان وأرسل رسالة
إلى قريش ليعقد بينه وبينها معاهدة صلح : وقد جاء فيها :

« إنا لم نجئ لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين وإن قريشا قد
نهكهم الحرب وأضررت بهم فإن شاءوا ماددتهم مدة ويخلوا بيني وبين
الناس . فإن أظفر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا
وإلا فقد جموا وإن هم أبوا فوالذي نفسي بيده لأقاتلنهم على أمرى
هذا حتى تنفرد سالفتي ولينفذن أمر الله » (١) .

(١) صحيح البخارى .

انصار الإسلام

أثارت هزيمة بدر قريشا مرة ثانية ، وخلال فترة بسيطة خاضت عدة معارك نذكر منها على وجه الخصوص أحد (٣ هـ) والأحزاب (٥ هـ) . وفى هذه الغزوات تعرض المسلمون لمصائب عديدة ، وقد ضمت غزوة الخندق ثمانمائة رجلا ، تعرضوا لحالة شديدة من البرد والجوع لدرجة أن النبى ﷺ أراد أن يرسل شخصا للتجسس على العدو ، فظل ينادى ثلاث مرات : فلا يقوم أحد ، حتى انه ذهب إلى خديفة رضى الله عنه ودعاه وعينه لهذه المهمة •

ومن ناحية أخرى فقد كان يهود المدينة يمثلون قضية داخلية مستقلة ودائمة ، فقد اتحدوا مع قريش وظلوا يحيكون المؤامرات ضد الإسلام والمسلمين •

بعد حصار الخندق الذى دام عشرين يوما ، اضطر جيش مكة إلى العودة بعد تعرضه لمعاصرة شديدة : ورأى النبى ﷺ أن يعاقب اليهود عقابا رادعا ويكثف مؤامراتهم وخروجهم عليه ، فأعاد قبائل المدينة (بنو النضير — بنو قينقاع — بنو قريظة) من الخندق وأجرى عليهم كتابهم التوراة، ففضى على مسألتهم إلى الأبد •

كانت هذه مسألة خبير ، وفى السنة السادسة للهجرة كان وضع المسلمين هكذا : بين دار الإسلام المدينة وبين قريش بمكة مسافة أربعمائة كيلو مترا • وفى الشمال يهود خبير على مسافة مائتى كيلو متر : ورغم اتفاق كل من قريش واليهود على العداء للإسلام إلا أن

« وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردء إلى الله عز وجل وإلى محمد » (١) .

وكانت هذه الصحيفة بمنابه إجراء سياسي حيث أعلن النبي ﷺ بحكمته من خلالها الحكومة الدستورية الإسلامية على المدينة .

وبعد وصول النبي ﷺ إلى المدينة ازداد عصب غريش بدلاً من أن نهذا . فقد رأيت قريش المسمين الآن وقد جمعوا في منقعه رحدة ودعوا مركزهم . وفي السنة الثانية هجره واجه النبي موقف دقيقاً وهو جيتس غريش . فقد كانت قريش نتحين الفرصة للدخول إلى المدينة وتحطيم حيان المسلمين الذي تأسس هناك . ورغم أن جيتس غريش كان حوالى ٩٥٠ مقاتلاً في حين كان للأفراد المسلمون القادرون على القتال حوالى ٣١٣ فقط فإن النبي أدرك أن حل الشك رغم كثرتهم لا يحملون بين جنبتهم سوى الحقد والنور . وعلى العكس من هذا فالمسلمون لديهم الإيمان واليغبين وهذه ثروة عظيمة . تفوق ما لدى المشركين من قوة . هذا بالإضافة إلى أن العرب اعتادوا القتال فرادى فرادى لإظهار براعتهم الفردية وهذا نتيجة للنخوة الجاهلية التي سيطرت عليهم . فكل فرد يود إظهار نجاعته هو . أما المسلمون فقد قضوا على هذا التقليد بعد دخولهم الإسلام وقام الرسول ﷺ ولأول مرة في تاريخ العرب بتعليم المسلمين خطط الدفاع . وعلمهم ألا يميلوا إلى إظهار الكمال الفردي بل عليهم أن يحاربوا كجماعة . وأن يميزوا التسوى الفردية لقريش بفونهم الجماعية (الصف ٤ : ٢) : وهكذا كانت الموقعة العظيمة التي نال فيها المسلمون النصر بقوة الإيمان . وهي الموقعة التي يطلق عليها في تاريخ الإسلام « غزوة بدر » .

(١) تهذيب مسير ابن هشام ص ١٢٩ .

٢ . شرح البر قوله تعالى : « والله يحب الذين يقاتلون في سبيله فاما كانوا شيان

وهناك واقعة مشابهة لهذا النوع بعد خلافة أبي بكر تمثلت في تسير جيش أسامة . فبعد وفاة النبي ﷺ أعلنت جميع القبائل العربية في أطراف المدينة العميان ما عدوا قبيله طيء ، وكان عدد المسلمين قليلاً بالمقارنة بعدد المتمردين . وكانت الضرورة تقتضي آنذاك الحفاظ على الطاقة لإخضاع العدو الداخلي ، ورغم أن عدد أعداء المسلمين كان لا يفرق من حيث كثرتهم بعدد المسلمين القلائك إلا أن الخليفة الأول غرر الاستمرار في تنفيذ قرار النبي وأن يتوجه جيش أسامة الذي كان يضم سبعمائة فرد إلى الشام لمواجهة الروم ، وكان التأثير الذي تركه هذا القرار كبيراً وقد عبر عنه أبو هريرة بقوله :

« فجعل لا يمر بقبيل يريدون الأرنداد إلا شالوا لولا أن لؤلؤاً قوة ما خرج من هؤلاء من عندهم ولكن فدعهم حتى يلغوا الروم فنقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الاسلام » (١) .

إذا ما صرفنا النظر عن الأتية التي كنت مشركة بالمدينة حين وصل إليها النبي فإن أكبر جمعين بها كانا جماعة اليهود وجماعة المسلمين . بم جماعات أخرى صغيرة لا يضمها أي اتفاق . وكان الناس من الناحية النفسية في انتظار من يأتي ليقيم بينهم الاتحاد والتالف وليوجد بينهم النظام ويقضي على ما يحتاجهم من فوضى . ورأى النبي هذا الحال فأصدر في أهل المدينة صحيفة (ليست معاهدة) : وفيها تم الاعتراف باليهود والمسلمين كأميتين مستقلتين (إنهم أمة واحدة من دون الناس إن يهود أمة مع المؤمنين — لليهود دينهم وللمسلمين دينهم) ، وتم الاعتراف بالحقوق والواجبات المتعارف عليها لدى كل من الفريقين دون إثارتها وقبيلت بصورة كلية : وجاء في تلك الصحيفة ما نصه :

تمكن نظام المعلومات العسكري لدى نبي الاسلام — وكان كاملاً محكماً — من معرفة أمر أبى سفيان ومن هنا قرر النبي ﷺ التقدم ونظم جيشه الجريح وعرج ناحية مكة ووصل إلى منطقة حمراء الأسد وتقع على مسافة ثمانية أميال من المدينة وكان سفره هذا معلناً ظاهراً تماماً للعيان ، وبينما كان النبي ﷺ يعد العدة للرحيل وصل الخبر إلى أبى سفيان فاعتقد أن رسول الله قد تلقى المزيد من الإمدادات ، فتراجع في قراره واتجه إلى مكة بدلاً من أن يعود إلى المدينة وحين اطمأن الرسول ﷺ إلى رجوع جيش أبى سفيان عاد هو إلى المدينة .

وفي السنة التالية لغزوة مؤتة (جمادى الأولى سنة ٨ هـ) بدأ قيصر الروم يعد العدة للهجوم على حدود الشام وأعلن الغساسنة ومعهم بقية العرب حالة التأهب العسكري . ورداً على هذا أعد النبي ﷺ جيشاً قوامه ٣٠ ألف جندي وذلك في الغزوة التي عرفت باسم « غزوة تبوك » (رجب ٩ هـ) وكانت هذه الغزوة في الواقع (تدبيراً عسكرياً) يهدف إلى مفاجأة العدو قبل أن يفتاجىء المسلمين حتى يخاف العدو وتخور همته : فحين علم قيصر الروم بوصول المسلمين إلى منطقة تبوك بدأ في سحب عساكره من على الحدود بدلاً من أن يتقدم تجاه جيوش المسلمين ، وهكذا ترك النبي نية الحرب . ولا شك أن النبي استفاد من الانتصار الأخلاقي الذي تحقّق من جراء تراجع القيصر فقد استقر في تبوك عشرين يوماً ، وأقام علاقة مع قبائل الحدود التي كانت خاضعة لتأثير الروم آنذاك ونتج عن هذا قبول أكيدر بن عبد الملك الكندي رئيس نصارى دومة الجندل ويوحنا بن روبة النصراني رئيس أيلة وبقية رؤساء مقنا وجرباء وأذرح النصارى ، قبلوا جميعاً دفع الجزية والخضوع لحكومة المدينة .

ابنائه عليه السلام . فبعد ذلك لم يخرج حاند بن الوليد في ايّ معركه ضد المسلمين ، واسلم بسرعة . وفى حفل الزواج اقام رسول الله صلى الله عليه وآله وليمة لاهل مكة . إلا ان اهل مكة طالبوه ان يمثت ثلثه ايام فقط طبقا للمعاهدة وإن هذه الفترة اكتملت ، وكان عليه ان يعود فوراً ، ولهذا لم يتمكن اهل مكة من تناول ضعائم الوليمة التى كانت فى الاصل تحمل أهمية كبيرة فى تأليف القلوب ، وقد اسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص معا وحين وصلا إلى المدينة رآهما شخص فصاح : « قد اعطت مكة المقادة بعد هذين » (أخرجه البيهقى عن الواقدى) .

أسلمت أم حبيبة بنت أبى سفيان وزوجها عبيد الله بن جحش وهاجرا معا وذهبا إلى الحبشة وهناك تحول زوجها إلى النصرانية . ثم مات بعدها بفترة بسيطة . فخطط النبى صلى الله عليه وآله للزواج من أم حبيبة . وهكذا أصبح صهرا لأبى سفيان الذى صار من أعظم قادة مكة بعد مقتل أبى جهل فى بدر . ولهذا تزوج منها النبى زواجا غيايبا ، خشية الا يسمح لها أبوها بالزواج منه إذا ما عادت من الحبشة إلى مكة : وقبلت أم حبيبة هذا للزواج الغيابى على يد نجاشى الحبشة . وذهبت بعد هذا إلى المدينة مباشرة ، ويذكر المؤرخون أن معارضة أبى سفيان ضعفت بعد ذلك حتى قبل الإسلام ودخل فى دين الله قبل فتح مكة بيوم واحد .

ومن جوانب الحكمة العملية للرسول صلى الله عليه وآله ما عبر عنه القرآن الكريم بسياسة « الإرهاب » فبدلا من استخدام القوة يمكن تحقيق الهدف عن طريق إظهار القوة ذاتها . وما لم يأخذ أبو سفيان جيشه ويرجع لتعرض المسلمون لهزيمة ساحقة فى أحد (٣ هـ) ، وقد شعر أبو سفيان نفسه بخطئه هذا حين وصل إلى منطقة الروحاء ، فأراد أن يعود مرة ثانية بجيشه إلى المدينة إلا أنه من خلال الفوضى هذه

مكة وبعد فتح مكة فر هاربا واختبأ فأعطاه النبي 'أمان واستدعاه . وبعد استسلام هوازن حصل المسلمون على غنائم كثيرة ، وكان صفوان بن أمية مع النبي آنذاك وكان لا يزال على الكفر . فوصل إلى هضبه مليئة بالخراف والجمال ، وأخذ ينظر متحيراً متعجباً فرأى رسول الله ﷺ حاله وسأله : « يا أبا وهب . هل يعجبك هذا المار انذى يغطى الهضبه ؟ » فقال صفوان : نعم . فقال رسول الله « هو لك وما فيه » . سمع صفوان هذا فقال : لا يمكن أن يكون لرجل مثل هذا الكرم إلا أن يكون نبيا . أتمهد ان لا إله إلا الله وان محمدا رسول الله (وأسلم مكنه) (١) .

كان تعدد زوجاته ﷺ امرا فرعيا . معنى الانظام القبلى تحمل مساله القرابة أهمية كبيره . كانت زيجاته المتعددة من اهم جوانب فترة ما بعد الهجرة ، فمن طريقها ارتبط بعلاقته قرابه مع العديد من الناس . ورقت قلوبهم له ولدعوته . فبالاضافة إلى زواجه الأول من أرملة عمرها ضعف عمره . فإن الزيجات الأخرى كانت لها في الواقع ضرورات معينة بل كانت في هدفها الأساسى وسيلة للحصول على فوائد للدعوة وفوائد سياسية أخرى .

في السنة التالية لمعاهدة الحديبية (٦٢٨ م) ذهب الرسول مع ألفى مسلم إلى مكة لزيارة الكعبة فتزوج بميمونة بنت الحارث أثناء إقامته التى استمرت ثلاثة أيام . وكانت ميمونة أرملة . لها ثمانى أخوات تزوجن من أشرف مكة ، وبزواجه من ميمونة أقام علاقة قرابة مع ثمانى عائلات . وكان خالد بن الوليد ابن أخت ميمونة وقد ربه كابنها تماماً . وهكذا بعد الزواج منها صار أعظم قادة جيش قريش

العملية وكنبت الأصول التي اعتمد عليها النبي في دور الدعوة بتلخيص في عدم إثارة القضايا الاقتصادية أو السياسية أو القبلية أو غيرها من القضايا المتنازع عليها ، وظل بعيدا عنها واشتغل « بالإنذار والتبشير » .

دعا بنى عامر بن جصصة في سوق عكاظ إلى الإسلام وأكد لهم بثنتي الطرق انه انما يبلغ رسالة دينية بطريقة سلمية تماما . وأنه لن يثير بينهم أية منازعات سياسية أو اقتصادية أو قبلية . فقال رسول الله ما معناه انه مبلغ عن ربه ، وطلب منهم أن يمنعو ، حتى يؤدي الرسالة ، ووعدهم انه لن يكره احدا منهم على شيء (١) .

ومضت الأمور على ما هي عليه من حيث الهدف الأساسي للبعثة المحمدية إلا أن الإسلام بدأ يواجه شيئا آخر ، وهو القضايا العملية التي نشأت من جراء البيئة . وفي هذا الشأن وضع النبي ﷺ أسسلا أساسية تمثلت في اتباع السبيل التي تجعل قلوب الناس تميل إلى الإسلام ، وأمكن تحقيق الأهداف الإسلامية بدون حرب أو عراك ، وهذا هو ما عبر عنه النبي بقوله : (نصرت بالرغب على مسيرة شهر) .

وكان لهذا الأسلوب العملي جانبان معينان : الحصول على القوة التي تبث الرعب (الأنفال ٦٠) (٢) ، والثاني تأليف القلوب (التوبة ٦٠) (٣) .

قدم النبي ﷺ إلى الناس الكثير من الأموال لتأليف قلوبهم ولا يوجد لمعطائه هذا مثالا في التاريخ ، كان صفوان بن أمية من أشرف

(١) أبو نعيم ، دلائل النبوة ص ١٠٠ .

(٢) بشير إلى قوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

(٣) بشير إلى قوله تعالى : « إنما لأعدت للفقر والمساكين والمعالين عليها والمؤلفة قلوبهم » .

فرمتهم العرب عن قوس واحدة فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ولا يسبحون إلا فيه » (١) .

أعلنت قريش المقاتلة الاقتصادية لأهل المدينة . أعلنت هذا بين العرب جميعا . وكانت الحانه الاقتصادية لا تكفى ولا تسد حاجة الزيادة السكانية التى طرأت على المدينة إذ تضاعف عدد السكان نمائاً . هذا بالإضافة إلى النفقات الحربية المتزايدة . كل هذه الأشياء أدت إلى حدوث خيق اقتصادى رهيب . يقول عمر : لقد رايت نبى الاسلام فى المدينة . كان طوال اليوم يتلوى من الجوع . حتى التمر لم يكن متوافراً ليملا به معدته . وسأل شخص عائشة عن « سراج » فأجابت : لو كان لدينا زيت نثير به السراج لشرينا الزيت !

وكانت حالة الفقر فى الغزوات شديدة لدرجة ان أبا موسى يقول: خرجنا معه فى غزوة وكان معنا نحن (ستة رجال) جمل واحد كنا نركبه بالتوالى وتورمت اقدامنا من المشى المستمر ، وكنا نلف الخرق والرقع على اقدامنا حتى أن هذه الغزوة أطلق عليها اسم « ذات الرقاع » . وكان تموين الغذاء فى الغزوات قليلا لدرجة أن للرجال كانوا يمصون البلح بدلا من أكله . هذا بالإضافة إلى الأمراض التى تظهر نتيجة تغيير الطعام المعتاد . فأهل مكة تعودوا اللحم واللبن . ثم وجدوا فى المدينة للتمر . يروى الطبرانى أن رسول الله ﷺ حين وصل إلى المسجد للصلاة فى يوم جمعة صرخ مسلم مكى وقال :

« يا رسول الله أحرق بطوننا التمر » (١) .

وبعد وصول رسول الله ﷺ إلى المدينة خرج الإسلام إلى مرحلة الدعوة العلمية وبدأ دور تاريخى جديد ، إذ بدأت مرحلة المواجهة

(١) نثر العمال ، مجلد ١ من ٢٥٢ .

(٢) الطبرانى .

الدعوة إلى الله

أهمية القيام بالدعوة :

إن أحداث الزمان مهما كان ثقلها لا يمكن أن تمحو وجود الأمة الإسلامية لأن وجود الأمة الإسلامية هو جزء من الوعد الإلهي بالحفاظ على القرآن الكريم (الحجر - ٩) (١) ، فكما يظل كتاب الله محفوظاً حتى يوم القيامة يبقى حاملو كتاب الله أيضاً إلى ذلك الوقت ، وهذا أمر مؤكد فسوف تخلد الأمة الإسلامية طالما لم تطو صفحة الأرض والسماء ، وطالما لم تأت ساعة ميزان العدل الإلهي .

إلا أن وعد مالك الكائنات إنما يتعلق بالأمة المحمدية في هذه الدنيا لا بنجاتهم في الآخرة . فالنجاة في الآخرة إنما يتوقف على عمل الإنسان ، وثانوي الله فيما يتعلق بهذا الأمر قانون ثابت عادل ، ينطبق على الأمة المحمدية فرداً فرداً بل إنه لا يمكن أن يحابي أو يستثنى من قواعد زوجات النبي أو أولاده .

ما هو المقصود « بالعمل » ؟ . المقصود منه هو أن نستكمل مستلزمات ومقتنيات ما جئنا بسببه إلى هذه الدنيا : فقد جئنا إلى هذه الدنيا لنعبد الله ، وجئنا لنكون أمة آخر الأنبياء .

ومن الاعتبار الأول يجب على كل المسلمين أن يصبحوا فرداً فرداً وبصفة شخصية « عباداً صالحين » وأن يثبتوا بذاتهم عبوديتهم لله : إلا أننا من حيث كوننا أمة آخر الأنبياء والرسل علينا فريضة

(١) يشير إلى قوله تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له عادلون » .

أخرى ضرورية . وهى أن نقوم بما كان يقوم به الرسول ﷺ من تبليغ الرسالة لأهل الدنيا :

« فرضت عليهم الفرائض التى افترضت على الأنبياء والرسل » .
(وهب بن منبه) •

فمحمد ﷺ أرسل إلى الناس أجمعين والمؤمنين به نظرا لاتباعهم له مبعوثوه ليعده الأهم التى تظهر بينهم . فبعثته إلى أهل الدنيا غاطبة تتم — بعد وفاته — بواسطة أمته • يروى عن مسعود بن مخزومة أن النبى ﷺ قدم على أصحابه فقال :

(إن الله بعثنى رحمة للناس كافة فادعوا عنى) (١) •

سأل رستم « ربيع بن عامر » رضى الله عنه : « أينما الناس لماذا جئتم إلى بلادنا ؟ » فأجاب :

« إن الله ابتعننا لنخرج من شاء من عبادة العبد إلى عبادة الله . ومن خيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام » (٢) •
إن إبلاغ الرسالة على درجة كبيرة من الأهمية وفى سبيل ذلك تتوون التضحية بأى شئ • فى السنة السادسة للهجرة (٦٢٨ م) • عقد ﷺ مع أهل مكة معاهدة الحديبية . وكان شروطها أن يسمح لأهل مكة بالمرور بالدينة إلى حصر والشام والعراق بقصد التجارة وهم آمنون على أنفسهم وأمرالهم (٣) • فكان النبى ﷺ بإقرار هذا الشرط قد سمح علانية لأعداء الإسلام بممارسة النشاط التجارى

(١) تهذيب سيرة بن هشام • مجلد ٢ ، ص ١٤١ •

(٢) تاريخ الطبرستان • مجلد ٢ ، ص ٢٢ •

(٣) رواه البخاري . ومسلم •

داخل حدود المنطقة الإسلامية . هذه المادة وغيرها من المواد الأخرى المتناسبة معها إنما وضعت بغرض منح هؤلاء الناس تسهيلات اقتصادية وسياسية حتى يصفو بذلك ميدان الدعوة للرسول ويتمهد الطريق إليها .

فإذا لم نبلغ الناس الذين يعيشون حولنا بيوم القيامة . فإننا كأمة سوف نكون كمنبى أرسل إلى قوم برسالة من الله ثم لم يبلغهم إيها . فهو أن ترك قومه على شركهم وكفرهم فلن يتقبل الله منه صلته ولا صومه . فكيف إذن يكون علمنا الذاتي وحده كافيا لنجاتنا وقبولنا عند رب العالمين ومن حولنا ملايين الناس لم يبلغوا ولم يخبروا بحقيقة الحياة . وما يجب عليهم أن يفعلوه من أجل فلاحهم الحقيقي .

والنبي إذا لم يؤد رسالته غي الدنيا . فمن المحتمل أن يتعرض لخطر البقاء في قبضة الدهر .

(إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات) (١) .

والسبب هو أن النبي يتحمل مسئوليتين في وقت واحد : الأولى أن يكون بنفسه مؤمنا ومسلما . (يونس — ٧٢) (٢) ؛ والثانية أن يبلغ أهل الدنيا (العالمين) برسالة الله (المائدة — ٦٧) (٣) ، وبعد ختم النبوة أصبح للأمة الإسلامية مقام النبوة ، ومن هنا غعلينا أيضا — أمام الله — مسئوليتان : الأولى باعتبار الإيمان والثانية باعتبار الاجتناء (الحج — ٧٨) (٤) ، ومعنى الاجتناء هو « الاختيار » ، فقد اختار الله الأمة المحمدية لهذا العمل وهو إبلاغ رسالة الله إلى العالمين ، ومن مسئولياتها الآن أن تتبع حياة الإيمان بطريقة كاملة ، ومع هذه المسئولية

(١) الإسراء ٧٥ .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وأمر به أن يقول من المسلمين » .

(٣) يشير إلى قوله تعالى : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تعلم من أجله رسالة » .

(٤) يشير إلى قوله : « وإذا جاءوا من الإله » .

عليها مسئولية أخرى وهي أن تكون شاهدة للحق بين الناس . وكما كانت الدعوة إلى الحق مسئولية على النبي ﷺ فهي أيضا مسئولية على أتباعه (قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني) (١) . وجاء في الحديث (أنتم شهداء الله في الأرض) .

والإنسان — كما هو معروف — لا ينتهي بالموت . بل يصل إلى حياة أخرى أطول . حيث النعيم الدائم أو الجحيم الدائم . وهذه حالة صعبة وتساقة لأن الإنسان إذا لم يعرف السبيل إلى مرضاة الله فهذا يعني أنه بعد الموت سيتعرض فجأة لعذاب لا حدود له ، ولا سبيل للإنجاة منه ومهما حمل هذا الأمر من أهمية كبرى عند أهل الدنيا عامة . فإن أهم شيء عند الله تعالى هو ألا يغفل عنه الإنسان كعبدة له ومن هنا أرسل الله إليه بعد أن خلق سلسلة من الأنبياء حتى ينجيه من خطر الضلال : أرسل الله إلى كل « قرية وإلى كل « أمة » عدداً من المرسلين يبلغوا رسالة الله إلى الناس .

ولما كان هدف إرسال الرسل ألا يكون للناس على الله من حجة (النساء — ١٦٥) (٢) فإنه لا يكفي أن يقوم الرسل بإطاعة أوامر الله وتطبيق الأحكام الإلهية في حياتهم الشخصية فقط بل يجب عليهم أيضا أن يطلعوا عباد الله — بأقصى ما في وسعهم — على رسالة الله — قام يونس عليه السلام بإبلاغ رسالة الله إلى مائة ألف من سكان نينوا (العراق) ولكنه ترك القوم قبل أن يكمل تبليغ الرسالة إلى آخر مداها: فغضب الله عليه وابتلعه الحوت ولم ينجه الله إلا حين شعر بأن عليه أن يعود إلى القوم مرة ثانية .

١٠ يوسف ١٠٨ .

٢ يشير إلى قوله تعالى : « رسلنا هم المرسلون » .

١١ المرسل ١١ .

والحقيقة أن إبلاغ الرسالة لا يتم إلا إذا جاء بطريقة كاملة (بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته) (١) .

وهكذا غامة الرسول تكون حقا أمته حين تؤدي نفس مسئولية الرسول وتقوم بإبلاغ الرسالة الإلهية إلى العالمين ، تلك الرسالة التي وصلتها من جازب الله . وليس من شك أن مسئولية النبي هي بذاتها مسئولية أمة هذا النبي أيضا ، والفرق هو أن المسئولية تقع على النبي كفرد بينما تقع على الأمة كجماعة ؛ فالنبي يضطلع بمسئولية الدعوة بصورة ذاتية بينما هذا ليس بالضرورة فرضا على كل فرد في الأمة فإذا قامت من بين الأمة جماعة وأدت فريضة الدعوة إلى الحق فإن المسئولية تسقط عن بقية الأفراد .

« وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فالوا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم » (٢) .

وقد ورد النص صريحا بخصوص الشهادة أمام العالمين ، وذلك فيما يتعلق بالنبوة للنبي :

« وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا » (٣) .

ويوم انقيامة حين يقف جميع الخلق أمام المحكمة الإلهية ، فسوف يشهد عليهم أولئك الناس الذين بلغوهم رسالة الله في الدنيا ، ورد في الكتاب المقدس ما يلي :

« سيجمع الناس كلهم ، وتجمع جميع الأمم ، سيكون هناك من بينهم من سيقول لهم : ألم نخبركم قبلا ، وسوف يأتون بشهادتهم

١٠ المائدة ٦٧ .

١٢ النوبة ١٣٢ .

٣١ البقرة ١٤٣ . وانظر أيضا سورة الحج . آية ٧٨ .

ليشهدوا على صدقهم وسيسمع الناس ويقولون : هذا حق . يقول الله :
أنتم شهادتي وأنتم عبادي لقد اخترته حتى تعلموا وتؤمنوا بي وبأنبي
هو . اننى انا يهوداه (الله) وليس هناك من منتد غيرى وأنتم شهادتى» .
(يسوع ب ٤٣ - آية ١ - ١٢) (يسعيا ب ٤٣ - آية ١ - ١٢) .
انهمك انبى ﷺ فى أداء مسئولية الشهادة حتى أن الله خاطبه
بقوله : « لطفك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » (١) .

وهكذا فإذا شعر المسلمون أنهم وضعوا على مقام الرسالة الصحيح
بعد إبلاغها لهم : ذلك المقام الذى وقف عليه النبى فى حياته . فإن
النوم سيخبر من أعينهم وستحرم الراحة عليهم . لأن هذا يعنى أحد
شيئين بالنسبة لهم : إما أن يكونوا شهداء الحق أمام العالمين فيببرئوا
ذمتهم : وإما أن يرتكبوا جرماً فى حق الله فلا يبلغوا الناس بما سيفعله
الله معهم فى الحياة الآخرة .

وإذا لم يبلغ المسلمون هذا الحق انذى أرسل اليهم من أجل خير
وفلاح عباد الله فإنه يخشى أن يصدق عليهم حكم القرآن على أهل
الكتاب السابقين :

« إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه
للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، إلا الذين تابوا
وأصلحوا وبيّنوا فأولئك أنوب عليهم وأنا التواب الرحيم » (٢) .

فإذا كان هناك شيء آخر ذكر فى القرآن الكريم غير مرضاة الله
فهو بالتأكيد إغلام المسلمين بأنهم إن لم يبلغوا دين الله إلى غير المسلمين
فلن يكونوا بمؤمن من عذاب الله سواء على المستوى الفردى أو على

مستوى بلدهم وعلى مستوى أهل الأرض جميعاً ، وذلك حتى لو حلوا
لله ليل نهار . فإذا اعتقدنا أن الطريق إلى الجنة يمر بمشوار روحاني،
فيجب أن نفهم جيداً أن أبواب الجنة لا يمكن أن تفتح أمامنا إذا لم
نحاول أن نخلق أبواب جهنم أمام ملايين البشر من غير المسلمين ممن
يعيشون حولنا : « وما واجهنا أثناء محاولتنا من متاعب نتعرض لها
لا نريد مواجهتها ناساً » .

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما ياتكم مثل الذين خلوا من قبلكم
مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا
معه متى نصر الله ألا إن نصر الله قريب » (١) .

وقد جاء على لسان النبي ﷺ في القرآن الكريم : « وأوحى إلى
هذا القرآن لأذكركم به ومن بلغ » (٢) .

ومن يبلغ الأمم حقيقة يوم القيامة في الحياة الدنيا سيكون
شهيداً عليها أمام الله يوم القيامة « يوم يقوم الأشهاد » (٣) .

والسؤال الآن : من اليوم سيكون شهيداً على أمم الدنيا أمام
العدائين الإلهية — كتاب النبي ﷺ — يعلن أنه بلغ تلك الأمم حقيقة
الحياة ! هن نأخذ جماعة من جماعات العالم الإسلامي تقوم بهذه
الشهادة أمام العالم كله ! إذا لم يكن الأمر كذلك : وهو لا شك
كذلك ، فهل نعوذ بالله — انتهى زمان ، رسالة رسول آخر الزمان : أن
تأتي القيامة ! هل بدل الله تعالى هذه السنة للأمم التالية إذ قرر بأنه

١ . البقرة ٢١٤ .

٢ . النمل ١٩ .

٣ . مائدة ٥١ .

سيكون من بينهم شهداء عليهم . وأن مستقبل هذه الأمم بتقرر بناء على شهادتهم !

يعتقد بعض الناس أن انطلاق الأذان من فوق مآذن المساجد إنما يكفي لإتمام الحجة . وليس هذا سوء فهم ناضح فقط ، بل هو وزر يدعو إلى الاطمئنان إلى مثل هذا النوع من الإجابات ، فانه يرشدنا إلى أن من يأتي شهيدا على أمة ما إنما يأتي شهيدا عليها بلسانها « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » (١) وهو يقدم لها رسالته بوضوح حتى يعان أفراد هذه الأمة : نشهد بأنك بلغت « وليقولوا درست » (٢) . ونحن نجلس ونظن أن انطلاق الأذان في الفضاء ، مما كانت لغته يجعلنا نرى الذمة أمام الله !

مضمون الدعوة

ما هي الرسالة التي نبلغها للناس ؟ الإجابة على هذا السؤال تكمن في كلمة واحدة هي : التوحيد أي الإيمان بالله ، وأن يكون ذلك مستقرا في قلوبنا حتى يصبح هو مركز ومحور حياتنا ، يذكر في بعض الروايات أنه حين فتحت مكة بدأ الناس يبائعون الرسول ﷺ . وقدم الكبار والصغار ، الرجال والنساء ، وأخذ منهم الرسول ﷺ البيعة على شيئين اثنين : الإسلام والشهادة * (فجاءه الناس الكبار والصغار والرجال والنساء فبايعوه على الإسلام والشهادة - البيهقي) .

وأخرج أحمد عن عبد الله بن عثمان بن خثيم أن محمد بن الأسود ابن خلف أخبره أن أباه الأسود رضى الله عنه رأى رسول الله ﷺ يبائع الناس يوم النحر - قال : فبايع الناس على الإسلام والشهادة * قلت وما الشهادة * قال : أخبرني

محمد بن الأسود بن خاف أنه بايعهم على الإيمان بأنه وشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله •

إن عقيدة التوحيد ليست مجرد قضية فلسفية بل هي ورقة امتحان إنسانى . ومن هذه الناحية تصبح الآخرة أيضا جزءاً لازماً لدعوة التوحيد . فالداعية حين يبلغ الناس حقيقة التوحيد ، فهو يحذرهم أيضا من الآخرة . غيب الموت سنقف بين يدى الله ويحاسبنا على أعمالنا ؛ وعليهم أن يطلعوا الناس على القضية القادمة وهي أنه بعد الموت ينتقل الناس إما إلى الجنة وإما إلى جهنم ، وأولئك الناس الذين استعانوا فى الدنيا بغير الله . لن يروا الله . ومن تمسك بميثاق الله فإنه هو الذى سينال هذا المقام فى الآخرة •

.. وهذا الأمر لا يمكن أن يخضع لعملية القياس العقلى بل يناله الإنسان عن طريق علم الوحي . العلم الناضج الكامل . ولهذا بالداعية يجب أن يغمس إلى دعوته بالضرورة عقيدة الرسالة ويطلع الناس على حقيقة وجوب معرفتهم بالحرائط الحق حتى يحققوا النجاح وينالوا الفوز فى حياتهم . وذلك ليتمكنوا من معرفة ربهم : كما يجب عليهم أيضا أن يتخفوا من الرسالة هاديا لهم . وإلا ضلوا وفسأوا وسط الظلمات ولن يهتدوا إلى الحرائط المستقيم أبداً •

هذا هو أساس دعوة الحق المتين . إلا أن الإنسان ليس شيئا جامدا منزويا كقطع الحجارة الصغيرة ، بل هو كائن نقى واجتماعى ، وبعبارة أخرى إن اقناع انسان بأمر ما ليس كوضع لون خاص على قطعة من حجر . فأعمال الإنسان كلها تصدر بناء على فكره الداخلى ، وهذا الفكر الداخلى يمضى بوجوده التسخى على نهج خاص : ثم حين يلتقى هذا النوع من الناس فهم يكونون مجموعة يطلق عليها المجتمع ، فنشكل عقيدتهم الداخلية شكل هيكل معين على مستوى المجتمع كله ،

وهكذا غُفِرَ للإنسان لعتيده ما يسمح ضمن يلفى بحجر فى الماء
مابقاء الحجر يشكل فى البداية دائرة صغيرة تبدأ فى الاتساع لتشمل
حوض الماء كله . وهكذا فعتيدة التوحيد تتخذ مكانها أولاً فى قلب
الإنسان . ثم تهتز وتتحرك بعد ذلك داخل تكوينه النفسى . وبعددها
تصطبغ حياة الإنسان الخارجية بصبغتها . ويتصور الأمر بعد ذلك
فتضم الأسرة والسوق والبرلمان والعلاقات الدونية أى تجعل جميع
نواحي الحياة الاجتماعية وجميع المعاملات الإنسانية تتخذ شكلاً
خاصاً . ورسالة الداعية إذا قامت أولاً وبصورة أساسية على التوحيد
ففى ذتييتها النهائية تصل إلى حل قضايا الأمم المتحدة » .

ومعه « الكلية » التى يراها البعض فى الإسلام تجعلهم يفضلون
اطلاق كلمة « نظام جامع » على الإسلام . وهذا التعبير رغم أنه فى
الظاهر تعبير صحيح فإنه يحمل بداخله خطأ ما : إذ أن اعتبار الحقيقة
الأساسية فيه ومتعلقاتها شيئين متمثلين وربطهما معاً هكذا هو إعطاء
أجزاء الجسم هذه الدرجة التى تكون للروح أى شخصية . فإن
فهم الأمر عن طريق هذا المثال إنما هو بيان كحكاية . « حب » فى كتاب
ما : نقرأ فيه فقرة تقول : « إن زيدا يحب بكراً » ثم يكتب : « حين
التقى معاً ذات يوم فى محطة القطار عانق زيد بكراً » ثم يكتب :
« قدم بكر ذات مرة إلى قرية زيد . فدعاه زيد إلى بيته » . إذا ما رتبنا
العبارات الثلاثة السابقة فإن الإنسان يقول إن الحب اسم لهذا العمل
الجامع بالأمور الثلاثة : العناق والدعوة . والحب بالقلب : ومن الممكن
أن نشاهد لحظة جامعة لهذا التعريف المتعلق بحب شخص ما . إلا أن
الحقيقة أن خطأ عظيماً حدث فى إعطاء حقيقة المحبة ومتعلقاتها درجة
متساوية والتعبير عنها هكذا . وكأن الأمور الثلاثة حين تجتمع كلها
داخل شخص واحد تجعلنا نقرر أن محبته هذه محبة كاملة ، بينما يمكن
أن تتحقق المحبة الكاملة حين يوجد الجزء الأول (المحبة بالقلب)

ولا يوجد الجزآن الآخران حتى إذا لم تتم محاولة الحصول عليهما
بصفة مستمرة .

وغيماء يتعلان بالدعوة الإسلامية فتجب مراعاة دقة ترابط أجزائها
بعضها مع بعض . وإلا إن نتمكن من أداء حق الدعوة .

والدعوة إلى الإسلام بطريقة مبسطة هي في الحالات العامة
تخالف الحكمة ، ولهذا فإن من يريدون العمل في هذا الميدان : ينحرف
دهنيم أحياناً عن هذه القضية بنواحيها المختلفة ويواجهون مشكلة
أسلوب الخطابة في الدعوة ، ويرى البعض أن الحل هو وضع الإسلام
أمام الناس كنظام « اجتماعي » أو كأحسن نظام اجتماعي . ويرى
البعض الآخر أن يقدم الإسلام للناس كدين يحمل راية الحقيقة العالية،
نلك الحقيقة التي توجد في جميع الأديان . ويحاول بعض الناس إعطاءه
رداء فلسفي . ويقولون إن الدين يعد أساس الشعور الأخلاقي للإنسان
بضرورة إثبات الشريعة الإلهية وغير ذلك . ولكن جميع هذه الطارق تحمل
قاسماً مشتركاً وهو أن واحدة منها لا تبرىء ذمتنا من العمل الأساسي
وهو شهادة الحق لأن الجاذب الأساسي في عملية الشهادة هي إطلاع
الناس على يوم القيامة .

وقضية أسلوب المخاطبة الذي تتعدد فيه الاجتماعات إنما تظهر
لنا لأننا نستقي الإجابة على هذا الاستفسار من التاريخ : ولا نبحت
عن الإجابة من خلال سيرة النبي ﷺ ، فنحن وارثون لتاريخ ما بعد
الإسلام . وذلك بصورة نفسية وطريقة المخاطبة التي جاءت في التاريخ
التالي هي هذه : يا أيها الناس آمنوا : ومن هنا فحين نذكر كلمة الدعوة
يأتى هذا الأمر في ذهننا فوراً . ولكن سيرة النبي ﷺ وحياته في الدعوة
كانت قائمة على التدرج في هذا الأمر . والدعوة باسم الإسلام بدأت
في فترة حياته المدنية (بالمدينة) أما الفترة السابقة ، وهي الفترة المكية

فكنت دعوته من هذا النوع : « أيها الناس ، قولوا لا إله إلا الله تفلحوا : إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .
 وخطب النبي ﷺ في الدور المكي هي كلها بهذا الأسلوب . أما أسلوب « أسلم تسلم » فكان أسلوب الدور المدني .

في الفترة الأولى للدور المكي حين قدم النبي دعوته إلى أبي بكر الصديق كان كل ما قاله : « إني رسول الله ادعوت إلى الله » ولكن بعد فتح مكة قدم النبي ﷺ دعوته إلى والد أبي بكر « أبي قحافة » فقال : « يا أبا قحافة « أسلم تسلم » . ويمكن أن نقول بعبارة أخرى إن الدعوة لدخول الدين بصورة منظمة بدأت في الدور المدني حين تمت معرفة الحق على نطاق واسع وتحقق النصر للإسلام فعلا على أساس ثابت . وقبل ذلك كان التركيز في دعوة النبي ﷺ على حقيقة الدين بدلا من الدعوة إلى البناء التنظيمي في الدين .

وغنما يتعان بأسلوب المخاطبة فإنه كان يركز على وضع هذه الحكمة الأساسية وبهذا ينادي جميع المشتلات دون إقحام المدعو في أية تعقيدات نفسية ؛ فقد جعل أسلوب الدعوة قائما على حكمة الدعوة الأساسية أي إطلاع الناس على اليوم الآخر . وهو ما عبر عنه القرآن بيوم الجمع (السورى - ٧) (١) ويوم التلاق (غافر - ١٥) (٢) ويوم الأزفة (غافر - ١٨) (٣) حين يحاسب الإنسان حسابا دقيقا ولا يخفى من نفسه شيئا وحين تبلغ القلوب الحناجر من شدة الهول (غافر - ١٨) (٤) . هذه هي القضية التي سادت السور المكية في القرآن . أي في الفترة الأولى للدعوة .

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وثقلك يومك » ، ذلك « لأنك » ، تربيا لتقدر أم القرى ومن حولها وتشر يوم الجمع لا رب فيه » .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « رفيع الدرجات ذو العرش يشقى الوجوه من أمره » من يشاء من عباده ليبدل بوجهه الذي » .

(٣) و « لا يشير إلى قوله تعالى : « وأدبره يوم الأزفة » ، القلوب لدى الحناجر كالمظلمين » .

ونحن هنا ننقل بعض الأمثلة التي يتضح منها هدف الدعوة إلى حقيقة الدين بدلا من الدعوة إلى دخول الدين المنظم .

١ - ورد في سورة التكاثر المكية قوله تعالى :

« أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ، ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ النَّعِيمَ » .

وقد تأثر أحد الألمان أول ما تأثر بهذه السورة ؛ ويدعى محمد اسد ، فأسلم .

٢ - حين صدر الحكم للنبي ﷺ بإعلان الدعوة العامة ذهب إلى هضبة الصفا طبقا للتقاليد العربية وخطب في الناس بعد أن تجمعوا ، وطبقا لرواية ابن عباس قال النبي ﷺ :

« وَاتَّهَ لَتَمُوتُنَّ ثُمَّ لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لِيَدْخُلَنَّ الْمُحْسِنُ الْجَنَّةَ وَالْمُسِيءُ النَّارَ وَأَنَا أَقُولُ لَكُمْ بِحَقِّ وَإِنِّكُمْ لَأَوَّلُ مَنْ أُنْذَرْتُمْ » (ابن عساکر عن معاوية) .

٣ - قال عمر الفاروق رضي الله عنه مرة :

ويل لديان من في الأرض من ديان من في السماء يوم يلتقونه إلا من أمر بالعدل وقضى بالحق ولم يقض على هوى ولا على قرابة ولا على رغب ولا على رهب وجعل كتاب الله مرآة بين عينيه .

ومن حسن الحظ أنه في عصرنا الحديث نالت هذه المسألة أهمية جديدة ؛ فقد تم تأسيس قسم مستقل خاص أطلق عليه اسم « علم الموت » Thanaology . يجب أمر الموت من وجهة نظر علمية ، وإن يمر وقت طويل حتى تبدأ معظم الأبحاث المتعلقة بالموت في التركيز

عنى موضوعات الكتب الدينية بحسبة خاصة . والموت المفاجيء هو أهم الموضوعات التى تلقى رواجاً وقبولاً لدى العلم الحديث . حتى إنه أصبح تخصصياً علمياً . وتفخر جامعة مينسوتا الأمريكية بأنها أقامت مركزاً لدراسة الموت . وقد أنشأ U.C.L.A. معملاً له هدف دراسة ظروف إصابة الحياة بالأضرار .

وفى المجالس الاجتماعية بدأ موضوع الموت يدرس مثله مثل موضوعات الجنس والسياسة . وذكرت جريدة (أتلانتيك) الأمريكية فى تحليل لها أن بعض الكتب الجديدة بدأت فى الظهور . ويمكن أن نطلق عليها اسم « كتب علم الموت » ، ولا يمكن للدعوة الدينية أن تجد أطياب من هذه الظروف التى تنبه الإنسان إلى جوانب الموت والحياة .

واعتبار التذكير بالآخرة هو المحور الأساسى للدعوة . جاء نتيجة لأن هذه أعظم قضية تواجه الإنسان . وهى أساسا القضية التى تقرر نهاية الإنسان الأبدية طبقاً لأعماله بعد الموت .

لقد اعتبر الموت . واعتبرت الحياة بعد الموت من أهم القضايا التى يجب أن يواجه الإنسان اليها تقديراً كبيراً من اهتماماته . كتب دكتور (بيلى جراهام) (١٩١٨ -) « أن شخصاً دعانى إلى بيته وكان واحداً من أغنياء هذا العالم . وفهمت من دعوته لى ضرورة وصولى إليه فى أقرب فرصة . وفور الانتهاء من تناول الطعام أخذنى إلى غرفة منفردة وقال :

«بينما أنا الآن فى صحة جيدة فإن عمرى يخبرنى بأننى لن أعيش طويلاً ، أنا لم افكر كثيراً فى الموت من قبل . ولكننى الآن أجد

عقلى مشغولاً تماماً بهذا الأمر . وهذه الفكرة تخيفنى : أنا أحتاج
إلى مساعدة » (١) •

هذه قضية تعد ذاتية لكل إنسان ، لأن كل إنسان سيواجه الموت
حنماً . وتجربة آلاف السنين أثبتت أنه لا استثناء فى هذا . ثم إن
الموت هو أكبر قضايا الإنسان العاجلة : لأنه لا يوجد موعد لحلوله :
وهذه هى الحقيقة الواقعة فأى شخص مهما حقق من فلاح فى
الدنيا حين تداعبه فكرة الموت يرتعد ويرتعش لأنه يعلم أنه لا يمكن أن
يؤجل الموت ولا يمكن أن يسرى فلاحه ونجاحه فى الحياة القادمة ، وهذا
الجانب من الفطرة الانسانية يحتل مقاما عاليا حين نبدأ فى زرع دعوة
الحق فى قلب إنسان ما : وهذا هو الباب الذى لا يوجد عليه أى حارس
أو رقيب : فحين تقرر باب قلب إنسان ما ستجده مفتوحا امامك لأنه
الباب الوحيد الذى لا يغلق أبداً فى وجه أحد •

من ضرورات الدعوة : مركز إسلامى عالمى

من أكبر المسؤوليات الملقاة على عاتق مسلمى العالم اليوم أن
يكونوا شهداء حق على أمم العالم ، ولا يمكن أن يخلصهم من هذه
المسئولية أى عمل آخر . وهذا هو العمل الذى اشتري به الله من
المؤمنين أنفسهم وأموالهم (التوبة - ١١١) (٢) •

كيف يبدأ هذا العمل ؟ الإجابة على هذا السؤال موجودة فى
القرآن الكريم • يفهم من القرآن الكريم أن الله تعالى يريد أن يكون
للمسلمين مركز ينظم عملية الدعوة والتربية : يتلى فيه كلام الله أمام

(١) مجلة ، ريزرود ايجي٢ ، • ديسمبر ١٩٧٢ •

(٢) يشير الى قوله تعالى : « ان الله اشتري من المؤمنين أنفسهم واموالهم بأن

بها الجنة » .

غير المسلمين (التوبة - ٦) (١) * ومن ناحية أخرى يعد تنظيم المسلمين حيث يفدون من بلادهم إلى هذا المركز ليقضوا به فترة تربية في سبيل الدعوة والتبليغ . ثم يعودون بعد ذلك إلى بلادهم فبطلوا أممهم وأهاليهم على ما تعلموه (التوبة - ١٢٢) (٢) *

وإنشاء مثل هذا المركز إنما هو من أكبر مسؤوليات المسلمين اليوم؛ ويجب أن يكون هذا المركز على المستوى الذي يتناسب مع عالمنا اليوم. لقد أنشأ البشرون الفخاري مراكز لتبليغ دينهم يضم كل مركز منها مساحة عدة أميال . يمتلكون محطة للإذاعة . ومجموعة من الطائرات . يمتلكون الجامعات * ومادامنا لا نؤسس مركزاً على هذا المستوى ، وبأحسن من هذا المستوى فلا يمكن أن نجد عذراً نقدمه أمام الله عن تقصيرنا في تقديم وتبليغ دعوة الحق . يجب أن نقيم مؤسسة كاملة على أرض واسعة ، تجهز بأعظم الوسائل والسبل اللازمة للنشر والطبع . تمتلك جامعتها الخاصة بها . ومكتبتها الكاملة . وتمتلك هيئة كاملة تختص بالبحث والتأليف . وتمتلك داراً للنشر بكل اللغات ؛ ويجب أن تتوفر لها محطة للإذاعة وعدد من الطائرات . أي يمكن أن تستفيد من جميع ما هو على أرض الله . وما يمكن الاستفادة منه في سبيل نشر الدين *

هذا مجرد حلم . إلا أن الكنز الذي فتحه الله على المسلمين جعل من السهل عليهم إنشاء مثل هذا المركز . إذ أن قليلاً من الوسائل المتوفرة حالياً يكفي تماماً لإقامة هذا المركز على أحدث النظم وبأعلى مستوى *

(١) يشير إلى قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استطرك فأخذه بضمة يده » .
الله ثم أبلغه مأمنه » .

(٢) يشير إلى قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » .

ان الله تعالى يريد أن تبلغ رسالته إلى عباده بطريقة كاملة تامة ، وكانت هذه هي الحكمة التي من أجلها وهب الله تعالى المسلمين قوة السيف غي عصر السيف ومنح على يدهم جميع البلاد المعروفة في وقتهم ، وانتشر صوت الإسلام في كل مكان .

أما اليوم — وفي مجال استخدام الآلة — فقد وهبهم الله قوة البترول بطريقة مدسدة . جاء في تقرير البنك العالمي رقم ٤٧٧ (سنة ١٩٧٤) أن الدول المنتجة للبترول OPEC تمتلك بين يديها ٨٥٪ من حصة التجارة العالمية ومن هنا فوس تمتلك اليوم مفتاح القوة الاقتصادية في العالم الحديث . وهذه الفرص لم تعط لهم بلا هدف أو بلا غرض بل أعطيت لهم حتى تتفق على العمل الأساسي ألا وهو هدف جديد المسلمين المحدد .

بدأ استخراج البترول من باطن الأرض في التاريخ الحديث سنة ١٨٥٩ حين نجح آيدون ايل دريك (أمريكا) في استنباطه من عمق سبعين قدما في بنسلفانيا ، واكتشف البترول في الشرق الأوسط لأول مرة سنة ١٩٠٨ م في « مسجد سليمان » وفي ذلك الوقت كان الأتراك يحكمون العرب . وقد قدمت الشركات الغربية تسهيلات للامبراطورية العثمانية لاستخراج البترول من هذه المنطقة .

إن سر القوة الصناعية في العالم وسر تطورها ورفقها يكمن في البترول . وهو يماثل الآن الماء بالنسبة للزراعة ، واندماها بالنسبة لجسم الإنسان ومن الحير أن جزءاً كبيراً من هذه الثروة الطبيعية مدفون تحت الأرض في المنطقة التي يطلق عليها « الشرق الأوسط » أو « الخليج العربي » . وقد ظلت هذه الثروة منذ بداية القرن الحالي وحتى الآن في قبضة الأمم الغربية الصناعية وبخاصة أمريكا . ويمكن

سر تتقدم هذه الأمم في ذلك الوقود الرخيص الذى تحصل عليه هذه الأمم بسهولة كبيرة من بلدان الشرق الأوسط • والمسلمون في العالم هم الذين يمتلكون قوة البترول ورغم ذلك فهم الآن ضعفاء العالم في عصر قامت فيه حركات عديدة ، وظهر فيه العديد من القادة ، إلا أن احداً منهم لم يعرف هذا السر : ولم تحاول أية أمة أن تنهض في هذا الانجاء • واستخدام البترول في حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ لم يكن بخبرية شعورية بل كان في معظم الأمر كعصا رجل كسيع يتوكأ عليها. ودانت هذه هي التجربة الأولى التى عرف الناس من خلالها أن البترول قوة وطاقه كبيرة . إذا ما استخدمت حتى بطريقتة جزئية أمكن ان تنز الصناعة الدولية كلها •

وعد وحلت قيمة البترول المستخرج من منطقة الشرق الأوسط في منتصف سنة ١٩٧٤ ٢٠٠.٠٠٠.٠٠٠ دولار في اليوم . وقد أحدث هذا الفيضان من الثروة انقلاباً مفاجئاً في دول الخليج العربى حتى أن أهل البلاد أصبحوا عاجزين عن إيجاد مجالات لإنفاق هذه الثروة ؛ ومُطبق لتقديرات البنك العالمى سيكون لدى دول البترول حتى سنة ١٩٨٥ فائض مالى يقدر بمليون مليون دولار وذلك بعد خصم النفقات العديدة بكل أنواعها وبعد الإسراف الشديد جداً ، وهنا يجب أن نتذكر أن النبى ﷺ تنبأ بظهور هذه الثروة في الوقت الذى كانت فيه الرمال تتطاير على الجزيرة العربية ولم يكن يرى فيها غير الجبال . وهذه النبوءة جاءت في الأحاديث بألفاظ مختلفة ومطبقة لما ورد في رواية البخارى ومسلم :

« يوشك أن يحسر الفرات عن كنز من ذهب فمن حضرة فلا يأخذ منه شيئاً » متفق عليه •

وم تاله ﷺ حين أشار إلى هذا الكنز (فلا يأخذ منه شيئاً)

جدير بالاهتمام ؛ فمعناه أن الثروة الطبيعية أى الذهب السائل Liquid Gold لا يجب أن يكون من أجل التمتع الذاتى . بل إن الثروة التى وهبها الله : يجب أن تكون فى سبيل الله . فالبتروى الذى ظهر فى هذه الدول إنما هو لها غتنة كبيرة ؛ والشكل الوحيد للنجاة من هذه الغتنة هو أن ترصد هذه الثروة من أجل الكفاح والجهاد لإحياء الدعوة الإسلامية ونشر الإسلام بالاضافة إلى النفقات الضرورية الأخرى . فإذا لم تفعل هذه الدول ذلك فإن هذا الكنز سيكون يوم القيامة وبالا عليها . وقد نبه القرآن الكريم إلى هذا فى سورة التوبة (٣٤) (١) . والواجب أن ترصد الدول المنتجة للبتروى ميزانية خاصة فيما بينها تشارك فيها كل دولة بهبات خاصة تكون فى النهاية ميزانية يتم بها إنشاء مركز إسلامى عظيم على مستوى حديث ؛ فأية مؤسسة عادية لا يمكنها أن تؤدى واجب شهادة الحق فى دنيا اليوم ؛ فمعصرنا هذا هو عصر المستوى Standardization وفى دنيا اليوم لا يمكن لشيء أن يؤثر إذا لم يكن على المستوى الذى من أجله جعل هذا الشيء .

ومعرفة سنة الله تعالى من خلال سلسلة الرسل تقضي أن إعلان الدعوة يتم على مستوى الإعجاز الإلهى على الدوام . وإعطاء الأنبياء المعجزات هو الأمر الذى يحمل أهمية فى الأذهان البشرية العامة فى أى زمان . وذلك حتى يمكن للإنسان نفسه أن يشاهد سمو الله فى ضوء المعايير المعروفة لدى الإنسان ذاته . ونبى آخر الزمان محمد بن عبد الله لم يعط هذا النوع من المعجزات السابقة . وحين طالبه

١ - يشير إلى قوله تعالى : . والذين يكفون الذهب والفضة ولا ينفقوها فى سبيل

الله يشرهم بعداب اليهم .

معارضو الإسلام بهذا ، بل إن هذا القرآن الذي أنزل عليه هو معجزته
 منسوخة (العنكبوت - ٥١) (١) •

كانت تلك هي الخاطئية التي ميزت الزمان التالي ، فبعد نبي
 آخر الزمان دخل العصر الإنساني دور العصر العلمي والتقني ؛ إذ لم
 يكن هذا العصر عصر « معجزات » بالمعنى السابق له ، بل هو عصر
 يحمل أهمية الإثبات العقلي والاستدلال المنطقي . ولهذا اختار الله
 تعالى في ذلك العصر : القلم وسيلة للإعجاز (العلق - ٤) (٢) •
 وأنزل كتساباً هو القرآن لا يمكن أن يأتي بمثله إنس ولا جان
 (الإسراء - ٨٨) (٣) •

وفي العصر الحاضر تمثل الخطأ الأكبر في عدم وصول المستوى
 الفكري الحالي للمستوى الفكري الممثل في القرآن الكريم . وجميع
 الأخطاء التي نقع فيها في عصرنا هذا إنما تكمن جذورها في تقصير
 معين ولوذا غاؤل عمل يخلع به المركز الإسلامي المقترح هو أن
 يستعمل أعظم سبل البحث لإثبات التعاليم الإسلامية على مستوى
 علمي رفيع . ويجب أن يكون هذا الهدف هو أول ما يقوم به وأن يكون
 الهدف الرئيسي لجميع أقسامه •

وللعمل العلمي جانبان معينان يمكن استخلاصهما من الآية
 الكريمة التالية :

- ١ - يشير إلى قوله تعالى : « أولم ينظروا أنزلنا عليك الكتاب بين يديهم ؟ »
- ٢ - يشير إلى قوله تعالى : « اقرأ وربك الأكرم » الذي علم بالقلم .
- ٣ - يشير إلى قوله تعالى : « قل لأن أطيع الله وأطيع الرسول خير من أن أطيع
 هذا القرآن لا يكون منه ولو كان بمعصم ليعنى ظهراً » .

« قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات ائتونى بكتاب من قبل هذا أو أثارة من علم إن كنتم صادقين » (١) .

يفهم من الآية الكريمة أن للاستدلال أسلوبين رئيسيين : الكتاب ، السماوى المعتمد ؛ والعلم المسلم به لدى علماء الزمان . هذان هما الأسلوبان اللذان يدعمان دعوة الحق ، فمن ناحية التعليمات القرآنية يجب إيضاح الشئ كما هو ، ومن الناحية الأخرى يجب التدليل على الإسلام طبعا للمستوى العلمى الشائع ، وعنوان الشئ الأول هو . إثبات الدين وعنوان الشئ الثانى هو : علم الكلام ، وتوجد كتابات كثيرة لا تعد ولا تحصى لإثبات التعليمات الدينية إلا أنها كلها تتم بأسلوب تقليدى . ولا تزال هناك ضرورة لإعادة صياغتها طبقا للمقتضيات والمستلزمات الفكرية الحديثة .

والاهتمام الأول هنا يجب أن يوجه إلى القرآن الكريم ، فالحقيقة أن القرآن هو أكثر الأمور المؤثرة فى مجال الدعوة الإسلامية ، وأى كلام أو خطاب لا يمكن أن يبدل أو يغير هذا الكلام الربانى ، إلا أن القرآن الكريم يكون مؤثرا بالنسبة لأولئك الأشخاص الذين يعرفون لغة القرآن ، وكان داعية الإسلام الأول يعرف هذا السر جيدا . ومن هنا فحين تخطى الإسلام نطاق الجزيرة العربية حاول أن يبدل كل جهد حتى تتعلم الأمم الأخرى اللغة العربية ، وكانت الأمم التى تسكن خارج الجزيرة العربية تتكلم آنذاك لغات مختلفة : كانت اللغة الآرامية تروج فى العراق والشام ، واللغة القبطية فى مصر واللغة البربرية فى بلاد المغرب (إفريقية) ، وبجود العرب انتهت هذه اللغات خلال قرن من الزمان وأصبحت المنطقة كلها تتكلم اللغة العربية وفى الفترة التالية.

(١) الاحصاف : ٤ .

وحين طرأ الجمود على الأمم المسلمة مات الهدف الأسمى . ولا شك أن أبحاث جافة عقيمة عن مثل هذه القضايا بدأت تفرض نفسها وعلى سبيل المثال . هل تجوز ترجمة القرآن إلى اللغات الأخرى أم لا ؟ ! هل تجوز الصلاة بلغة أخرى غير العربية أم لا ؟ ! هل يمكن إلقاء خطبة الجمعة . بلغة أخرى غير العربية أم لا ؟ ! وغيرها من أبحاث عقيمة .

ومن حسن الحظ أن تنال اللغة العربية حظاً من الاهتمام في زماننا الحالي لعدة أسباب . كما أن السياسة النفطية أصبحت ذات تأثير قوى لدرجة جعلت اللغة العربية هي اللغة الخامسة المعترف بها في الأمم المتحدة . كما أن الاتجاه لفهم التاريخ القديم أصوله وفكره . ودراسة الأديان كلها من البداية . جعل الناس يتجهون للغة العربية ، وقد تم الاعتراف بأهمية اللغة العربية التي يتكلم بها أكثر من مائة مليون والتي تعد اللغة الرسمية لأكثر من عشرين بلداً ، ووحل الاهتمام بها إلى مجال السياسة الخارجية لبلدان العالم فقد أنبتت الثروة العربية لدى جميع الأمم جاذبية جديدة للغة العربية .

وعلينا أن نستفيد من هذه الفرص الجديدة بكل قوة وذلك من أجل إثراء اللغة العربية . والأساليب الحديثة سوف تكون أكثر عوناً لنا ! فقد ظهرت أساليب جديدة لتعليم اللغات تمكن الإنسان من معرفة أية لغة بسرعة بالقدر الذى يحتاجه فى عدة أسابيع فقط ، وعلينا أن نأخذ بهذه الأساليب لنشر اللغة العربية ، وعلينا أن ننترك تماماً الطرق الدقيانوسية القديمة .

وهناك ضرورة أخرى تتمثل فى إعداد كتاب بمختلف اللغات عن التعاليم القرآنية وسيرة الرسول ﷺ وأحوال الصحابة والتاريخ الإسلامى ويكتب بطريقة مبسطة لا تتضمن سرداً إنشائياً أو حشواً إضافياً . بالإضافة إلى تجنب الأسلوب الأدبى المصطنع . واللغة التى

تظهر التعصب العقدي ، ويمكن فقط أن يقوم بهذه المهمة أولئك الناس الذين درسوا أسلوب البحث المعاصر ولهم قدرة وتمكن بأسلوب الكتابة الجديد .

والأمر الثانى الواجب القيام به هو إظهار الإسلام بطريقة علمية ، وليس معنى هذا تأليف الكتب ونشرها ، إن الإظهار العلمى للإسلام يحل حقيقة فى عصرنا هذا محل المعجزة النبوية ولهذا فهو أمر مفيد حين يتم على مستوى « الإعجاز » ، والعمل الذى يتم بدرجة أقل من هذا المستوى لا يمكن أن يسد ضرورة نشر وتبليغ دين الحق ، لا بطريقة علمية ولا بأية طريقة أخرى .

يفهم من القرآن الكريم أن كل من أرسلهم الله من أنبياء ورسلى ، أرسلوا بلسان تلك الأمم التى وجهوا إليها (إبراهيم - ٤) (١) وليس المقصود بلسان القوم اللغة فقط بل الأسلوب أيضاً .

ومعنى هذا أن الدعوة الإسلامية حين قدمت إلى تلك الأمة ، قدمت بمستوى الوقت الذى ظهرت فيه فجاءت على مستوى الأمة من الناحية اللغوية والبيانية ، وكانت تتطابق مع ذوقهم العلمى ، ومع طريقتهم الاستدلالية ، وطريقتهم فى التعبير ومعيارهم الفكرى ، وعلى سبيل المثال فزماننا هذا هو زمان الاستدلال التحليلى فاذا ما قام شخص بإلقاء خطبة حماسية ، وقدم استدلالاته بالشعر وبأسلوب تمثلى فإن هذا يمثل مفارقة غير مقبولة بمفهوم العصر Anachronism ولا يمكن أن يقوم الاستدلال هكذا على المستوى البيانى للقرآن .

والأصول الضرورية الأخرى تستمد من سنة الله تبارك وتعالى التى وضعها فى سلسلة « المعجزات » ، فالهدف الأساسى للمعجزة سلب

(١) بشير الى قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول الا بلسان قوميه ليبين لهم » .

ما يركز عليه الباطل من ركائز يعتمد عليها في ذلك الزمان . ومثال ذلك حين ألقى السحرة بحبالهم وعصيهم في مصر . في يوم الزينة فأخذت تتلوى كالشعبان ، كان هذا في الحقيقة إعلانا لكبرياء الجماعة المعارضة لموسى عليه السلام . وقامت عصا موسى عليه السلام بالتفضاء على « إغكهم » حين مرت فوق حبالهم بعد أن أصبحت حين تسعى فقضت على حركتها وشكلها الشعباني :

« فإذا هي تلقف ما يأفكون • فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون » (١) •

وهكذا في زماننا الحاضر رشعت دعوى ضد الدين على أساس علمي وعلى أساس تحقيقي وعلى علماء الدين ورافعي رأيتهم القيام بدعم وتعزيد دين الحق عن طريق ردود علمية تقوم على أساس البحث والتحقيق . وعليهم أن يبرهنوا على ضعف استدلالات الفريق الثاني حتى يهدموا حائطهم العلمي وحتى يثبتوا صدق دين الحق •

وأهم هدف للمركز الإسلامي هو إعداد أشخاص على أساس مقتنيات وهــنـلـزـمـات العـحـر الحـديـث ولا يمكن أن يتحقق هذا عن طريق معسكرات التربية المعروفة حاليا ، بل يستلزم الأمر جامعة على أحدث أسلوب وطراز ، وأن تشرف على أبحاث عظيمة يمكن أن تواجه الأفكار الحديثة التي تتعارض مع الإسلام ، ومن هنا يمكن تخريج رجال يواجهون هذه الأفكار ، وتتم تربيتهم في ظل أعظم الأبحاث أيضاً •

ويذكر القرآن الكريم فيما يتعلق بموسى عليه السلام أنه مر بمراحل مختلفة وتجارب عديدة ابتداء من حياته داخل قصر فرعون وحتى وصوله للحياة المحراوية • وحين وصل إلى مرحلة النضج

وإلى الدرجة المقررة حينئذ أسندت إليه مسئولية النبوة طبقاً للسنة الإلهية فاستطاع أن يؤديها على خير وجه «ثم جئت على قدر يا موسى»^(١) هذه هي الطريقة التي اختارها الله لجميع أنبيائه .

ويلزم للدعاة والمبلغين في الفترة التالية أيضاً أن يعدوا أنفسهم طبقاً لهذه الأصول . فعليهم أن يتعلموا لغة تلك البلاد التي يقومون بدعوة أهلها .

كان زيد بن ثابت الأنصاري يعرف ست لغات : العربية والفارسية والرومية والقبطية والحبشية والسريانية ، وكان من واجبه دراسة الأديان دراسة مقارنة حتى إنه كان حين يعرض الإسلام أمام أهل الديانات الأخرى - كان يعرف كيف يوضحه لهم بأسلوب رائع وبحجة دامغة .

وعلى الداعية أيضاً أن يكون على معرفة بالعلوم التي تتعلق بالدين سواء بطريقة إيجابية أو سلبية حتى يمكن أن ينتبه إلى الخلفية الذهنية للمخاطب أثناء خطابه معه .

هذه هي الأمور اللازمة التي تصل بالداعية إلى المقام الذي يجعله كفواً لعمله حين يدعو الناس إلى دين الحق .

لقد قامت الإرساليات المسيحية بوضع جميع الإمكانيات المذهلة من أجل تربية دعايتها . وعلى سبيل المثال إطلاعهم بطريقة كاملة على أحوال المسيحيين في الاتحاد السوفيتي ، فقد أقامت هذه الإرساليات في أمريكا في منطقتة نائية مدينة ، كانت نموذجاً كاملاً لمدينة روسية ، وفي المدينة المصطنعة كانت اللغة الروسية هي لغة التخاطب ، كما كان

(١) طه ٤٠ .

الطعام والنسابة والحياة وكل شئ على الطريقة الروسية . وهكذا تم تدريب وتربيته عدد من انفساوسه تربيته عمليه حتى اصبحوا من ناحية التسلسل والصورة : ومن ناحية اللغة والعادات والتقاليد ومن كل ناحية — يبدون وكانهم من اهل روسيا نفسها . تم تم تدريبهم على قيادته الطائرات والسقوط بالمظلات . وبعد أن تدربوا على كل هذا ونجحوا فيه ، تم إسقاطهم في صمت كامل من الطائرات في المنطقة الروسية حيث عاشوا هناك لفترة محددة في المدينة الروسية وداخل هذا « الستار الحديدى » درسوا حانة المسيحيين . وللقيام بمثل هذا العمل الذاتى تم أيضا تدريبهم على جغرافية الاتحاد السوفيتى ، وبعد استكمال هؤلاء القساوسة لبرنامجهم ، تم إنزال الطائرات مرة ثانية في منطقة روسية بعيدة ، وحسب الاتفاق ركبوا الطائرة وعادوا إلى منزلهم مرة ثانية •

وفى داخل غابات بيلو انفسيحة توجد عدة قبائل لا تزال تعيش حالة من البربرية ، تقوم بقتل أى إنسان متحضر إذا ما اقترب منهم • وضع النصارى برنامجا لتبليغهم رسالة المسيح ، فأقاموا لهذا هيئة وبدأوا فى تربية الناس ، ووجد هؤلاء الناس إلى هذه المناطق . وتم إسقاطهم بالمظلات ، وفى البداية قامت هذه القبائل بقتل العديد من المبشرين المسيحيين ، إلا أنهم استمروا فى محاولاتهم ، تعلموا لغتهم ، ووضعوا لها قواعد وترجموا إليها الإنجيل وأقاموا فى هذه الغابات مطارا وإذاعة ومستشفى وكلية ومطبعة؛ أقاموا عالما جديدا وفى النهاية تحولت هذه القبائل إلى قبائل متحضرة ودخلت المسيحية •

ذلك هو مستوى التربية الذى وصل إليه دعاة الأديان الأخرى ، فطالما لا نقيم نظاما لتربية أفرادنا على مستوى طيب كهذا المستوى أو أطيب منه فلن يمكن للحركة الإسلامية أن تنجح فى الوقت الحالى . ولا يمكن لمحاولة أقل من ذلك أن تبرىء ذمتنا أمام الله •

ومع الاستعدادات السابقة فإن تعاون عامة المسلمين فى إطار المركز الإسلامى هو ضرورة واجبة من عدة جوانب نستخلصها فى ضوء القرآن والسنة .

١ - العمل الأول هو إحياء الإحساس داخل عامة المسلمين وهو الإحساس بأن المسلم ليس كأى إنسان عادى بل هو إنسان ينتمى إلى الأمة المحمدية ، وهذا الانتماء يفرض عليه مسئوليتين فى وقت واحد : الأولى أن يتبع فى حياته الخاصة سبيل الإيمان والإسلام ، والثانية أن يقضى حياته فى ظل هذا الإحساس أى يكون شاهد حق فى هذه الدنيا :

« يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله » (١) .

فالشخص الذى يعتنق الإسلام عليه مسئولية المضى على طريق « القسط » فى جميع معاملاته . وهو القسط الذى قرره الله للناس . ولكن حين يصادفه رجل لم يتبع الإسلام بعد فإن هذه المسئولية تتخذ شكلاً أكثر دقة ، فلعلة يقبل الإسلام . وتزيد المسئولية أكثر فأكثر إذ يجب أن يتعامل فى ظل الإحساس بأنه نائب وممثل لله فى هذه الدنيا . وذلك لأن الناس سوف يطلعون من خلال عمله ومن خلال كلامه على ما يرضى الله وعلى السلوك الذى يسلكه الإنسان ليرضى ربه تماماً مثلاً يجب أن تكون الإشارات المعلقة على الطريق Sign Posts صحيحة تماماً لأنها تدل على الجهات التى يمضى إليها المسافر ، فإن لم نفعل كذلك فإن هيئة الطرق لا تكون لها قيمة . ومن هنا فيجب على مسلمى العالم أن يكونوا ممثلين للحق فى هذه الدنيا . ففى الحالات العامة يمكن أن يكون تفسير المسلمين شيئاً يقبل الغفران . ولكن حين يكون الأمر متعلق بمواجهة غير المسلم فيجب على المسلمين بل من الضرورى أن يراعوا جميع الجوانب بمنتهى الحيطة والدقة حتى لا يعطوا صورة خاطئة لدين

الله أمام غير المسلم ، وفى الحياة العامة يمكن أن يغفر ذلك للمسلم « الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم » (١) . ولكن حين يتعلق الأمر بغير المسلم فإن الانحراف عن الحق انما هو تماما كشهادة الزور (انظران - ٧٢) (٢) وتضاد الزور هي في نظر الله من أعظم الآثام .

٢ - اعتاد العرب أن يقيموا كل سنة وفى أماكن متفرقة مبرجانات واحتفالات قومية تجتمع فيها القبائل من كل ناحية . فتعقد برامج للتسليه ولتجارة . كما هو الحال فى بعض المبرجانات اليوم . وفى شب السيرة يرد ذكر مبرجانات (أسواق) عكاظ وذى المجاز ومنى وغيرها . وكان من بين الطرق التى اتبعها نبي الإسلام فى دعوته الذهاب إلى هذه المبرجانات ودعوة الناس إلى الدين الحق . ويقول أحد الصحابة فى الفترة الأولى : رأيت النبي ﷺ فى سوق ذى المجاز وكان يمر فى السوق مرتديا عباءة حمراء ويقول : « أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » .

ويمكن اتباع هذه الطريقة فى زماننا الحالى : وذلك بوضع مقامات فى أماكن الاجتماعات والمعارض والمبرجانات المختلفة . توضع عليها مختلف الكتب الإسلامية بمختلف اللغات ، توزع مجانا ، ويمكن إسماع الناس الرسائل المبسطة بأسلوب ضيق عن طريق مكبرات الصوت . كما يمكن إنشاء زوايا مكتبية ، ويمكن استحداث أساليب جديدة فى أماكن تجمع الناس لتحقيق هذا الهدف الذى كان يحققه النبي من خلال أسواق العرب ومبرجاناتهم القديمة .

(١) النجم ٣٢ .

(٢) يشير الى قوله تعالى : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما » .

٣ - يذكر في التاريخ ان النبي ﷺ ارسل حالدا إلى قبيله بنى حارث - ولم تكن على الإسلام - حتى يبلغها رساله الإسلام • ووصل حالدا ورفاقه إلى نجران موطن قبيله بنى حارث • ودنوا ردوبا • عاضوا يعضون بارجاء نجران جميعها ويغنون بصوت عا : « ايها الناس اسلموا تسلموا » (١) • وكان يطلق على مثل هذا الوفد مصطلح « سرية » • وبعد الهجرة ارسلت مثل هذه السرايا إلى السكان غير المسلمين • وكانوا يذهبون في سكل جماعات يدعون الناس إلى الإسلام بأسلوب بسيط • ويمكن اتباع هذه الطريقة بما يتوافق مع الظروف الحالية وتستعمل في تعريف الناس بالإسلام •

وعلى سبيل المثال يمكن اختيار مدينة او حتى غير مسلم • ويمكن دراسة الظروف هناك وطبقا لهذه الظروف تتم تربيته جنابه مسلمه • بعين لها أمير • يكون عليه مهمة التلازم ويبقى بفيه اناس مسلمين يدعون له • تصل هذه القافلة إلى المدينة المقررة فتصل قبل شئ رغبين ويدعو الجميع أن يعينهم الله على تحقيق مهمتهم • وتخرج القافلة - بعد ذلك - تحمل إعلاناً طليماً عن اجتماع في مكان معين في وقت محدد • ويدعى إلى الاجتماع الرجال والنساء جميعا • وتكتب على البطاقات التي توزع على المجتمعين عبارة بسيطة مناسبة مثل :

« والله يدعوا إلى دار السلام » (٢) •

(and God calls to the home of peace)

يقدم أمير الجماعة البطاقة إلى رب الأسرة ويتحدث معه حديثاً مختصراً ، ثم يدعوه للاشتراك في الاجتماع في المكان والزمان المحدد • وتصل الدعوة إلى كل بيت في المنطقة ويجتمع مثلوا الوفد يؤدون

١٠ البداية والنهاية ، مطد ٥ من ٩٨ •

(٢) يونيو ٢٥ •

الصلاة هناك : ويذكرون الله ويدعونه . يتلون القرآن . ولا يكون الأمر كما يجرى عادة حين يجتمع الناس وينشغل كل منهم في حديث خاص مع الآخر بل نعم الذكر والعبادة والدعاء والتلاوة المكان ، فيفيض على المكان نور رباني وجو من تسخير الباطن . وتتضح من كلام المتحدثين خصوصية الصدق حتى يكون كلامهم محذاقاً لقوله تعالى : « **وقل لهم في أنفسهم قولاً بليغاً** » (١) . ثم يقرم انخضاب بإلقاء خطابه في النهاية بهذه المناسبة ويكون فيه نموذجاً لكل داعية مسلم .

٤ - وكما يوجد في زماننا الحاضر حالات أو حدائق للاجتماعات. كان هناك أيضاً لدى العرب القدامى جبل الصفا : وهو في الحقيقة هضبة يقف عليها الإنسان . وينادي فيجتمع الناس فيلقى فيهم خطابه . أخرج أحمد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « **لما أنزل الله (وأنذر عشيرتك الأقربين) أتى النبي ﷺ الصفا فصعد عليه ثم نادى : « يا صباحاه » فاجتمع الناس إليه بين رجل يجيبه إليه وبين رجل يبعث رسوله . فقال رسول الله ﷺ يا بني عبد المطلب ! يا بني فهر ! يا بني كعب ! أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتهموني ؟ قالوا : نعم . قال فأنى نذير لكم بين يدي عذاب شديد » .**

وهكذا يمكن أن نستخدم الأماكن الحالية كما كان يستخدم « الصفا » لإبلاغ دعوة الحق . ويمكن أن تعقد مثل هذه الاجتماعات التي تعطى فيها الفرصة لأهل جميع الديانات الأخرى حتى يقدموا تعريفاً بأديانهم ويوضحوا أصولهم : ثم يقف ممثل الإسلام في النهاية ليعبر عن رأيه بطريقة علمية سليمة : يشرح ما هو الإسلام . وماذا

يجب أن يفعل المسلم . وهذا الأسلوب له فائدة خاصة . لأن الخطاب فيه خطاب غير شخصي . وهكذا يمكن للإنسان أن يقدم الدعوة إلى الإسلام بطريقة مباشرة . ولكن في الحديث الشخصي يشعر الداعية بصورة عامة بقدر من التكلف في دعوته للإسلام مباشرة . وفي البلاد التي يسيطر فيها المسلمون على الوسائل الاجتماعية يمكن الاستفادة على نطاق واسع منها سواء باستخدام الإذاعة الإسلامية مثلما أنشأت الإرساليات المسيحية إذاعة باسم « صوت الإنجيل » في إفريقيا لتؤدي فريضة التبشير بالمسيحية .

هـ - وفي المركز الإسلامي يقام متحف إسلامي تجمع فيه الآثار التاريخية الإسلامية وذلك في صورة وقائع وأحداث تاريخية ، ومن المعروف أن المسيح عليه السلام ومن سبقه من الأنبياء لا يوجد لهم أي تسجيل تاريخي معاصر . ولهذا اعتبر هؤلاء الأنبياء شخصيات أسطورية . وليست شخصيات تاريخية . أما خاتم الأنبياء ﷺ فجميع الوثائق التاريخية وأحداث زمانه وحياته لا تزال باقية وثابتة حتى الآن . وتجمع في هذا المتحف كتب المؤرخين المعاصرين له . تلك التي كتبت باللغة الآرامية واللغات الأخرى والتي تذكر صراحة « النبي الإسماعيلي » وكذلك ما أرسله النبي من رسائل إلى مؤك زمانه . ويمكن الحصول على صور لهذه الرسائل ، كما أن أول نسخة من نسخ القرآن محفوظة في مكتبة طشقند وهي النسخة التي رتبت تحت إشراف عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ويمكن الحصول على صورتها . وهناك أشياء أخرى من آثار النبي لا تزال موجودة . حتى تسعره وملابسه والأشياء التي كان يستعملها ، وهكذا توجد آثار تاريخية بحالتها الأصلية أو بصورتها ، فإذا أنشئ هذا المتحف على مستوى يليق فسوف يكون مركزاً يقدم شهادة تاريخية : يفد عليه الناس من جميع بقاع الأرض ، فالوثائق المتعلقة بالتاريخ الديني تحمل قيمة أهم

وأعظم من النوادر الأثرية التي جمعت في روما والتي يفد لرؤيتها الناس من جميع أنحاء العالم .

٦ - إذا ما أنشئ مثل هذا المركز وتضمن جميع الأقسام السابقة الذكر حيث تقام فيه الصلاة ويقام فيه ذكر الله والابتغال إليه . ويتضمن مكتبة ومتحفاً إسلامياً ، وجميع النشاطات الإسلامية الأخرى من كل نوع ، فإنه يمكن أن تتحقق من خلالها أهم الفوائد . وعلى سبيل المثال يقول الله تعالى في كتابه الكريم :

« وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون » (١) .

يفهم من هذه الآية أن الله تبارك وتعالى يريد أن يكون « للإسلام مأمن » في مقابل « مأمن الشرك » حيث يأتي الناس ليشاهدوا الإسلام ومظاهره ويستمعوا إلى رسالة الله ، وسيقوم المركز الإسلامي بجميع شعبه بأداء هذه الخدمة ، حتى إنه إذا وجدت الوسائل والسبل حمل الناس إليه حملاً وبعد أن يشتركوا في برنامجهم يعادون إلى « مأمنهم » .

٧ - في القرن الأول كانت غطرة العرب بمثابة أرض خصبة للإسلام . وهذه الغطرة استبدل بها المجتمع العلمي في العصر الحاضر . وحادثة « ووترجيت » المشهورة في أمريكا (١٩٧٣) : وبعدها محاسبة رئيس أكبر دولة « ريتشارد نيكسون » وهو على كرسي الحكم بأشد صورة ، ثم استقالته في النهاية في أغسطس سنة ١٩٧٤ ، مثل هذه الحادثة إما أن نجدها في المجتمع الإسلامي أو في المجتمع العلمي ؛ فالحقيقة أن المجتمع العلمي يصل إلى هذه الدرجة من الكفاءة التي نطلق عليها من غير قصد « الغطرة » ومثل هذا المجتمع يتكون وينمو

فى تلك البلاد نتيجة للتعليم والتربية العلمية • فى تلك البلاد إذا ما قدمت الدعوة إلى دين الحق مع مراعاة مزاج أهل البلاد • فإنه من المؤكد أن يجد هذا الدين حدى فى شلوب الحضارة العظمى منهم • فالدقة مع الواقعية تحتل درجة هامة فى العلوم • ولهذا يكون تأثيرها على العاملين فى مجال العلوم أكثر واعمق فيصل إلى داخلهم • إذ يظهر لديهم تلقائياً مزاج الفكر الدقيق • وكان يطلق على الفلسفة قديماً « ملكة العلوم » إلا أنه فى العصر الحديث لم تعد الفلسفة تتمتع بهذه الأهمية لأن عصرنا هذا هو عصر الدقة الفنية • وأسلوب الفلسفة لا يمكن بحال من الأحوال أن يصل إلى مستوى الكفاءة الفنية • وكان من نتيجة تأثير أسلوب التفكير العلمى انهاء الاستعراق الغربى الذى ظهر قديماً • إن هذا المزاج من الفكر الواقعى يتناسب تماماً مع تبليغ دين الحق •

إن المجتمع العلمى يغده أرواحاً خفية تتفق مع الدعوة إلى الإسلام • ولا ننسى أنه فى هذا المجتمع أيضاً تواجهنا مشكلة فى العمل العلمى يتم عادة عن طريق التجارب الخارجية • ومن هنا فلا يكفى للتأثير فى المجتمع تقديم الاستدلال الفكرى والنظرى • فأهل هذا المجتمع يحتاجون — مع سماعهم للدرس الروحى — إلى تجربة روحانية • يمكن أن يفهموا من خلالها بصورة عملية ما هى الروحانية • وكيف يمكن تنميتها • ويرى بعض الناس أن حل هذا الأمر يكون بالتصوف والأذكار • إلا أن هذه كلها طرق غير منسوجة ولا يمكن إحياء السنة عن طريق البدعة •

وقد ورد إلى خاملى هذا السؤال وأنا أعد هذا الكتاب بين يومى ١٣ و ١٤ يولية سنة ١٩٧٤ وقد رأيت حينئذ • وكنت فى « دلى » رأيت أننى مع بعض الناس من غير المسلمين • وأننى أشرح لهم عن الإسلام • وكانوا مثقفين ثقافة عالية • ولهذا كانوا يحتاجون إلى التمكن من معرفة

صدق الإسلام بالتجربة . فأجبتهم بكل ثقة أن هذا أمر ممكن . وله شكل واحد . وهو أن يجربوا الصلاة . وهى أهم ركن من أركان الإسلام العملية . وكان الحديث باللغة الإنجليزية ونهضت من نومى وتذكرت هذه الفقرة :

Without being a muslim you can experience Namaz

« يمكن أن تجرب الصلاة بدون أن تكون مسلماً » . وبعدها طلبت من رفاقى الموضوع وقلت لهم إننى سأغوم بالصلاة على أن يقفوا ويرددوا معى ما أقول .

بعد هذا الحلم فكرت كثيراً فعرفت أن الصلاة لم تكن لها فائدة نظرية فقط بل كانت لها فائدتها العلمية أيضاً عبر التاريخ وخلال مرات كثيرة . فيروى أن إسلام « هند جكرخوار » كان سببه الأول الصلاة . ويكتب احد علماء التاريخ الافريقى : « لقد انتشر الإسلام فى وسط أفريقيا عن طريق السياح والتجار العرب . وكانت الصلاة هى أكبر معجزة تسببت فى نشر الإسلام فى أفريقيا حيث يقف الناس جميعا خلف إمام واحد يبدو على وجوههم الخوف من الله والرهبة منه فكان الناس يتحيون ويندمون على عبادتهم للأصنام . ومن ناحية أخرى فالعبادة الإسلامية كانت تجذب إليها الناس . وكانت النتيجة أن الصلاة فقط كانت سبباً فى جذب معظم سكان أفريقيا الوسطى إلى كنف الإسلام » (١) .

ويكتب محمد حسين هيكل (رئيس تحرير جريدة الأهرام سابقا) أن جمال عبد الناصر ذهب لأول مرة إلى روسيا وفى لقاءاته بتاريخ ٢٩ أبريل ١٩٥٨ أظهر رئيس وزراء روسيا خروتشوف شوقاً واهتماماً بالصلاة :

« كان لدى خروتشوف شغف كبير بمساعدة منظر صلاة المسلمين . وبعد تناول طعام الغداء فى بيت خروتشوف سُرِع ناصر فى الذهاب إلى مسجد موسكو للصلاة : فأخذ خروتشوف يسأله العديد من الأسئلة . وكان ناصر مشغولاً بالوضوء بينما كان خروتشوف يقف وهو يمسك له المنشفة . لقد أظهر احتراماً وتقديساً كبيراً (١) » .

لقد اشترى بلد عربى جزيرة بجوار الساحل الأمريكى وجعلها مقراً للبهو . ولبيت هناك بلداً إسلامياً اهتم بالأمر فحصل على قطعة كبيرة من الأرض فى العالم العربى فأقام عليها مركزاً إسلامياً على مستوى رفيع يضم مسجداً بالإضافة إلى بقية الأقسام الأخرى التى سبق ذكرها . وتعطى الفرحة لغير المسلمين أيضاً ليقوموا بأداء الصلاة مع المسلمين بدون عاذنة أو تعاطف يصلون عدة ركعات على سبيل التجربة ، وهناك أمل كبير أن تثبت هذه التجربة فائدتها ويدخل الناس فى دين الله أفواجا ، وهذا القول ربما لا يجانبه الصواب وهو أن فتح العالم العربى - الذى يبحث عنه قادتنا منذ قرن - إنما يكمن فى « الصلاة » كأعظم وسيلة للتأثير فيه .

الإمكانات التجارية

قال بريدلي (١٨٤٦ - ١٩٢٤) إن العالم في حاجة إلى دين جديد . نحن في حاجة إلى عقيدة تحدد المصالح الإنسانية كلها . وتقيمها على أساس تشريعي وتناسب ضروري . وتقدم للانسان شعوراً واحساساً . يمكن أن يعتمد عليه بكل ثقة » (١) .

ولم يكد الفيلسوف الإنجليزي يعلن عن حاجة العالم إلى الدين الجديد في الربع الأول من القرن الحالي حتى أعلن العالم الفرنسي «ان درواي» (١٨٠٢ - ١٩٤٧) بدءاً بقبول عن توبته عن الإنحداد . وعودته إلى الدين . ونشر كتابه الشهير Humandistiny فكان ذلك علامة على عودة الإنسان إلى حظيرة الدين . والآن وفي نهاية القرن العشرين ظهر هذا الأمر أكثر وضوحاً ، وزاد هذا الإحساس بعد التجارب المادية . إن فشل محاولات الإصلاح الاجتماعي من خلال القوانين الوضعية والتدابير الدنيوية قد أجبر العقول التي ظلت تتأجج الدين أن تلين أكثر . حتى إننا اليوم نشهد حركة رد فعل مضادة تهدف إلى العودة إلى الدين . وقد ظهرت هذه الحركة في العالم كله .

وهذا جيل امرينا الجديد . الذي آمن أبائوه وآمن أجداده بنظريات داروين وفرويد . يبحث الآن عن راحته وهدوئه في حركة « ثورة المسيح » (Krishna Consciousness) وحركة « محو كريشنا » (Krishna Revolution) والنسباب الياباني ودسل إلى قمة الرقي . ويشعر بالفراغ نظراً لعدم وجود قيم روحية . ويقولون إن ثقافتهم ثقافة تجارية لا تقدم لهم سوى القيم التجارية « Merchant values » فقط .

وفد وصل الأمر إلى أن الجيئ الجديد في روسيا ، وهو الذى نشأ وتربى في أحضان المجتمع الملحد ، بدأ الاتجاه ناحية الدين • وفى اجتماع عقد لضباط هيئة معارضة الأديان في موسكو بالاتحاد السوفيتى قال أحد الضباط وهو يذكر ببطء الإجراءات التى تتخذ ضد الدين : « إن عملنا فى مواجهة الدين يتحرك ببطء المحرك البخارى » •

وسمعه ضابط آخر فقال :

« محرك بخارى ! إنه الآن لم يكتشف حتى العجلة » •

إن جميع النظريات التى ظهرت فى القرن التاسع عشر فى مواجهة الدين والنيل منه قد أثبتت الحقائق المكتشفة عدم صحتها بطريقة تدعو إلى الدهشة ؛ فنظرية الارتقاء التى فهمت على أنها بديل عن الخالق هى اليوم بلا دليل ، وعلى سبيل المثال اكتشفت أساليب وطرق يمكن عن طريقها معرفة عمر الأرض بدقة ، إلا أن العمر الذى ذكرته هذه النظريات ضئيل جداً ، ولا يمكن قياسه بالنسبة لعملية الارتقاء للنماذج الموجودة فى الحياة الآن كما تقترح نظرية الارتقاء •

وقد قام عالمان ممتازان من علماء البيولوجيا بتقديم نظرية جديدة. وهما فرانسيس كريك Francis Crick وزميلة لزللى أورجل Leslie Orgel اللذان فازا بجائزة نوبل عن أبحاثهما المشتركة التى أثبتنا فيها أنه لا يمكن تحديد أو تقرير أن مادة الأرض قد خضعت لنظرية الارتقاء ؛ فمن بين الأشياء المكونة للأرض مادة الموليبدنيم Molybdenum ولها دور فى النظام البيولوجى • والنظام الإنزيمى يعتمد فى عمله على هذا المعدن ، وهذا المعدن — رغم أهميته الكبيرة غير العادية — يوجد بنسبة « اثنين فى الألف » من كل المعادن ؛ ومن ناحية أخرى فلا تصل المعادن الأخرى من مثل الكروميوم والنيكل ، وهى تشبه فى

١٦ - واقمنا ومستقبلنا

حصاصها « الوليدينم » وتصف نسبتها بين معادن الأرض إلى اثنين في المائة .

لا تصل هذه المعادن إلى أهمية المعدن المذكور وذلك بالنسبة للنظام البيولوجي : ويقول كريك وأورجل إن التركيب الكيميائي للأرض كان يجب أن ينعكس على تكوين الحيوانات التي تكونت على الأرض . ولما كان هذا أمراً لم يمتض على إطلاقه ، فمن هنا يفترض العالم أن هناك في الفضاء الأعلى للحياة أماكن معمرة أرسلت إلى الأرض من لسندين حضارة أخرى راقبة . وكانت هذه القراءات هي الأساس العلمي الذي بنى عليه الكيميائي السويدي أرينيس نظرية *Pan-permia* (١) .

مثل هذه الأشياء التي لا حصر لها ، وجدت في زماننا انحالي ، وقربت تماماً بين العلم أو بين الفكر الجديد وبين الدين . وقد تم اكتشاف أمور أخرى عديدة في جميع أفرع العلم في العصر الحديث تثبت صدق المعتقدات الإسلامية بطريقة حيرت العقول . وهزت الذهن الإنساني .

لقد آذى العرب القدماء المعارضون لكلمة التوحيد . آذوا انناضقين بهذه الكلمة إيذاء جليهم لا يتمكنون حتى من الجلوس . وأنجبروهم على ترديد كلمات « اللات والعزى إلهان من دون الله » . وقد أثبت تطور العلم اليوم أن هذه الأمور — أي الشرك بالله — لا أساس لها من الصحة ؛ ففي العلم الحديث أصبح الإيمان بربوبية أي كائن من الكائنات أمراً لا معنى له . فلا وجود للشرك في دنيا العاوم . فإذا وجد عقل شجاع قادر على الاختيار وإذا وجد معه علم عميق حديث .

(١) تسمى هذه النظرية أن الحياة بجانب من خارج الكرة الأرضية .

فإن إثبات الدين اليوم إنما يتم على مستوى عال ويكتسح جميع النظم
انفكرية الحديثة .

١ - ان اهم الاكتشافات العلمية الحديثة من وجهة النظر
الإسلامية هي : الأسلوب المنهجي الحديث ؛ فحتى بداية القرن
العشرين كان من الضروري لإثبات صحة أى استدلال أن تكون هناك
علاقة قرابة أو علاقة مشتركة بين الدعوى والشئ الذى يدعى فى
حقه . تماما كالعلاقة بين مفتاح الكهرباء وبين المصباح الكهربائى المتصل
به . وبعبارة أخرى يلزم لإثبات واقعية نظرية ما أن تكون قابلة للغرض
والاعادة . لكن هذا التصور انتهى الآن ؛ فالوقف العلمى اليوم هو
انه إذا وجدت الحقائق أمكن عن طريقها أن يستنبط العالم نظريته :
ويمكن الاعتراف بهذه النظرية المستنبطة بطريقة علمية كواقع ، وطبقاً
لهذا المعيار الاستدلالي الحديث تمت دعوى نظرية الارتقاء لأنه مهما
كانت غير مشاهدة إلا أن علماء الأحياء اكتشفوا حقائق تثبت الارتقاء
كاستنباط علمى .

وانطلاقاً من هذا المعيار الاستدلالي فإن الاكتشافات العلمية
الجديدة تصل بالإنسان إلى أمر هام جداً من وجهة النظر الإسلامية .
فحتى قبل خمسين سنة لم يكن من الممكن لنا أن نثبت المعتقدات الدينية
على مستوى (الاستدلال العلمى) لأن العلم فى ذلك الوقت كان يعترف
فقط بالحقائق المشاهدة . ولم يكن هناك أى مكان داخل المجال العلمى
للحقائق المستنبطة . ولكن الاستدلالات التى يقدمها القرآن الكريم
للتعبير عن حقائق العالم اللامحسوسة ؛ عن طريق واقعات العالم
المحسوسة هى على الأقل استدلالات علمية خالصة وقائمة على أصول
ثابتة . ولم يكن من الممكن — قبل نصف قرن — أن يقوم أحد بالاعتراف
بهذا الأمر كاستدلال علمى ، وهذا مجال واسع واستغلاله يمكن أن
يكون بمثابة قوة كبيرة تعضد الإسلام فى ساحات النقاش وعلم الكلام .

٢ - والمسائل العقلية التي راجت في زمان ابن رشد (١١٣٠ - ١١٩٨) كان إطارها قائما على المنطق القياسي لأرسطو ، وقد شاهد ابن رشد الكائنات من خلال إطار هذه المسائل العقلية القياسية ، فلم يتقبلها عقله ، فكيف ينكر قدم المادة ؟ ! لقد آمن بأن المادة قديمة وعلى أساس هذا الإيمان وضع أساس غلسفته الإلهية ، ولكن الحقيقة أنه بعد الإيمان بقدم المادة لا يمكن أن يبقى هناك أساس حقيقى للالهييات فنظرية قدم المادة تنكر تماماً خالق الخلق ومبدعه ، وبعدها ، لن يبقى هناك مجال لله من حيث كونه « المحرك الأول » . والحقائق المكتشفة في زماننا الحالى وعلى سبيل المثال « القانون الثانى الحرارة الديناميكية » Second law of Thermodynamics قد أنهى تماماً وإلى الأبد حكاية قدم المادة . وهكذا فهناك حقائق عديدة تعطينا الفرصة للتمكن من وضع الأدلة الدامغة للعقائد الإسلامية على أسس بالغة الإحكام .

٣ - هناك قضية كبيرة أوجعت دماغ الإنسان آلاف السنين دون أن تجد حلا ، وهى أن العلماء والحكماء الذين راحوا يحاولون حل لغز الكائنات عن طريق العقل ، وصلوا إلى أقصى حدود السمو انعقلى ثم فشلوا فى حل هذا اللغز ، وهذا هو السبب فى أن الفلسفة حتى الآن ظلت تعمل على التشكيك فقط . ولم تتمكن من الوصول بالإنسان إلى العقيدة الثابتة . وقد أوضح القرآن الكريم أن الإنسان أعطى علماً قليلا (الإسراء - ٨٥) (١) . والإنسان عن طريق بحثه العقلى يمكن أن يصل إلى حد معين من الحقيقة ، ولا يمكن أن يصل إلى نهاية الحقيقة ، ومحاولة الوصول إلى نهاية الحقيقة لن تنتهى إلا بالفشل . ولهذا فالأمر الواقع هو أن يعتمد الإنسان بعد الوصول إلى هذا الحد

(١) بشرى الى قوله تعالى : « وبسالونك عن الروح قل الروح من امر ربي وما أوتي »

المعين على أسلوب الإلهام ، وكانت هاتان الوجهتان موضوع الأبحاث
انقياسيه في الماضي . وفي الوقت الحاضر أعطى العلم قراره إلى جانب
القرآن بطريقة مدهشة .

لقد اكتشف العلم أن الإنسان يمكن أن يصل بالأسلوب العقلي إلى
العلم الجزئي فقط ، حتى أن نظرية « الجحور السوداء » Black Holes
تدل على أن المادة لا يشاهد الإنسان منها إلا ثلاثة بالمائة فقط و ٩٧٪
من المادة لا يمكن أن يشاهده الإنسان ، وهذا الاكتشاف العلمي الجديد
أعطانا الفرصة لنتمكن من إثبات موقف القرآن بأحدث الطرق العلمية
وأن ندلل على معنوية الحقائق الإلهامية على مستوى علمي جديد .

وما يثبت العلم الجديد من أمور يتطلب دائرة معارف : ونحن
هنا سنتنير إلى بعضها على سبيل المثال :

✽ إن النتائج التي توصلت إليها العلوم أثناء البحث في عالم
الغطرة أثبتت بطريقة محيرة أن هناك عقلا ما وراء هذه الكائنات :
هذا العقل هو الذي قام بخلقها وهو مدبرها : والكائنات التي اكتشفها
العلم كائنات لا تعمل في فراغ كما أنها منظمة تماماً وبدقة مذهلة . حتى
أن الأمر يكون هراء إذا لم نسلم ونعترف بأن وراءها خالقاً ومالكا .

✽ أهم نقاط الخلاف بين الإسلام والأديان الأخرى تتمثل في
قضية الشرع . التوحيد ، فيصعب على الناس تقبل فكرة أن هذه
الدنيا التي تنضم مختلف الأشكال والأنواع يمكن أن تكون لإله واحد
لا شريك له . إلا أن الاكتشافات العلمية قد أكدت تماماً قرارات العلم
الآخيرة المتعلقة بهذه القضية جنباً إلى جنب مع نظرية التوحيد
الإسلامية . وهذه القرارات تعني أن الكائنات ليست فقط واحدة
من ناحية خضوعها كلها لقانون كلي واحد ، بل إن تحليل مادتها إلى

النهاية يثبت أنها من هذه الناحية واحدة أي الذرة أو الموجات
الكهربائية غير المرئية •

✽ وصل العلم إلى آخر مراحلها فأثبت بما لا يدع مجالاً للشك
أن وسائلنا العلمية قد قدمت لنا فقط علماً جزئياً من عالم الواقع فهو
لا يمكن أن يحيط بكل شيء ، وهذا الأمر ليس صحيحاً من ناحية وسائل
المشاهدة الحالية فقط بل إن نوعية الحقائق هي من النوع الذي لا يمكن
مشاهدته أبداً بما لدينا من كفاءات طبيعية محدودة • وبفهم من هذا
أن الإنسان يحتاج إلى وسيلة أخرى لفهم عالم الحقائق بالإضافة
إلى ما يمتلك من علوم حسية •

✽ اكتشف العلم أن الحقيقة في شكلها الأخير غير قابلة للملاحظة
ويمكن أن نستنبط مظاهرها فقط ، ولا يمكن أن نراها بطريقة مباشرة
وهذا يؤكد تماماً موقف الإسلام الذي يوضح أن الإنسان لا يمكن أن
يشاهد الله أو عالم الآخرة في الحياة الدنيا - ولا شك أن البحث في مظاهر
الكون يمكن أن يؤدي إلى اكتشاف الحقيقة الإلهية •

✽ لقد أثبت العلم أن القانون الإلهي يفوق القانون الوضعي
غيباً يخص العلاقات الإنسانية وعلى سبيل المثال جعل الإسلام
الرجال قوامين على النساء (النساء - ٣٤) (١) بينما أكد القانون
الوضعي عكس هذا الأمر : المساواة بين الرجل والمرأة • إلا أنه ثبت
بطريقة علمية خالصة أن المرأة أضعف من حيث الخلقة وأن الرجل
هو الجنس الأقوى بالنسبة للمرأة •

كان أهم أساس وضع عليه فلاسفة العصر القديم معارضتهم
للدين هو « مسألة القدم » أي أن الكائنات موجودة منذ الأزل : فإذا

(١) يشير إلى قوله تعالى : > الرجال قوامون على النساء بما فصل الله مصلهن >

على بشن وبما اتفقوا من أموالهم > •

كانت موجودة منذ الأزل فما هي ضرورة الإيمان بالخالق ؟ ! إلا أن
انعلم الحديث قد أثبت أن عمر العالم محدود ، وهكذا تم القضاء على
هذه النظرية تماماً . وبعدما بدأ الإنسان يعتمد على نظرية الارتقاء .
إلا أنه ثبت هنا أيضاً أن العمر المحدود للأرض لا يمكن أن يكون كافياً
لخلق الإنسان الحالي طبقاً لنظرية الارتقاء في الخلق .

وقد اثبت العلم أن الحقائق الموجودة في الكائنات لا يمكن أن
نقيم على أى منها الاستدلال المباشر أيضاً ، وما يمكن أن نفعله هو أن
نصل إلى قرائن استنباطية عن طريق بعض المشاهدات الظاهرية ، ومن
هنا نصل إلى وجود الحقيقة ؛ وهكذا فقد أثبت العلم صحة الاستدلال
عنمياً عن طريق الوساطة . وهذا هو الأساس الذى قام عليه الاستدلال
على الدين .

قدم الإسلام نظرية خلافة الشورى في السياسة . وقد سيطرت
قديمًا فكرة الملكية الوراثية على العقول ؛ وكانت هذه النظرية غير
مقبولة . إلا أن الثورة الجمهورية الجديدة قد جعلت نظام خلافة
الشورى الإسلامية من الأمور المفهومة لدى إنسان اليوم .

أعلن الإسلام أن للضعفاء حقاً في كسب الإنسان القوى ، ولهذا
صدر قانون الزكاة ؛ إلا أن هذا النوع من النظام الاقتصادي لم يكن
مفهومًا لدى الإنسان قديمًا . وبعد وفاة الرسول ﷺ حدثت مسألة
الردة .

وفي زماننا الحالي جعلت الثورة الاشتراكية هذا الأمر مقبولا ،
أى وجوب وجود حق للآخرين في كسب شخص ما ؛ مع أن الاشتراكية
نذ أخطأت في فكرة أن يكون للآخرين حق في ملكية الشخص مع أن
الصحيح هو أن يكون للآخرين حق في « الدخل » فقط .

وهناك أمر لم يفهم جيداً حتى الآن ، وهو أن عصر العلم هو حقيقة عصر الإسلام وما حدث صدفة وعلى سبيل الخطأ هو وجود صراع بين العلم والمسيحية حتى وصل إلى قضية الإلحاد . ما هو العلم ؟ هو ملاحظة الفطرة . والفطرة ودين الفطرة هما وجهان لحقيقة واحدة . وهذا هو السبب في أن القرآن أوضح أن عصر العلم ليس أبداً خطراً على الإسلام بأى حال من الأحوال بل العلم وسيلة لتبيان الحق :

« سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » (١) •

وعصر العلم لم يبدأ في أوروبا بل بدأ في الأندلس وصقلية في القرن التاسع والعاشر والحادى عشر الميلادى . وتؤكد حقائق التاريخ أنه لم يوجد صدام من أى نوع فى ذلك الوقت بين العلم والدين . والعلم كان يتطور فى ذلك الزمان لىخدم الدين ، ولكن حين قام الأتراك بإخراج العلماء البيزنطيين من الأستانة ومن القسطنطينية فى القرن الخامس عشر ، فهاجروا بعد ذلك ووصلوا إلى إيطاليا — حينئذ انتقلت أبحاث علوم الطبيعة من العالم الإسلامى إلى أوروبا وهنا اتخذ تاريخ العلم وجهاً جديداً تماماً .

وواجه العلم دنيا تسيطر عليها المسيحية فالواقع أن التعاليم الحقيقية لموسى وعيسى عليهما السلام هى نفسها تعاليم محمد ﷺ . إلا أن الشيء الذى تقول به المسيحية هو شيء يعبر عن مذهب معتل ، يضم أموراً إنسانية خلطت مع التعليمات الإلهية ، وهى بشكلها الحالى لا تمثل الدين تمثيلاً صحيحاً : وهذا هو السبب الذى لم يجعل العلم يستخدم بأى شكل مع الأدين فى بغداد وقرطبة ، بينما اعتبروا العلم فى

كل من إيطاليا وفرنسا عدواً للدين . وقد توصل علماء الفلك المسلمون إلى مقياس يجعل من الإمكان أن تكون الأرض هي التي تدور حول الشمس : وذلك على عكس الغرض الذي افترضه أرسطو . وعندئذ لم يعتبر أى مسلم هذا الأمر معارضاً للدين ، وبعدها حين قال نيكلسون كوبرنيكس (١٤٧٣ - ١٥٣٣) بهذا الأمر اعتبرته المحكمة المسيحية مجرماً لأنه يحقر من شأن ابن الله فيجعل حياته تابعة للأجرام السماوية الأخرى : وقد أكد ابن مسكويه (— ١٠٣٠) أفكار الفلاسفة اليونانيين ودافع عن نظرية الارتقاء في الأحياء . فلم يتعرض الدين لأى خطر ، ولكن حين قدم تشارلز دارون (١٨٠٩ - ١٨٨٢) هذه النظرية شاع الهرج والمرج في الدوائر المسيحية الأوروبية .

يشير القرآن والكتاب المقدس إلى أن الأرض خلقت في « ستة أيام » وإدراك العلم لهذا الأمر لم يعتبر تصادماً أبداً مع القرآن . وقد قال العلم إن خلق الأرض مر بأدوار أكثر من هذا البعد الزمني لأنه ورد في القرآن صراحة أن المراد بـ « ستة أيام » ، ليس ستة أيام مما يعبده الإنسان . بل هي ستة أيام من أيام الله ، وعلى العكس من هذا فإن ما جاء في الكتاب المقدس نتيجة لإضافة الكلام البشرى وخلطه جعل المتصود بالأيام . أياماً نحن النى تعنى الليل والنهار وما يعبده الإنسان طبقاً لإدراكه لتتابع الليل والنهار : ولهذا اعتبر كافراً كل من يؤمن بالانكشافات العلمية في نظر المسيحية . وتوجد أحداث كثيرة من هذا النوع تثبت أن الصراع الذى حدث بين الدين والعلم إنما هو في الحقيقة صراع بين العلم والمسيحية ولو أن تطور العلم — كما كان في بداية ظهوره — قد تم في العالم الإسلامى لتغير وجه التاريخ الآن عما هو عليه .

فالقرآن والكائنات كلاهما وجهان لحقيقة واحدة . فالقرآن مظهر

لتحريف الكائنات . والكائنات تمضى بتدبير الأمر « يدبر الأمر يفصل الآيات » (١) ، والعلم ليس سوى مشاهدة « تدبير أمر » الله ، هذا بالإضافة إلى أن علاقته هذا التدبير بنوانين الفطرة موجودة لأن كليهما يعملان دائماً في حالة متشابهة متماثلة ، ولهذا فيلزم معرفتها ولاستخدامها أن يوجد هناك انضباط فكري لنوع حسابي على مستوى الدقة . وهذا هو السبب في أن البلاغة المتناهية على مستوى الأدب والخطابة يقابلها صحة الفكر ودقته في مجال النعم . ومن هنا فالعلم يخدم الإسلام من ناحيتين : الأولى أنه يساعد الإنسان على أن يشاهد (الآء ربه) . وهذه هي الوسيلة الوحيدة لمعرفة الله في هذا العالم ؛ والثانية أن الفكر الذي يقرم على الأسلوب العلمي هو — بالتحديد — ما يريده القرآن من الإنسان .

والحقيقة أن حدوث مدام بين الدين والعلم كان مجرد حادثة عابرة . فلم تمض فترة بسيطة — أقل من قرن — حتى قوى المنطق الأساسي للعلم وبدأ العلم يعود لحالته الأصلية .

بعد الحروب الصليبية (١٠٩٩ — ١٢٧٠) تحول العلم — من وجهة النظر الإسلامية — إلى صورة استشراق . ظهر الاستشراق في أوروبا ونظام بتسميم جميع الآداب الغربية بأفكار مضادة للإسلام ، وكان هذا في الحقيقة استخداماً جديداً للطريقة القديمة للأمم المسيحية ، طريقة الخديعة المقدسة Pious Fraud . فقد كان البديل عن فشل الحروب الصليبية قيامهم بمحاربة أهل الإسلام . فاستخدموا أسلوبهم هذا في العمل ضد الدين . وكانت أوروبا كلها تحت سيطرتهم ، ونجحوا في هذا الأمر لدرجة أنهم ملأوا — ليس فقط كتب التاريخ والكتب

اندينية بالأفكار المضادة للإسلام — بل أيضا كتب المعاجم والادب . ولم تنتج من هذا الأمر أيضاً مسرحيات فكسبير او أشعار ملتن . ولما كانت هذه الكتب التي طبعت في أوروبا هي الوسيلة الوحيدة لقراءة الموضوعات العلمية في العصر الجديد . فإن الاستشراق الغربي ترك تأثيره الشديد ليس فقط على العقلية الأوروبية بل على العالم المثقف كله .

ووصل القرن التاسع عشر إلى نهايته وظهر تفسير قوله تعالى : « والله غالب على أمره » (١) . وظهر صوفان من الأفكار الموضوعية سيجز على العلم . وسيطر على الدنيا كلها . وكان تأثيره على الاستشراق واضحاً في كتاب « الأبطال والبطولات » لتوماس كارلايل (١٧٩٥ — ١٨٨١) وبعدها استمر هذا العمل وفي النهاية وصل الأمر إلى أنه كما قام فيضان الجمهورية بجعل الملكية الوراثية بلا معنى من وجهة نظر علم السياسة . لم يعد لهذه العقلية أي ظل علمي في الدنيا . وعى عقلية التشكيك والتشعوية في تعاليم وتاريخ دين ما للاستاءة إلى هذا الدين . وهكذا تعرض الاستشراق القديم للموت المفاجيء .

ومثال آخر على هذا التحول . ألا وهو الحركة العقلية الجديدة التي أطلق عليها خطأ Antiscience (حركة مضادة للعلم) بينما هي أصلاً مضادة للمادة Anti material . لا مضادة للعلم . وعلى العكس من الأمثلة المذكورة سابقاً فإن هذه الحركة لم تنتخذ لنفسها حتى الآن اتجاهًا واضحاً وهي في معظم الأمر حركة رد فعل . وليسست حركة مستقلة ؛ فقد كان من نتيجة الحضارة الصناعية وحرية المرأة . تفككت الأسرة ؛ وخلو علاقة الرجل بزوجه من القدسية الدينية ؛ وأصبحت مجرد علاقة جنسية . ونتج عن هذا الأمر زيادة حالات الطلاق وحرمان

"الأطفال من تربيته الوالدين وإضافة عدد آخر إلى عدد 'الجرمين' المتزايد حيث تنسود البيوت يومياً حالات الطلاق المتكررة . وبينما يخرج لزوج والزوجة كل إلى عمله . يوضع الطفل في دار حضانة أو مركز للرعاية . وهكذا يحرم من حضن الفطرة . ويبسلم إلى حضن الآلة . وجاء في تقرير أمريكي أن هذا الأمر أدى إلى نتيجة فظيعة وخطيرة فقد ظهر مرض انتشر بين الأطفال أطلق عليه (أوترم) وفيه يكون الطفل سليماً صحيحاً جسمانياً وخالياً من كل الأمراض في الظاهر بينما هو ذو عقل معتل مليء بخلل عجيب . وهناك العديد من المشاكل من هذا النوع مما جعل الناس يملّون الحضارة الصناعية . ويهربون منها . ويرفعون شعارات العودة إلى الفطرة . وقد قام فريق من علماء علم الاجتماع البريطانيين بإجراء تحاليل وأبحاث أنبتوا من خلالها أن مجتمع الإباحية Permissive Society قد وصل إلى نهايته في بريطانيا . وبدأت العودة إلى العهد الفيكتوري الذي كان يعتقد أنه انتهى تماماً وإلى الأبد في القرن التاسع عشر . وقد نشر كتاب لأحد المؤلفين الفرنسيين في أمريكا ويدعى (جين فرانكوانس ديويل) عام ١٩٦١ م واسمه Without Marx or Jesus : ويتضمن الكتاب ٢٧٥ صفحة يشرح فيها المؤلف وجود ثورة في هذا العالم . إلا أنها ثورة لا تقوم على الإلحاد أو الدين بل تقوم على قيم جديدة في الحياة سيكون من أكبر مظاهرها قيام حكومة عالمية وهذا هو الهدف الممكن والوحيد لأية ثورة .

(ص ٨٣) •

وتوجد أمور أخرى مشابهة لا حصر لها تحدث في العالم الغربي اليوم : وهي ليست دليلاً على فكر مستنقل بل هي دليل على أن الإنسان مصاب بالاضطراب نتيجة للحضارة المادية . ومن هنا راح يبحث عن حضارة أفضل . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية أعلن الألمان أنه لا مشكلة لديهم طالما ظل دخان المصانع يتصاعد من المداخل ، ثم ظهرت

اليوم قضية شائكة تمثلت فى تلوث البيئة بدخان المصانع ، وهذه قضية تحتل مكانة ثابتة بعد الحرب الذرية المتوقعة ، وقد حذر د . اينى دوبروز أحد أساتذة جامعة روكفلر (بنيويورك) العالم من أن التلوث الصناعى سوف يسلب الإنسان العديد من خصائصه ، حتى أن هناك خطورة تتمثل فى تحول الإنسان إلى درجة دنيا من الإنسانية (١) . وهذا النوع من نتائج الحضارة المادية قد سلب الإنسان الحديث هدوءه وراحته . رغم ما وصل إليه من تطور ورقى ، ففى العالم الغربى اليوم كتبت المؤلفات الكثيرة التى أسهمت فى الاعتراف بهذه الحقيقة ، وعلى سبيل المثال كتاب Walter kerr المسمى بـ (Decline of pleasure 1962) — يقول المؤلف الأمريكى فى كتابه الذى يتضمن ٣٢٥ صفحة ، ان « أهل أمريكا ليسوا سعداء اليوم ، فعلى الرغم من أن الجيل الأمريكى يمر اليوم بغرض عديدة سواء من ناحية سبل الراحة أو ما يملك من امكانيات ، أو عمر طويل — فلهذه كل ما كان يحلم به الأجداد — إلا أنه جيل يشعر بالتعاسة رغم كل هذا » .

كتبت جريدة التايم (١٨ يناير ١٩٧١) فى مقال لها بعنوان :

Avoyage to utopia

« فى سنة ١٨٤٠ م كان كل أمريكى يحمل فى جيبه خطماً جميلة للمستقبل ، تماماً كما يحمل منديله فى جيبه ، لكننا نجد اليوم جيوب الأمريكيين وقد خلت من هذا النوع من الرغبة . فقد يئس الناس من الظروف الاجتماعية تماماً وانتهت تحورات بناء المجتمع الراقى السامى ، وبدلاً من فكرة بناء جنة على الأرض أصبح الجميع يميلون إلى البحث عن الجنة فى داخل ذاتهم ، إن دمار اليوم قد جعل عدداً كبيراً من مفكرى العالم يضعون آمالهم وعنائدهم على أرواحهم كآخر ملجأ للمثالية . وبدأوا يحثون على الاتجاه للروحانيات بدلاً من الماديات

حتى أن بعض الناس يقول إن عملية التسمو هذه إنما تصل بالحضارة إلى أعلى مراحل الشعور وتصل بالإنسان في النهاية إلى أسمى وأعلى حقيقة أى إلى الله » .

واعتقد الأمريكيون بعد العصر الصناعي أنهم سيجدون نجاتهم في التكنولوجيا ، وقام المؤلفون برسم خطط ونماذج عظيمة ورائعة ، إلا أن التكنولوجيا قد أثبتت فشلها في توصيل الإنسان إلى سعادته ؛ فسهل التكنولوجيا ووسائلها بدأت تستخدم بسهولة كبيرة في تدمير الإنسان بدلا من تطويره ، والإنسان حين يحمل إلى آخر مراحل الجنة الآلهية فإنه يتعرض لقضايا صعبة مذهلة ، وهذا ليس مجرد مصادفة ، بل هو أمر يمتد على سنة الله ، فهو يخلق ظروفًا داخل حياة الناس الغافلين تضع أمامهم دائما علامة استفهام .

« ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » (١) .

لقد أرشد الله الناس إلى خيرهم ، وعلى ورثة نبي آخر الزمان الآن أن يعملوا على الاستفادة من هذه الأرض ، فيحاولوا إيضاح دين الحق حتى يقبله الإنسان الجديد . لكننا - للأسف - لم نشاهد مصالحينا يتوهمون بهذا العمل ، وعلى العكس من هذا انضموا معاً في قتال وصراع سياسى مع الأمم التي يدعونها إلى الدين وهو صراع لا نتيجة له . وناتج عن جهل كبير بأسلوب الدعوة إلى الدين .

وفي العصر الحديث حين استولت الأمم الغربية على البلاد الإسلامية ظهر سؤال أمام جميع البلاد الإسلامية وهو : ما العمل لمواجهة هذه الأمم ؟ . كان أساس العمل في ذلك الوقت هو وضع

خطة مستقلة في ضوء التعليمات الدينية ؛ وفي ضوء سنة رسول الله ﷺ :
ثم الاجتهاد من أجل تطبيق هذه التعليمات وتنفيذها . وعلى العكس
من هذا مضت قافلة مجاهدين على طرق ردود فعل سلبية •

وقد كان لردود الفعل هذه اتجاهان اننان . أولهما ظهر نتيجة
للدفاع النفسى . فقد حاول هؤلاء الناس أن ينفثوا روح الدين في
المسلمين طبقا للأساليب التقليدية الرائجة . وعلى سبيل المثال إنشاء
مدارس للتعليم الدينى . عقد اجتماعات دينية لتعليم عامة الناس
العقائد الإسلامية وتعليمهم العبادات والاجتهاد . والعمل من أجل
الحفاظ على مصالح المسلمين الخاصة وغير ذلك •

والاتجاه الثانى كان اتجاها في معظم الأمر نتزعمة طبقة ثورية
تقدم مقترحات جريئة •

وقد أشعلت كتابات هؤلاء المفكرين الثوريين وخطبهم النار في
العالم الإسلامى كله •

وكان هدف جميع هذه الحركات الاستقلال بدولة إسلامية . ونال
كل منهم شهرة غير عادية . إلا أنها جميعا فشلت في تحقيق هدفها ؛
والسبب الوحيد هو أن هذه الحركات جميعها جعلت من السياسة
(وحدها) ميداناً لعملها . وهذا أدى بها إلى الخروج عن الطريق المستقيم
للإسلام بصورته نظرية فلم تتمكن من استحقاق النصر الإلهى •

كان الجانب العقلى والنظرى يقتضى أن يجعل هؤلاء من الدعوة
الإسلامية الشاملة مجالا لعملهم . فهذا هو المجال الذى يتفوقون فيه
على معارضيههم بطريقة واضحة وحريجة . إلا أنهم لم يستطيعوا أن
يرتفعوا الى مستوى الظروف • وظهرت من ناحية حركات تهدف إلى
تجريح الإسلام من جانب الاستعمار الغربى ؛ ومن ناحية أخرى قامت

حركات تدعو إلى الجمهورية الاشتراكية وحولت مزاج العالم كله إلى التفكير في أسلوب سياسى معين ، هذه العوامل جعلت الحركة الإسلامية تأخذ فى تفكيرهم نوعا من الحركة السياسية فأخذوا يدفعونها للسير وفقا لمخططات وقتية بدلا من أن يدفعوها إلى الحراط المستقيم الأزلى الخالد .

وقد وصل السيد جمال الدين الأفغانى إلى هذه الحقيقة قبل قرن من الآن . وهى أنه فى مجال الدعوة توجد فرص عظيمة لنجاح الإسلام ، فقال فى هذا الصدد :

« إن أهل أوروبا مستعدون لقبول الإسلام إذا أحسنت الدعوة إليه . فقد قارنوا بين الدين الإسلامى وبين غيره فوجدوا البون شاسعا من حيث يسر العقائد وقرب تناولها ، وأقرب من أهل أوروبا إلى الإسلام أهل أمريكا لأنه لا توجد بينهم وبين الأمم الإسلامية عداوات موروثة فلا أسغان مدفونة مثلما هو الحال بين المسلمين والأوروبيين » (١) .

كتب المفتى محمد عبده التلميذ المتميز لجمال الدين الأفغانى :

« حين كنت فى باريس (١٨٨٤) عرضت عليه أن تترك السياسة وأن نبتعد عن أنظار الحكومة ونعمل بالتبليغ . وهكذا يمكن أن نؤدى عملا له نتيجة رائعة خلال عشر سنوات . إذ أننا فى مجال السياسة لا تساوى نوتنا مهما ملكنا من قوة أى سىء . فأجاب الأفغانى قائلا :

« إنما انت منبسط » (صفحة ٥٠) .

فى القرن التاسع عشر ظهرت نورتان كانتا على درجة كبيرة من الأهمية من وجهة النظر الإسلامية : الأولى تمثلت فى تصحيح

الاستشراق الذى استمر سبعمئة سنة . وكأنه كان اعترافاً عملياً من أهل الغرب بصدق الإسلام ؛ والثانية ظهور فن النقد الأعلى Higher criticism وكان بمثابة اعتراف بالقرآن دون كتب الملل الأخرى ككتاب ثابت تاريخياً ، وهكذا وضع القرن التاسع عشر أرضية علمية على مستوى رائع للدعوة الإسلامية بطريقة مدهشة حقاً ، هذا بالإضافة إلى أن هذا كان هو الوقت الذى استندت فيه حركة التحرير الفكرية فى أوروبا بكل ثقلها وبكل حدتها وقضت على التعصب الدينى القديم ، وكان من نتيجة هذا الأمر أن بدا ممكناً لأول مرة فى التاريخ تيام حركة الدعوة لدين الحق فى جو من الأمن والطمأنينة .

ووسط هذه الظروف أصبح من الممكن ممارسة الدعوة الإسلامية بطريقة مؤثرة إلا أن هذا هو القرن الذى قام فيه معظم مصلحينا بإثارة معارك سياسية مع الأمم الغربية حتى أن شعار القومية (مثلاً نظرية القوميين — أو مصر للمصريين) أصبح بمثابة جدار بين المسلمين وبين الأمم الأخرى . فإذا ما دار بخاطر البعض أن ينهضوا للدعوة إلى الإسلام قاموا فقط بتكوين جبهة مناظرة ضد الأمم الأخرى لا يمكن أن ينتج عنها سوى غرس الكراهية فى القلوب وإبعاد الناس عن الإسلام أكثر مما هم بعيدون عنه . وفى هذا العصر ظهرت عدة علامات وظواهر توضح بصورة عمالية وجود إمكانيات جديدة لحركة الدعوة الإسلامية . ففى بلاد الغرب أشهر كبار المفكرين إسلامهم (مثلاً محمد أسد وعبد الكريم جرمانوس) . أو اعترف البعض منهم علانية وصراحة بتفوق الإسلام (مثلاً جورج برناردشو ١٨٥٦ — ١٩٥٠) .

وظهر أناس طلبوا أيضاً علانية من المسلمين أن يقوموا بالدعوة إلى الدين . وأصبح من الإمكان أكثر من أى فترة سبقت أن نعرف م١٧ — واتمنا ومستقلنا

الدنيا كلها بالإسلام (مثلا لورد لوثن ١٨٨٢ - ١٩٤٠) • إلا أن هذه الوقائع والحقائق لم تجد عيناً بحيرة من المسلمين : فقد اعتبروا أن كمال الإسلام هو تقديم التضحيات والأضحيات للصراع السياسى •

ورغم جهلنا المستمر فلاتزال إمكانيات نشر دين الحق باقية حتى اليوم أيضا وبصورة كاملة ؛ فقد أعلن كل من بانجو رئيس الجابون سنة ١٩٧٣ ، والرئيس بوكاسا رئيس أفريقيا الوسطى سنة ١٩٧٦ ، وراجيه واتوك أمير سراوك سنة ١٩٧٧ إسلامهم • وهناك أمثلة أخرى عديدة تعد شواهد جديدة على الإمكانيات المتوفرة للدعوة الإسلامية فى العصر الحديث وهذه الأحداث توضح من أين يجب أن نبدأ كفاحنا من أجل أن نكسب من جديد معركتنا الضائعة •

« إن الإمانة الفكرية ينالها من هو على استعداد لدفع قيمتها المادية » . هذه مسلمة تاريخية . وهذا هو السبب فى أن الإمامة الفكرية تضى دائما فى ظل الإمامة المادية ، ولقد احتفظ المسلمون بالإمامة الفكرية للعالم من القرن الثامن حتى القرن السادس عشر • لأنهم استطاعوا أن يؤدوا قيمتها نتيجة لقوتهم التجارية وتفوقهم السياسى •

فى تلك الفترة كان العلم اسماً لعلم المسلمين ولقد شكاً زعيم نصارى قرطبة Alvaro المستعربين النصارى فى أسبانيا Mozarabes لأنهم نسوا لغتهم المسيحية (اللاتينية) فى ذلك الوقت : ومعظم الشباب المسيحي أصحاب الكفاءات العالية ما كانوا ليهتموا إلا باللغة العربية والأدب العربى ، وبعد ذلك وحين اكتشفت أوروبا قوة الآلة ونتاج عن ذلك بالتالى تحقيق التفوق الصناعى والرقى الصناعى — حينئذ أفلت زمام الإمامة الفكرية من المسلمين وتناولته أيدي الأمم الغربية •

ومنذ القرن السادس عشر وحتى الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ - ١٩٤٥) ظلت هذه الإمامة فى يد الدول الغربية وبخاصة فى يد بريطانيا . وفى ذلك الوقت كانت هذه الأمم هى منبع العلوم لجميع طلاب الدنيا . وقد سلبت الحرب العالمية الثانية الإمامة المادية من أوروبا وسلمتها إلى أمريكا ، ومنذ ذلك الوقت ظلت أمريكا هى الإمام الفكرى للدنيا كلها ، وكل من يشاهد كتب البحث العلمى اليوم يلاحظ أن معظمها لمؤلفين أمريكيين •

لقد أثبتت الأحداث أن سر إمامة الدول الغربية كان يكمن غالباً فى شيئين اثنين . أولهما : الاستعمار وثانيهما : وقود البترول الرخيص ، ومن المدهش أن دول الشرق كانت هى مصدر حصول الدول الغربية على هذين الشيئين •

بعد الحرب العالمية الثانية ظهرت ظروف قضت على الاستعمار تماماً . والظروف التى ظهرت فى الربع الثالث من القرن الحالى قد هزت أيضاً أسس الإمامة الأمريكية . وفى سنة ١٩٧٣ وقعت حادثتان مهمتان : الانسحاب الأمريكى من حرب فيتنام التى استمرت عشر سنوات . ثم تخفيض قيمة الدولار . وكان ذلك علامة على أن السيطرة العسكرية والاقتصادية لم تعد الآن قاصرة على أمريكا • ولقد أثبت الحصر الجزئى لتحديد البترول من جانب الدول العربية ثم ارتفاع أسعار البترول أن البترول امبراطور عالم الصناعة • ومن المثير والمدهش أيضاً أن جزءاً كبيراً من مخزون البترول العالمى يكمن داخل المنطقة التى يطلق عليها اسم « الخليج العربى » • هذا بالإضافة إلى أن أمريكا أصيبت بحظ سيئ ؛ فأكبر مشاكل العصر الحاضر أن إنسان اليوم قد فقد ثقته بالحضارة الصناعية ، وهذه الحضارة لم تستطع أن توفر للإنسان العماد الحقيقى للحياة ؛ ومن ناحية أخرى ظهرت

عدة مسائل وثغايا معقده لم تجد حلولاً ؛ فبالإضافة إلى الحروب وإلى التضخم الاقتصادي والتلوث البيئي والجرائم . والعري والفحش والفساد والنشئت الأسرى وبقية المشاكل التي أفرزتها الحضارة الصناعية . والتي لا يمكن أن يوجد لها أى حل داخل إطار الحضارة الحالية وجدت ظروف أخرى أصابت الإنسان وابتنته بالشك . ويقال إن الإنسان فى حاجة إلى نظام جديد يطلعه على هدفه فى الحياة ، ويكون عوناً له يسد حاجاته الحقيقية . ومع أن هذا الأمر لا يخص أمريكا بحصة أساسية فإن أمريكا — وهى قائد الحضارة الصناعية اليوم — تعتبر أعظم وارث لنتائج تلك الظروف السيئة . ويتضح هذا الأمر من الحكاية التالية :

سافر « سوامى ديويكاسندر » (١٨٦٣ — ١٩٠٢) إلى أمريكا فى آخر القرن التاسع عشر فلم يجد مجالاً للعمل هناك ؛ إلا أن الدعاة الهنادكة الآن يقومون بتربية مئات الآلاف من تلاميذهم فى أمريكا . نقد تأذى الإنسان الغربى الجديد ونفر من حضارته ويحدوه الآن سوق جارف للبحث عن أى جديد . وحين لا يجد « دين الحق » فهو يمضى خلف أى شىء يتراءى له لاهماً من بعيد .

يذكر المفكر الفرنسى أندريه مالرو (١٩٠١ — ١٩٧٦) أن التطور الأوروبى بدأ يصل أوجه سنة ١٤٥٠ وظل هذا العصر لمدة خمسمائة سنة . وفى سنة ١٩٤٩ تولى زمام الدين « ماو » فكان هذا إعلاناً لنهاية هذا العصر . والحضارة الغربية كما بدت بعد نهاية الحضارة الرومانية . فعلى هكذا اليوم تفسح المجال لأية حضارة أخرى قادمة (التاييم ١٨ أبريل ١٩٧٤) .

وانهدام أمريكا فى المستقبل القريب أمر مؤكد . وبعدها سيتعرض العالم كله لفرغ فكري لا توجد حينذاك أمة تملؤه . ولا شك أن الصين

وروسيا قوتان جديدتان فى العصر الجديد إلا أنهما لا يمكنهما ملء هذا الفراغ . والسبب الرئيسى لهذا هو وجود حراع داخلى فيهما . غالباد التى أصبحت المجال لادىكتاتورية الاشتراكية وضعت سبلها ووسئها فى مجالات معينة وأصبحت أمما قوية . وكان هذا هو المانع الذى حال دون ظهور أى فكر متطور بداخلها . فيمكن للعلوم التقنية أن تتطور إلا أن تطور العلوم الفكرية يحتاج بالضرورة الى جو ومناخ لا يمكن أن يوجد فى ظل النظم الاشتراكى . وهذا هو السبب فى أن التطور العلمى فى الصين وروسيا إنما هو تطور مقصور على التطور فى العلوم التقنية : إذ أن الدولتين لم يخرججا لنا حتى الآن أى عمل علمى فكرى رائع .

نم تأتى انيابان . ولا نساك أن اليابان حققت معجزة فى مجال التطور الصناعى ؛ إلا أنها بالمقام الأول مجتمع تقنى ، ولا أمل — فى المستقبل البعيد — فى أن تتمكن من الحصول على أية مكانة فكرية . وهذا هو الحال تقريباً بالنسبة لألمانيا الحالية .

إن انهدام الأمم الغربية واليأس من الحضارة الصناعية : والفراغ الفكرى بصفة عامة . كل هذا وحل بحاملى دين الحق إلى مقام يجعلهم قادرين — إذا استيقظوا وتنبهوا — على أن يصلوا بالإسلام إلى مكانته الحقيقية الواجبة لينالوا بذلك زمام إمامة الجنس البشرى مرة أخرى .

إن المانع الوحيد الذى يحول بينهم وبين تحقيق هذا الهدف السامى هو تأخرهم من ناحية امتلاك الوسائل والسبل فى هذا العصر الصناعى . وقد أمدهم الله ووضع تحت أقدامهم ذخائر من البترول يمكن أن تعوض تخلفهم هذا بطريقة مذهلة . وقد وضحت الأهمية العالمية للبترول بعد الحرب الرابعة بين العرب وإسرائيل (أكتوبر

(١٩٧٣) ، وليس هناك من شك في أن الثروة الطبيعية للبترول يمكنها ان تعوض التخلف الصناعى للأمم المسلمة ، وليس هذا فقط بل يمكن أن تصل بهم وسط الظروف الحالية إلى مكانه اذا ما تعلموا معها العمل بتحاد ونظام أمكنهم التحكم فى اقتصاديات العالم كله .

والحقيقة أن الوقت الآن هو انسب الأوقات التى يمكن أن تبدأ فيها مسيرة سفرنا نحو هذا المستقبل الذى ينتظرنا وينتظرنا فقط .

من النالزم لنا أن نمتلك الأسباب المادية لإحياء الإسلام ، ولكن يجب أن نعترف بأن هناك حقيقة واضحة ومرة تقف حجر عثرة فى طريقنا ، فمنذ ثلاثمائة سنة مضت حين كانت الدول الغربية منهكة فى الكفاح من أجل الرقى المادى ظلت البلاد الإسلامية غافلة عن التغيرات التى تدور ، وبقيت فى غفلة مستمرة ، وكانت النتيجة أنها تخلفت كثيراً عن الأمم الأخرى على ركب التطور المادى .

وفى السنوات الحالية بدأت تظهر علامات الكفاح فى العالَم الإسلامى . إلا أن الهوة بيننا وبين معارضينا قد زادت . وزدنا تخلفاً عنى تخلفنا ، وحين نصل بعد آلاف المراحل من الكفاح إلى تطور الغرب الصناعى فإنه سيكون قد وصل كما يقول ايلون تاملر إلى عصر ما بعد الصناعة Super Industrial age والحقيقة التى يسميها علماء الجغرافيا بالصدفة الجغرافية . ربما هى تدبير من لدن الله لسد هذا النقص : فهذه ثروة لا يمكن فقط أن تعوض التخلف الصناعى فى الدول الإسلامية بل يمكن أيضاً أن تؤدى الثمن الذى نحتاجه من أجل الكفاح المؤثر لإحياء الإسلام فى العصر الحديث .

وأختتم هذا الفصل بعبارة لمونتجمرى وات : « إن الدنيا تتحرك بسرعة كبيرة لتصبح دنيا واحدة : ويزداد هذا الاتجاه ، حتى

يوجد فيها اتحاد وتماثل ، ونتيجة لهذا الاتجاه سيأتى يوم يكون فيه
نأصول الأخلاقية نظام لا يصبح فقط جوازا عالميا بل ستعترف به
الندنيا كلها وسيمصبح أمرا مقررأ » .

ويدعى المسلمون أن محمداً ﷺ هو نموذج عملى وأخلاقى للجنس
البشرى . يقوون هذا ويدعون الناس لينتمكوا من أن يقيموا على هذا
الراى حياتهم . وحتى الآن أمكن لبعض العالم أن يهتم بهذا الأمر .
ولكن نتيجة لقوة الإسلام سيحقق هذا الأمر أهمية كبيرة . والسؤال
الآن هو هل هناك أصول فى حياة محمد ﷺ وفى تعاليمه تستحق أن
يتعلمها الناس . ويمكن أن تقدم لعالم المستقبل نظاما أخلاقيا فريدا :

م يتلق عالم اليوم إجابة نهائية على هذا السؤال . إن ما قاله
المسلمون حتى الآن لتدعيم رأيهم فيما يتعلق بمحمد ﷺ هو مجرد
بيان أولى : اطمأن إليه عدد قليل جدا من غير المسلمين . والموضوع
لايزال مطروحا : ما هو رد فعل العالم فيما يتعلق بمحمد ﷺ ؟ إن
هذا يتوقف إلى حد ما على ما يفعله مسلمو العصر الحاضر من أجله :
والفرصة أمامهم اليوم متاحة ليعرضوا على بقية بلاد العالم قضيتهم
بطريقة أفضل وأسلوب أكمل . فهل يمكن أن يوضح المسلمون للعالم
حياة محمد ﷺ كنموذج إنسانى كامل من أجل إيجاد مثل أخلاقية
للعالم المتحد ... لو استطاع المسلمون أن يعرضوا قضيتهم بطريقة
أفضل فلا شك أنهم سيجدون من بين النصارى من يصغى ويستمع
إليهم (١) .

خاتمة

خلق الله الإنسان حراً . إلا أن هذه الحرية ليست حرية مطلقة أو بلا حدود : فحرية الفرد تنتهى بموته . ومن حيث المجموع فإن حرية الجنس البشرى بأكمله سوف تنتهى بيوم القيامة . وبعد نهاية هذه الحياة الدنيا تبدأ حياة أخرى ، وهناك يقسم الناس إلى مجموعتين : مجموعة أقامت حرية حياتها الدنيوية على أسس من مرضاة الله . وهؤلاء سيدخاون الجنة : والمجموعة الثانية تضم أولئك الناس الذين تفخوا أوقات حريتهم بدون خوف من الله : وهؤلاء سيحشرون في جهنم : وهذا تقسيم دائم . فسوف يظل أهل جهنم يتلظون بنارها . وسيظل أهل الجنة يرتعون في نعيمها وروضاتها •

ونتيجة لدقة هذه المسألة فقد وضع الله نظاماً ، وذلك أنه حين خلق الإنسان ارسل إليه الانبياء والمرسلين : فأخرج من كل بلدة ومن كل نسل أنبياءهم . أنزل عليهم الوحي . وأنزل عليهم الكتاب ، حتى يقوموا بإرشاد الناس إلى حقيقة الحياة بوضوح وصرامة : وهذه السلسلة ظلت تمتد من آدم حتى المسيح حتى قرر رب العباد أن يرسل آخر رسله فأنزل عليه آخر الكتب السماوية وحفظه إلى الأبد . وهكذا بدأ عهد جديد من تاريخ البشرية مع القرن السابع الميلادي فقد وجد كتاب الله (القرآن الكريم) بحالته الآمنة المحونة لأنه لن يأتي نبي آخر يبلغ الناس دين الحق •

ولكن ماذا أعد الله للإنسان الذي يولد بعد ختم النبوة ثم يموت بعد أن يولد ، ماذا فعل الله حتى يطلع على الدين الحق ؟

الجواب هو « الأمة المحمدية » : فآخر رسل الله قد أشهد أمته على الدين : ومن هنا أصبح من مسؤولية الأمة المحمدية دائماً أن تكون

سأعده أمام جميع الخلق الذين يولدون حتى يوم القيامة حين يعرض الناس أمام الميزان وتتقف هذه الأمة حينذاك وتقول : لقد بلغنا رسالة الحق إلى هؤلاء الناس ، ورغم هذا فأولئك الذين لم ينبعوا رسالة الحق يتحملون وزرهم وتبعة عملهم •

ذلك هو العمل الذى عبر عنه القرآن بالدعوة إلى الله . ومسئولية الأمة المحمدية النهوض بهذا العمل . ولا يمكن أن تتخلص من تبعة هذه المهمة بأى حال من الأحوال . ولا يمكن أن ينتذها من التقصير فى هذه المسئولية أمام الله أى عذر أو سبب . فإذا لم تنتهض الأمة المحمدية بأداء هذه المهمة ، وإذا لم تحذر أمم العالم من اليوم القادم ، فسوف ينالها العذاب فى الآخرة شأنها فى ذلك شأن الأمم الأخرى : وإذا كان ذنب الأمم الأخرى هو أنها لم تتبع الحياة القرآنية فإن ذنب الأمة المحمدية سيكون فى إحجامها عن إرشاد أمم العالم إلى اتباع مرضاة الله . والذنب الثانى لا يقل عن الأول بأى حال من الأحوال •

والذنب الذى تحمل وزره اليهود كان لأنهم حملوا الأمانة الإلهية ثم أخفوها ولم يطلعوا الناس عليها . فالخطأ الذى ارتكبه حملة النوراة إذا ارتكبه حملة القرآن فلن يعاملهم الله إلا بنفس المعاملة التى عامل بها حملة التوراة . وسوف يتعرضون لنفس العقوبة التى قررها القانون الإلهى على من سبقوهم . فليست هناك علاقة خاصة أو محاباة لأمة من الأمم عند الله ، ولا يجب أن تعتقد جماعة ما أن لها مع الله علاقة خاصة أو علاقة محاباة •

وعلى المسلمين اليوم أن يؤدوا فريضة الدعوة أمام أهل الدنيا ، تلك الفريضة التى أداها الرسل فى زمانهم ، أمام أولئك الناس الذين عاشوا فى عصورهم ، وهذه الفريضة هى إبلاغ رسالة القرآن إلى الناس . وكما ان المال بدون دفع زكاته يصبح حراماً للمسلم فهكذا

لا يجوز لنا أن يكون لنا من حياتنا أى نصيب بدون أداء هذه الفريضة
ولن ننال السرور ولن يكون نعيمنا نعيماً ولن نكون عافيتنا عافية مادامنا
لا نقوم بالشهادة أمام العالمين أو على الأقل نشغل أنفسنا بما يلي :

✽ أن نقوم بترجمة القرآن الكريم على أعلى مستوى إلى جميع
لغات العالم .

✽ أن نعد كتباً بأسلوب حديث عن حياة الرسول وأصحابه
وأن نضعها أمام جميع أهل الدنيا .

✽ أن نعد ترجمات لأحاديث الرسول ﷺ ، إلى لغات العالم .

✽ إعداد مؤلفات عن تاريخ الإسلام (لا عن تاريخ فتوحات
الإسلام) ونشرها على مستوى واسع .

✽ تأييد وتعزيز الإسلام بلغة جديدة وبأسلوب عصري .

✽ اتباع جميع الأساليب العملية وإنشاء هيئات معاونة تكون
لازمة لإبلاغ الناس رسالة الحق بطريقة مؤثرة .

وهذا العمل ببساطة ليس مجرد كتابة وخطابة ، بل هو عمل له
مغزاه وهو يعنى بعبارة أخرى « النياية الإلهية » ومن هنا يجب إعطاؤه
القدر الكافى من الاهتمام . ويجب أن يكون على قدر من الاتزان
يتساوى مع قدر مبلغى أعظم رسالة ، على أن يتنصن الأمر الرغبة فى
الخير وسعة الصدر وما يستلزمها من أمور أخرى متوقعة من حاملى
هذه المسؤولية الجسيمة ، ويلزم أيضاً أن نخاف ونرتعد من جهنم التى
نخيف بها الآخرين وأن نحرص على الجنة التى ندعو إليها الآخرين
ولا نجعل من الدعوة والتبليغ مسخرة . إذ يقوم بها من هو غير مؤهل
لغهمها .

وهناك قضية هامة فى تاريخنا الحديث ، فخلال القرنين الماضيين تقريبا ظهرت حركات كبرى كثيرة فى العالم الإسلامى . نالت فرصا عديدة تمكينا من العمل . إلا أن نتائج محاولاتها وصلت حقيقة إلى درجة الصفر إن لم تكن أدنى من ذلك ، وهذا الفشل حدث رغم أنها وضعت لتنفيذ برنامجها أحسن الوسائل : فقد توفر لها العلم ، والقدسية والإخلاص ، والشخصية والتضحية والعدة والعناد ورأس المال ، وجميع السبل بقدر وفير ، إلا أن ملاحظة نتائج محاولاتها — التى كانت كالطوفان — يدلنا على أن هذه الحركات قادت قافلة الأمة الإسلامية إلى الورا .

وأولئك الناس الذين لا يؤمنون بالله أو الذين لا يؤمنون به حيا فعلا لا يمكنهم أن يحركوا بأنفسهم ويوجهوا أفكارهم هذه . إلا أن الإيمان بالله يستلزم أن نفهم هذه الحقيقة على أساس سنة الله وأن نتعامل معها معاملة إلهية مباشرة .

وحين نفكر من هذا المنطلق ، وحين نجعل القرآن هادينا فى هذا الأمر يثبت لنا بدون شك أن فشل حركتنا سببه الوحيد هو أن هؤلاء الذين تزعموا هذه الحركات لم يقوموا بالواجب الأساسى الذى وعد الله على أساسه أمته المسلمة بالنصر الاجتماعى ؛ فقد اشترط الله علينا لينصرنا أن ننصره ، أى أن مهمتنا لا يجب أن تقوم على أساس من المطالب والاحتجاجات من أجل تحقيق حقوق دنيوية بل هى مهمة قائمة على « طريق التعريف بالآخرة » وحركتنا هذه إنما هى حركة دعوة إلى الحق لا حركة سياسية ولا حركة اقتصادية .

تلك هى أسس المشكلة التى جعلت من جميع محاولتنا مصداقا لقوله تعالى « حبطت أعمالهم » ، لقد قمنا بحركات تهدف إلى

نحنين سياسة دنيوية ومن هنا لم نتمكن من الفوز بالنصر السماوى .
فإذا أردنا اليوم أن ننجو من الدمار الذى أصابنا فإن الطريق الأوحى
ننذا هو أن نصبح بحق دعاة للحق أمام أهم العالم الأخرى : وأن
نترك الصراع السياسى والاقتصادى . وأن نجعل من قضية الجنة
والنار قضيتنا الأساسية وأن نطلع عليها الناس . فهذا هو السبيل
الوحيد للفوز بنصر الله . وطالما لم نحصل على نصر الله فلن نتمكن من
انحصول على أى نجاح من أى نوع لا فى الدنيا ولا فى الآخرة .

إن عظمة أهل الإسلام وفوزهم إنما هى كما ورد صراحة فى
القرآن الكريم « إنعام إلهى » . وهذا أمر معروف ، فالإنعام أو الجائزة
إنما تكون مقابل عمل خاص . إذن ما هو العمل الذى أداه أهل الإسلام
ليستحقوا به هذا الإنعام أو هذه الجائزة ؟

إن هذا العمل الذى يجب أن يؤديه أهل الإسلام هو فى الواقع
هدف بعثة الأمة المحمدية . أى الشهادة أمام العالمين وذلك بواسطة
التبليغ ورسم الطريق أمام الناس إلى مرضاة الله حتى لا تكون هناك
حجة فى الآخرة . هذا هو العمل الذى يستحق به المسلمون إنعام
الله . فإن لم نؤد هذا العمل المطلوب : فلا يمكن أن نأمل فى استحقاقنا
لهذا الإنعام الإلهى نظير قيامنا بأية حركة أو ثورة ، فأية حركة أو
ثورة لا يكون هذا هدفها إنما تستحق العقاب لا الثواب .

تم بحمد الله وتوفيقه

من

مطبوعات دار الصحوة

- ١ — عصر الإلحاد
تأليف محمد تقى الأميني
- ٢ — ثقافة المسلم
د/ عبد الحليم عويس
- ٣ — الوقت في حياة المسلم
د/ يوسف القرضاوى
- ٤ — الرسول والعلم
د/ يوسف القرضاوى
- ٥ — صلاح الأمة على هدى السنة
د/ محمد محمد الشريف
- ٦ — مؤشرات حول الحضارة الإسلامية
دكتور / عماد الدين خليل
- ٧ — الدولة والسلطة في الإسلام
دكتور / محمد معروف الدوليبي

- ٨ — قضية البعث الإسلامى « المنهج والشروط »
تأليف / وحيد الدين خان
- ٩ — أزمة المثقفين تجاه الإسلام
دكتور / محسن عبد الحميد
- ١٠ — المختار فى الرد على النصارى للجاحظ
لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
مع دراسة تحليلية تقويمية
تحقيق ودراسة دكتور / محمد عبدالله الشرقاوى
- ١١ — من معالم الحق
فى كفاحنا الإسلامى الحديث / محمد الغزالى
- ١٢ — الإسلام كما ينبغى أن نؤمن به
د/ عبد الحليم عويس
- ١٣ — ضوء السارى إلى معرفة رؤية البارى عز وجل
شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن
الشافعى المعروف بأبى سامه رحمه الله
تحقيق دكتور / أحمد عبد الرحمن الشريف
- ١٤ — واقنا ومستقبلنا فى ضوء الإسلام
تأليف / وحيد الدين خان
مراجعة : د/ عبد الحليم عويس

- ١٥ - الوجيز فى الاقتصاد الإسلامى
دكتور / محمد شوقى الفنجرى
- ١٦ - رسائل الأعلام
إخراج وتقديم :
محمد الرابع الحسنى الندوى
- ١٧ - أمهات المؤمنين
أحمد حسين شرف الدين
- ١٨ - أحاديث صريحة مع إخواننا العرب والمسلمين
أبو الحسن الندوى
- ١٩ - نفحات الإيمان بين صنعاء وعمان
أبو الحسن الندوى
- ٢٠ - العالم الإسلامى اليوم
محمود شاكر
- ٢١ - الأدب الإسلامى وصلته بالحياة
مع نماذج من صدر الإسلام
محمد الرابع الحسنى الندوى
- ٢٢ - شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية
أبو الأعلى المؤدودى
- ٢٣ - سر تآخر العرب والمسلمين
محمد الغزالى

رقم الايداع ١٩٨٤/٥٩٣٠
الترقيم الدولي ٧ - ٠١ - ١٤٢٠ - ٩٧٧

دار الصحوة ... وهذا الكتاب

لم تقم دار الصحوة لتكون مجرد دار نشر تجارية ، بل قامت لتحقيق هدفاً إسلامياً بالدرجة الأولى ... وهذا الهدف - بإنجاز - هو الأخذ بيد المسلمين لفهم الإسلام فهماً حقيقياً نابعاً من مصادره الأصلية ... ولفهم التحديات التي تواجه المسلمين ...

ولفهم الأسلوب الأمثل والأقوم في مواجهة التحديات .

وأخيراً ... لقد قامت دار الصحوة لترفع من مستوى الإنسان المسلم روحياً وثقافياً ... حتى يكون منسوب المسلم الفكري والأخلاقي أعلى من منسوب الحضارة الحديثة ... وبالتالي يكون المسلم أهلاً لقيادة الحضارة وفق سنة الله الكونية التي لا تمنح قيادة سفينة الحق إلا للراشدين النابهين المخلصين ... ولن تمنحها أبداً لغيرهم ...

وهذا الكتاب ... خطوة من خطوات دار الصحوة ... في هذا الطريق .

دار الصحوة

حدائق حلوان نوار عمارات المهندسين

شارع جمال عبد الناصر

القاهرة